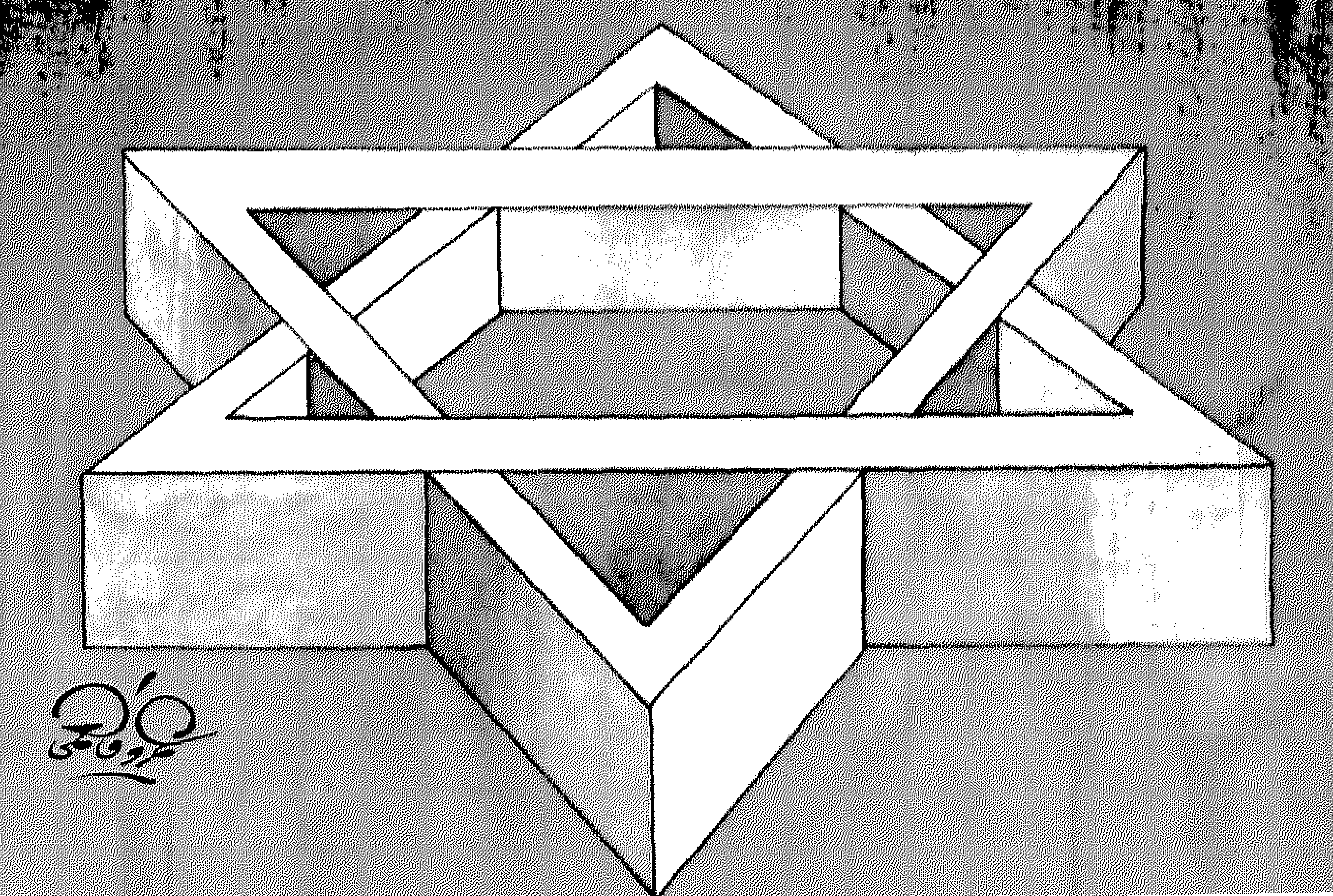
كتاب اليوم

العرب ومحرقة اليهود

تأليف: روبرت ساتلوف

عرض وتعليق:

د. رمسيس عوض



كتاب اليوم

رئيس مجلس الإدارة

محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نـــوال مصطفـــى

العرب ومحرقة اليهود

تأليف

روبرت ساتلوف

عرض وتعليق

د. رمسيس عوض

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٤٩٥
يونيو ٢٠٠٧

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٥٨٠٦٢٣٥
تليفاكس: ٥٧٨٤٤٤٤

الغــلاف :
عمرو فهمى

الإخراج الفنى :
عبدالقادر على

تخفيض ١٠٪
من قيمة الاشتراك
لطلبــة المدارس
والجامعات المصرية

أسعار البيع
خارج مصر

سـوريا ١٥٠ ل. س - لبنــان ٥٠٠٠ ل. ل - الأردن ٢ دينـار الكويت ١ دينار - السعـودية ١٢ ريال - البحرين ١,٢ دينار قطر ١٢ ريــال - الإمارات ١٢ درهم - سلطنـة عمــان ١,٢ ريــال تونس ٣ دينار - المغــرب ٣٥ درهـم - اليــمن ٥٠ ريال فلسطين ٢,٥ دولار - لنـدن ٢,٥ جـك - أمريكا ٥ دولار - أسـتـراليـا ٥ دولار اسـتـرالى - سويسـرا ٥ فرنك سـويسـرى.

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

قبل أن تقـــــرأ..

فى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ البشرية والتى تشهد صراعًا ذا أبعاد مختلفة بين الشرق والغرب.. صراع مصالح واستراتيجيات وعقائد وأيديولوجيات تستخدم فيه كل الوسائل الممكنة لتقديم الدليل على هيمنة كل طرف على الآخر وامتلاكه لكل قواعد اللعبة.. تتجلى أهمية الحوار وتعلو قيمة الاعتراف بوجود الآخر ومناقشة فكره ورؤاه.. أن نكتشف طريقتهم فى التفكير.. أن نرى صورتنا فى مرآتهم.

ومن هذا المنطلق ومن قناعتى بضرورة تقديم وجبة متنوعة لقراء «كتاب اليوم» فقد شغلتنى كثيرًا هذه الإشكالية.. «الأنا» و«الآخر».. «نحن» و«هم».

لذلك تحمست لنشر هذا الكتاب، ومؤلفه كاتب يهودى هو روبرت ساتلوف، وهو متخصص فى شئون الشرق الأوسط وله العديد من الكتب والمؤلفات فى هذا السياق.

أما الكاتب الذى قرأ وترجم وقدّم تحليلاً له فهو الدكتور رمسيس عوض.. وقد استطاع بخبرته الطويلة وأسلوبه

الشائق أن يجذب انتباهى منذ أول جملة فى مقدمة الكتاب حيث قال «هذا الكتاب الصادرفى أمريكا يهم العرب فى المقام الأول واليهود فى المقام الثانى ثم الأوروبيين فى المقام الثالث».. جعلتنى هذه الجملة أفكر مليًا هل يستطيع أى كتاب أن يجمع بين دفتيه إهتمامات وقضايا الشرق والغرب.. هل يكون هذا الكتاب رابطًا أو حلقة بين العرب واليهود.. حتى ولو كانت عبارة عن حبر على ورق أفكار طائرة على صفحات كتاب.

أما المحرقة أو «الهولوكست».. فهذه الحادثة التى يؤمن الغرب بها وتعتذر أوروبا ملايين المرات كل عام عنها.. ويكذبها الشرق ويدحض كل الآراء فيها بأسانيده من حيث أرقام الضحايا أوحتى حدوثها من عدمه.. لكن الأهم أنها مثار جدل عنيف وقضايا خلافية بين المعسكرين.. صدر عنها كتب.. ولكن أين العرب فيها؟

هنا السؤال.. الذى سوف تجدون إجابة عنه داخل هذا الكتاب.. كيف ساعد العرب اليهود وأنقذوهم من الاضطهاد فى مختلف أنحاء الشرق الأوسط؟! أتركم لتقرأوا كتابًا كتبه مفكر أمريكى يهودى ويعرضه ويقدمه واحد من أبرز كتابنا.. الدكتور رمسيس عوض.

نوال مصطفى

يونيو ٢٠٠٧

مقدمة

هدف المؤلف المعلن

هذا الكتاب الصادر فى أمريكا فى أواخر عام ٢٠٠٦ يهم العرب فى المقام الأول واليهود فى المقام الثانى ثم الأوروبيين فى المقام الثالث فهو يتناول موضوعا فى غاية الخطورة ويطرح سؤالا عظيم الدلالة: «هل فعل العرب شيئا من أجل إنقاذ اليهود من المحرقة التى أعدها النازيون لهم؟» وما الظروف التى تم فيها هذا الانقاذ.. والجدير بالذكر ان العنوان الذى اخترته لهذا الكتاب ليس عنوانه الأصلى فعنوانه الأصلى هو «بين الأتقياء» كما أنه يحمل عنوانا فرعيا هو «حكايات ضاعت عن وصول محرقة اليهود إلى الأراضى العربية».

مؤلف هذا الكتاب مؤرخ يهودى له باع طويل فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث الذى درسه فى جامعات أكسفور وهارفارد وديوك ولاغرو، فقد خالط العرب وتعلم لغتهم وعاش بين ظهرانيهم ردحا طويلا من الزمن. وهو لا ينكر ولاءه لوطنه أمريكا كما انه لا يخفى صلته بإسرائيل يقول هذا المؤلف واسمه روبرت ساتلوف إنه بعد ظهر يوم أحداث الحادى عشة من سبتمبر ٢٠٠١ اتجه إلى الأفينيو «الشارع الرئيسى» الخامس فى نيويرك ليرى بنفسه مقدار الدمار الذى لحق بالبرجين الشهيرين وبينما هو يسير فى الطريق ألح عليه السؤال العجيب التالى: «هل يوجد بين

العرب من أنقذ بعض اليهود من المحرقة النازية؟!» وأيضا ألحت عليه أهمية فهم أمريكا وإسرائيل للثقافة العربية حيث ان مثل هذا الفهم الصحيح قمين بإزالة اسباب الخلاف بينهما وبين العرب. ومعنى هذا ان المؤلف يسعى إلى ترسيخ ثقافة السلام ونبذ ثقافة الصراع والحرب. والذى عند روبرت ساتلوف أن الثقافة العربية ليست ثقافة واحدة بل مجموعة من الثقافات المتعددة، وان الشعب العربى ليس شعبا واحدا بل إنه فى حقيقة الامر عدة شعوب زاخرة بخليط قابل للاختراق من الإثنية والعنصرية والدين والقومية. اما النقطة الثانية التى لفتت أنظاره فى الثقافتين العربية واليهودية معا فهى شدة تأثرها البالغ بأحداث التاريخ. فالتاريخ مهما أوغل فى الماضى لايزال ينبض بالحياة عند العرب واليهود على حد سواء ويبرز روبرت ساتلوف نقطة اعتقد ان الصواب لا يجانبه فيها وهى انصراف المؤرخين والمثقفين العرب عن دراسة محرقة اليهود بسبب وجود علاقة وثيقة بين هذه المحرقة والتعجيل بانشاء دولة إسرائيل، فالمثقفون العرب يريدون تجنب أى مبرر لقيام هذه الدولة حيث إن هذا المبرر قد يضفى على وجودها شيئا من الشرعية ولهذا يسعى ساتلوف إلى حث العرب على الاعتراف بالمحرقة دون أدنى إحساس بالخجل وان يتذكروا دائما إنهم اتقياء وأنهم لعبوا دورا مشرفا فى إنقاذ عدد من بنى إسرائيل من براثن القوات النازية التى اجتاحت شمال أفريقيا إبان الحرب العالمية الثانية. ويستطرد المؤلف قائلا: إن تفكيره بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر تركز على شئ واحد هو الكشف عن الشهامة التى أظهرها عرب شمال أفريقيا نحو اليهود من منطلق أن تعاليم القرآن والتلمود تنص على أن إنقاذ نفس واحدة هو بمثابة إنقاذ لحياة جميع الناس. عندئذ يمكن للعربى ان يفخر بعروبته ويجد فى موقفه الايجابى من الهولوكست نوعا من عزة النفس التى تغنيه عن إنكار محرقة اليهود أو تحاشى الحديث عنها.

مما شجع ساتلوف على التنقيب عن دلائل هذه الشهامة العربية انه كان يعرف ان حفنة قليلة من عرب فلسطين انقذوا عشرات المهاجرين اليهود إليها من القتل على ايدى بن جلدتهم فى مدينة الخليل عام ١٩٢٩.

بدأ مؤلفنا بحثه العجيب بإرسال عدد من الرسائل الالكترونية إلى المؤرخ الشهير مارتن جلبرت وإلى والتر رايخ المدير السابق لمتحف ذكرى الهولوكست بالولايات المتحدة وكذلك إلى مونكاى بالاييل رئيس قسم البحث عن الاتقياء الذين ساعدوا على انقاذ اليهود من المحرقة فى المتحف القومى لذكرى المحرقة فى اسرائيل والمعروف باسم ياد فاشيم. ولكن جميع هؤلاء المتخصصين خيبوا أمله وردوا على استفساراته بردود سلبية مفادها أنه من الناحية الرسمية ليست هناك بعد مرور ستين عاما على أحداث الهولوكست ثمة دليل على وجود عربى واحد طاعن فى السن يستطيع ان يقدم البينة على ان بعض العرب انقذوا عددا من اليهود من الإبادة النازية.

ومضى شهران على احداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ قرر المؤلف بعدها السفر مع زوجته جينى الموظفة فى البنك الدولى إلى الرباط عاصمة المغرب التى كان قد سمع عنها وعن بلاد شمال افريقيا فى فترة طفولته من والده الذى روى له عنها حكايات مثيرة وخلابة فى فترة التحاقه بسلاح الطيران الأمريكى فى عام ١٩٤٣، غادر مؤلفنا واشنطن فى صحبة زوجته وولديه وتوجهوا إلى المغرب فى ابريل ٢٠٠٢ حيث عاشوا لمدة عامين ونصف العام انكب فيها على دراسة السجلات والوثائق مستعينا بالمترجمين ومقابلة الخبراء واستشارة المتخصصين فى شئون الهولوكست. ورغم ان ابحاثه امتدت إلى نحو أثنى عشر قطرا موزعة على اربع قارات فإن ابحاثه باءت بالفشل الذريع.

كان ستالوف يدرك منذ وقت باكر ان بحثه عن العرب الاتقياء الذين خفوا إلى انقاذ اليهود من الابادة النازية لن يجدى فتيلا إلا

اذا تم فى اطار أوسع ليشمل اليهود الذين يعيشون فى البلاد العربية كما يشمل تقصى مصير النصف مليون يهودى فى هذه البلاد الخاضعة آنذاك للاستعمار الأوربى وموقف هذه البلاد من الهولوكست. ويعترف مؤلفنا انه وجد بحثه يتشعب لدرجة يعجز معها باحث بمفرده ان يتقصى الحقيقة وان معرفتها تحتاج إلى حشد من الباحثين المساعدين لدراسة وفحص أكثر من مائة معسكر عمل اقامها النازيون الألمان والفاشيون الطليان وحكومة فيشى العميلة فى البلاد العربية لتتبع حكايات آلاف اليهود الاشكنازى والسفارديم الذين زج النازيون بهم فى معسكرات الصحراء.

ودلت تحريات مؤلفنا إلى وجود قصص ضائعة ليهود وغير يهود تعرضوا للاضطهاد النازى فى البلاد العربية. ويذكرنا المؤلف فى هذا الصدد بالفيلم الاجنبى المعروف «الدار البيضاء» حيث تشاهد ضابطا من الجستابو النازى يحث زوجة أحد رجال المقاومة التشيكية المناهضة للنظام النازى ان تقنع زوجها بضرورة عودته إلى باريس واعدا إياها بأن يتولى الألمان حمايته. ويجرى الحوار بين الضابط النازى الرائد ستراسر وإيلس زوجة رجل المقاومة كالتالى:-

ضابط الجستابو: «ليس أمامه سوى خيارين لا ثالث لهما».

الزوجة إيلس: وما هما؟

ضابط الجستابو: يمكن للسلطات الفرنسية أن تجد سببا يدعوها إلى الزج به إلى احد معسكرات الاعتقال هنا؟

إيلس: وما الخيار الثانى؟

ضابط الجستابو: يا سيدتى العزيزة لعلك لاحظت أن الحياة فى الدار البيضاء رخيصة.. عمت مساء يا سيدتى.

يقول المؤلف انه عند عرض هذا الفيلم فى دور السينما فى ديسمبر ١٩٤٢ لم يلاحظ المشاهدون تلك الاشارة العابرة إلى وجود معسكرات اعتقال نازية فى المغرب. وقد ظل أمر هذه

المعسكرات خافيا على عامة الناس لا يعرفه سوى قلة من الدارسين والباحثين.

ولهذا كان من الطبيعى ان تسقط من ذاكرة التاريخ كل الحكايات التى جرت فى هذه المعسكرات برغم وجود إشارات مبتسرة فى بعض الكتب والمذكرات إلى الدور البطولى والمشرف الذى اضطلع به بعض العرب لانقاذ السجناء الذين زج بهم النازيون وحكومة فيشى فى معسكرات الاعتقال التى اقامتها هذه الحكومة العميلة للنازية فى مستعمراتها فى شمال أفريقيا.. ويعبر المؤلف عن أسفه لاندثار هذه الحكايات ويؤكد أنه نذر جانبا من عمره لإحياء ما اندثر واسترجاع ما سقط من ذاكرة التاريخ.

ورغم سعى ساتلوف إلى إحصاء عدد ضحايا الهولوكست فى شمال افريقيا فإنه يؤكد لنا انه يهتم اولا واخيرا بابراز العلاقات الطيبة التى جمعت بين من يسميهم العرب الاتقياء وضحايا النازية من يهود شمال افريقيا.

ويضيف المؤلف أنه لا يحاول تصوير العرب والمسلمين فى إطار رومانسى بل هو يتحدث بوصفه مؤرخا يرصد الوقائع ويتمحص الحقائق وفضلا عن انه يدرك المشهد السياسى الراهن وحقيقة مشاعر الكراهية التى يحملها العرب لليهود ويحملها اليهود للعرب.. ولكنه يرى ضرورة تجاوز هذه الكراهية من أجل إقامة جسور من التفاهم بين طرفى الصراع الاسرائيلى - الفلسطينى.

ويستطرد ساتلوف قائلا انه يستخدم كلمة العرب بمعناها الواسع حيث ان الكثيرين ممن ابدوا شهامة فى إنقاذ يهود شمال افريقيا كانوا من البربر الذين عاشوا فى هذه المنطقة قبل الفتح العربى لها.

وهناك نقطة أخرى تستحق الاهتمام وهى ان نفرا من اليهود الذين أنقذهم الأتقياء العرب من الهولوكست لم يكونوا يهودا خالصين بل كانوا يهودا عربا يتحدثون اللغة العربية ولا يعرفون شيئا عن اللغة العبرية. فضلا عن أنه كانت هناك جماعات كبيرة

من اليهود المنحدرين من اصل أوربى والتى نزحت إلى شمال افريقيا من ايطاليا ومالطا واليونان، أى أنهم جماعة من اليهود تربطهم ببلادهم الاصلية علاقات عرقية ولغوية وثقافية واحيانا سياسية.

أول القصيدة كفر

قلنا ان هدف المؤلف المعلن هو إزالة روح البغضاء والكراهية التى تسيطر على العلاقة بين العرب واليهود غير ان مطلع كتابه يتعارض تماما مع هذا الهدف المعلن فهو يعطى الانطباع بأن العرب جماعة من الخونة والغادرين فصفحاته الأولى تروى قصة وشاية تاجر تونسى اسمه حسن فرجانى بعائلة يهودية واسعة الثراء هى عائلة شملا. ولست استبعد ان يكون واحدا من أفراد هذه العائلة كان يملك محلات شملا الشهيرة فى مصر. وبفرض ان القصة صحيحة فإن روايتها فى صدر الكتاب تعطى الانطباع السىء الذى أشرت إليه لدى القارئ العربى.. كما انه يوحى - ولو خطأ - بأن عنوان الكتاب «بين الاتقياء» يتضمن نوعا من الزراية بالعرب والسخرية، فهم ليسوا أتقياء بل أشرارا .. ولحسن الحظ ان هذا الانطباع السلبى لا يعبر عن فحوى الكتاب.

يقول المؤلف انه ذهب فى أواخر اكتوبر ٢٠٠٥ إلى باريس لمقابلة رجل فرنسى فى الرابعة والستين من عمره يدعى فردريك جاسكيه ليستفسر منه عن عائلة يهودية عاشت فى تونس تعرف بعائلة شملا.

وفى الاسابيع الاخيرة من عام ١٩٤٢ اجتاحت القوات الالمانية الثلث الشرقى من تونس «التى كانت آنذاك تحت الاحتلال الفرنسى» الامر الى اصاب يهوديا اسمه جوزيف شملا البالغ من العمر أربعة وخمسين عاما بالغم الشديد. كان هذا الرجل تاجر أقمشة ناجحا يعيش فى بحبوحة من العيش مع زوجته ونجليه جلبرت وجين. وكان هذا التاجر اليهودى يشعر بالامتنان لفرنسا

لانها اتبعت مؤخرا سياسة ليبرالية مستنيرة جعلتها تسمح لليهود الذين يعيشون على الاراضى الفرنسية بالتجنس بالجنسية الفرنسية. وما ان استن الفرنسيون فى عقد العشرينيات قانون الجنسية الجديد حتى اغتنم جوزيف شملا هذه الفرصة وتجنس بالجنسية الفرنسية وبذل جهدا مضنيا لتحسين ظروفه المعيشة حتى يتمكن ابنه الاكبر جلبرت من الالتحاق بمدرسة باريسية راقية هى مدرسة البوليتكنيك.. وكانت حمية جلبرت الوطنية عظيمة و لهذا لم يتردد لحظة واحدة فى التطوع فى الجيش الفرنسى للذود عن وطنه فرنسا وأبلى هذا الشاب الملئ بالحماس بلاء حسنا فى معركة سوم الشهيرة التى وقعت فى ربيع عام ١٩٤٠ وانتهت بهزيمة فرنسا النكراء امام القوات النازية وفى ذاك الوقت كان جين - ابن جوزيف شملا الاصغر - يستعد لتقديم اوراقه للإلتحاق بنفس مدرسة أخيه الاكبر جلبرت.

وبعد عقد هدنة بين فرنسا وألمانيا عاد الابن الاكبر جلبرت ليلتحق بعائلته فى تونس.. وفى ظل انكسار الجيش الفرنسى ومجيء حكومة فيشى العميلة للنازية برئاسة المارشال بيتان كابدت عائلة شملا فى تونس ضيقا شديدا.. وزاد وضع اليهود فى تونس سوءا عندما قامت القوات الامريكية و البريطانية فى ٨/٧ نوفمبر ١٩٤٢ بغزو برمائى لكل من مراكش والجزائر فى عملية عسكرية تعرف بالشعلة. ورد الألمان على هذا الغزو الانجلو -امريكى بتشديد استحكاماتهم الدفاعية فى تونس لوقف تقدم قوات الحلفاء. وفى ٩ نوفمبر ١٩٤٢ شن الالمان هجوما جويا على مطارات تونس تمهيدا لاحتلالها وما ان احتل الألمان تونس حتى ألقوا القبض على اليهود وصادروا املاكهم وزجوا بهم فى معسكرات العمل وألبسوهم الشارة الصفراء التى تميزهم عن بقية خلق الله .. فضلا عن قيامهم بترحيل بعضهم خارج البلاد..

وقرر نجلا جوزيف شملا مقاومة الاحتلال النازى بتونس واسرا إلى والدهما برغبتهما فى الهرب من المنطقة التى احتلتها القوات

النازية للانضمام إلى قوات الحلفاء الرابطة فى غرب تونس. فوافقهما على ذلك. وخطط الاب وولداه لاجتياز الخطوط الالمانية القريبة من منطقة زغوان الجبلية فى جنوب تونس. وكان لجوزيف شملا شريك عربى وضع فيه كل ثقته اسمه حسن فرجانى. واستشار الولدان هذا العربى فاقترح عليهما الهرب من تونس عن طريق مصيف غير مأهول فى قرية الحمامات وكان فرجانى يمتلك بيتا فى هذا المصيف فنصحهما بالاختباء فيه حتى تحين الفرصة المواتية للهرب.

وقبلت عائلة شملا هذا العرض شاكرة لصديقها العربى حسن صنيعه. وبالفعل انتقلت كل عائلة شملا إلى المصيف المقترح.. وهناك استأجرت عشة بالقرب من منزل فرجانى لتسكنه كلير زوجة جوزيف رب الاسرة وليلا عروس الابن الاكبر جلبرت. وظلت عائلة شملا تتناقش مع صديقها التاجر العربى حسن فرجانى لمدة اسابيع خطة الهرب التى اقترحها فرجانى وهى اختباء الولدين فى باطن عربة يجرها حصان للانتقال من الحمامات إلى زغوان فى حين يختبئ والدهما فى عربة أخرى يجرها حصان تسير خلفهما وقامت أسرة شملا بتسليم فرجانى عشرين ألف فرنك لاستئجار تونسى اسمه رجب فرج الله لمساعدتهما فى تنفيذ خطة الهرب. وادخل فرجانى الطمأنينة فى نفس العائلة اليهودية بقوله ان الحراس الألمان يعرفونه جيدا بسبب كثرة تنقلاته واسفاره على هذه المنطقة. ومن ثم فهم لن يشكوا فيه مطلقا. وطلب فرجانى من شريكه جوزيف إقراضه مبلغا من المال لتوسيع محله الصغير لبيع الملابس فلم يتردد هذا الثرى اليهودى فى إجابته إلى طلبه.

وفى ختام يوم ١٠ مارس ١٩٤٣ تخفى الإبنان اليهوديان جلبرت وجين فى ثياب العمال العرب المحليين و اختبآ داخل العربة التى يجرها حصان وركب كل من فرجانى وفرج الله أعلى العربة التى اخترقت قلب قرية الحمامات.. لكن الحراس الالمان ما لبثوا ان اوقفوا العربة على بعد مائتى ياردة من القيادة الألمانية.. هكذا

اتضح امر الاخوين الهاربين وتم إلقاء القبض عليهما وكان والدهما مختبئا فى العربة التى تسير خلفهما فقام النازيون بالقاء القبض عليه ايضا.

وبعد انقضاء عدة ساعات ظهر التاجر العربى فرجان فى العشة النى تسكنها كلير زوجة جوزيف مع ليلا زوجة جلبرت لينقل إليهما هذه الاخبار السيئة وحذرهما من قدوم الألمان فى اية لحظة ومصادرة كل ممتلكاتهما من مال وجواهر واقترح عليهما ان يتولى الاحتفاظ بثروة العائلة لحين زوال هذه المحنة مؤكدا انها سوف تكون فى الحفظ والصون. ونظرا لان كلير كانت تعرف مدى ثقة زوجها جوزيف بهذا التاجر العربى فقد سلمته كل شئ وسرعان ما وصلت إلى كلير وليلا أنباء عن الزج بالوالد وابنيه فى سجن حربى فى تونس لتقديمهم إلى محاكمة عسكرية واستجارت المرأتان بأكبر دبلوماسى فرنسى يمثل بلاده فى تونس ولكنه فرك راحتيه واعتذر بأنه ليس فى مقدوره أن يفعل شيئا.. وكان من العبث ان تذكره الام بأن ولدها جلبرت كاد ان يموت وهو يحارب من أجل فرنسا. وكذلك استجارت المرأتان بأعيان تونس وحاكمها الباى ولكنهم جميعا اعتذروا عن عجزهم عن المساعدة .. ودفع اليأس الأم كلير إلى الذهاب بنفسها إلى مركز القيادة الألمانية وتوسلت إلى الضابط المسئول ان يفرج عن زوجها وولديها. واستمع الضابط الالمانى المختص لشكواها لكنه فى النهاية حطم كل الآمال التى راودتها فقد قال لها: «آسف يا سيدتى.. ولكن كان ينبغى عليك عدم الزواج بيهودى».

من تونس إلى معسكر داكاو للاعتقال

وفى ٥ أبريل ١٩٤٣ وقبل ايام قليلة من تمكن قوات الحلفاء من الاستيلاء على خطوط الدفاع الألمانية فى قلب تونس تم ترحيل اليهود الثلاثة المقبوض عليهم عن طريق الجو إلى المانيا حيث ظلوا محبوسين لمدة عام فى معسكر الاعتقال النازى الشهير داكاو. ثم

أمر النازيون بوضعهم فى سجن حربى اسمه قلعة زينا فى تورجو على نهر الإلب. وفى مايو ١٩٤٤ قدم ثلاثتهم إلى محكمة عسكرية ألمانية.. واستندت المحكمة فى إدانة المتهمين الثلاثة إلى شهادة التاجر العربى حسن فرجانى صديق جوزيف شملا القديم.

وتبين ان هذا العربى الخسيس كان عميلا للمخابرات النازية.. وكان اتهام فرجانى لعائلة شملا اليهودية بالتجسس لحساب قوات الحلفاء بمثابة الضربة القاضية عليها. فقد حكمت المحكمة على المتهمين الثلاثة بالإعدام.. وبينما كان الابن الأكبر جلبرت قابعا فى غياهب زنزانته رقم ٥٣ ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه سطر خطابا إلى زوجته ليلا عبر فيه عن حبه الابدى لها. وطلب منها ان تكون شديدة العناية بتربية ابنهما فريدى الذى كان انذاك فى الثالثة من عمره. وقال لها فى خطابه: «علميه ان العطاء أفضل من الاخذ وأن الصداقة أعظم نعمة فى هذا العالم». ثم رجاها ان تتزوج من رجل تحسن اختياره كى ينشأ ابنهما فريدى فى كنفه وبعد مضى شهرين فقط تم تنفيذ حكم الاعدام بالمقصلة فى جلبرت ثم فى اخيه الاصغر جين. واخيرا جاء الدور لإعدام الاب.

وبعد انتهاء الحرب ارسل نائب ادميرالية البحرية الفرنسية رسالة إلى كلير شرح فيها ما حدث لزوجها وولديها.

يمهل ولا يهمل

نعود إلى تونس كى نتتبع مصير الخائن حسن فرجانى فنقول ان الجندرمة الفرنسية قبيل غزو القوات الحليفة لتونس بأيام قامت يوم ١٤ مايو ١٩٤٣ بالقبض على كل من فرجانى وفرج الله وزجت بهما فى سجن اقليمى. فى منطقة نابول التونسية.. بعد ان تحررت تونس من قبضة النازيين واسترجعت فرنسا سابق حكمها لهذه البلاد بادرت كلير زوجة جوزيف شملا برفع دعوى قضائية ضد فرجانى واتهمته بالاستيلاء زورا على ممتلكات عائلة شملا ومستودعاتها المليئة بالبضائع.

وبعد مضى اثنى عشر يوما على حبسه فى نابول زج بفرجانى فى نفس السجن الحربى الذى سبق للنازيين ان زجوا بعائلة شملا فيه. غير ان السلطات الفرنسية ما لبثت ان افرجت عن زميله فرج الله الذى كانت مؤامرة فرجانى ضد عائلة شملا خافية عليه. وحوكم فرجانى امام محكمة عسكرية فرنسية فى تونس فثبت تورطه فى التآمر على عائلة شملا وتعاونه مع العدو النازى، ولسخرية القدر اصدرت المحكمة الفرنسية عليه حكما بالإعدام حتى قبل ان تصدر المحكمة الالمانية حكمها بالاعدام على عائلة شملا بستة شهور.

ويؤكد المؤلف روبرت ساتلوف ان هذه هى أول وآخر حالة استطاع العثور عليها خلال بحثه لعربى ادانته محاكم الحلفاء لتسببه فى القضاء على اليهود فى فترة الحرب العالمية الثانية.

والجدير بالذكر ان حكم الاعدام لم ينفذ فى فرجانى الذى استطاع بفضل انخراطه فى العمل السياسى السرى ان يظهر بمظهر الوطنى الغيور على بلاده الامر الذى جعل مدعيا عاما فى احد اقاليم تونس ينبرى للدفاع عنه ويستأنف امام احدى المحاكم الجزائرية ضد حكم الاعدام الصادر عليه.

وتمكن هذا المدعى العام من إقناع المحكمة بتخفيف حكم الاعدام إلى السجن المؤبد. غير انه لم يقض مدة عقوبته كاملة حيث انه لم يقبع وراء القضبان سوى اربعة عشر عاما فبعد عام من حصول تونس على استقلالها عن فرنسا اطلقت حكومة الجمهورية العربية سراحه يوم ١٩ مارس ١٩٥٧ وبعد الافراج عنه عاد إلى الحمامات حيث افتتح محلا صغيرا لبيع الاقمشة. ولكنه فشل فى التجارة وانتهى به إلى الاشتغال كسائق خصوصى للسيارات ثم وافته المنية فى عام ١٩٨١.

المفاجأة

والمفاجأة التى يحملها الكتاب ان فردريك جاسكيه الذى سعى

المؤلف إلى مقابلته فى باريس للاستقصاء عن عائلة شملا هو فريدى ابن جلبرت من زوجته ليلا فقد تزوجت ليلا بعد إعدام زوجها من مهندس فرنسى يدعى لويس جاسكيه وهو ابن لرجل كاثوليكى طيب القلب أحب فريدى وعطف عليه. ورأت الام ان مصلحة ابنها ان يتخلى عن الديانة اليهودية التى جلبت على عائلته المصائب والكوارث فحولته إلى الديانة الكاثوليكية التى اعتنقها زوجها وشب فريدى «الذى اصبح الآن يحمل اسمه الجديد فردريك جاسكيه» دون ان يعلم عن أصوله اليهودية وعن إعدام أبيه وعمه وجده أى شئ.. ولكن ما ان تقدم به العمر حتى أخذ يبحث بكل همة ونشاط عن شجرة عائلته وظروف اعدام والده.

وإن دلت هذه القصة على شئ فانما تدل على ان اليهود فى شمال افريقيا لم يسلموا من الهولوكست وعلى ان الهولوكست انتقل من اوربا إلى البلاد العربية.

د.رمسيس عوض

الفصل الأول

حكومة فيشى تضطهد يهود شمال أفريقيا

بحلول شهر فبراير عام ١٩٤٣ وعقب اندحار القوات الألمانية في معركة ستالينجراد على يد الجيش الأحمر لم تصبح أوربا ميدانا للقتال حيث إن الحرب انتقلت من اوربا إلى تونس وقبل التاريخ المشار اليه بإثنى عشر أسبوعا شنت القوات الامريكية والبريطانية اكبر هجوم برمائى شهده التاريخ، شمل عشرات الآلاف من الجنود الذين نزلوا فى بقعة ساحلية واسعة تمتد من بلدة صامى «أسفى» جنوب الدار البيضاء إلى كاب ماتيفور «رأس بوفرعون» فى شرق الجزائر. واشتبكت القوات الأنجلو- الأمريكية فى معركة ضارية ضد قوات حكومة فيشى الفرنسية. وهى أول معركة مهمة يخوضها الجيش الأمريكى منذ دخوله الحرب وانضمامه إلى صفوف الحلفاء. وانتهت هذه المعركة بهزيمة القوات الفرنسية واستسلامها، الأمر الذى جعل الجنرال ايزنهاور يترك ثكنته تحت الأرض فى مركز قيادته العسكرية فى جبل طارق ليعيش فى فيلات الجزائر المطلية بالطلاء الابيض . وفى الجزائر بدأ ايزنهاور فى تنفيذ خطته فى الزحف شرقا لمسافة ٥٦٠ ميلا للوصول إلى تونس لطرد قوات المحور من القارة الأفريقية تمهيدا لغزو إيطاليا حتى يصل بقواته إلى قلب أوربا الخاضعة للاحتلال النازى.

وكانت لألمانيا خطة أخرى حيث انها قررت بعد احتلالها لفرنسا عام ١٩٤٠ عدم إرسال اى من قواتها إلى شمال افريقيا لحكم المستعمرات الفرنسية مكتفية بالاعتماد على حكومة فيشى العميلة وبالاشراف عليها عن طريق مئات الضباط الألمان المعينين فى لجنة مراقبة الهدنة بين ألمانيا وفرنسا. ولكن الغزو الانجلو- أمريكى لشمال افريقيا الذى فتح جبهة قتال جديدة أرغم النازيين على التخلى عن خطتهم. ولم يجد هتلر مناصا من الانخراط فى القتال على أرض القارة السوداء لان التخلى عن افريقيا - كما قال هتلر - معناه تسليم حوض البحر الابيض المتوسط بكامله إلى العدو. ويضيف هتلر فى هذا الصدد: «وهذا لا يعنى انهيار ثورتنا فحسب بل يعنى دمار مستقبل شعبنا ايضا».

وعندما ارسلت ألمانيا أسراب طائراتها فى سماء ميناء بنزرت الاستراتيجى على شاطئ تونس الشمالى وفوق العوينة خارج تونس العاصمة اسقط فى يد القوات الفرنسيين المحليين ولم يعرفوا كيف يتعاملون معها.. هل يرحبون بالطائرات الألمانية ام يطلقون النار عليها ام يتخذون موقفا محايدا منها واصاب الارتباك القيادة الفرنسية المحلية فتضاربت اوامرها الصادرة من الجزائر مع الأوامر الصادرة من حكومة فيشى فى فرنسا. ولم يزل هذا الارتباك إلا بعد ان اصدر المارشال بيتان رئيس حكومة فيشى أمرا بمساندة قوات المحور. ولم تمض ايام حتى تمكنت قوات المظلات الالمانية من إقامة قاعدة امامية فى تونس واستقدام جيش ألمانى عرمرم من الجنود والطيارين والبحارة، بالاضافة إلى عدد من الضباط العاملين بوحدة البوليس الخاصة.. وكانت اوامر هتلر إلى قوات الجيش النازى واضحة وضوح الشمس: «يجب الاحتفاظ بشمال افريقيا بأى ثمن لان شمال أفريقيا هو المدخل إلى اوروبا». وفى ظل القتال الشرس بين قوات المحور وقوات الحلفاء فى شمال افريقيا عانى شعب تونس من الويلات. وكان يهود تونس على رأس الذين عانوا. وهكذا انتقلت سياسة إبادة اليهود المعروفة

بالهولوكست من قلب اوربا إلى تونس التى تضررت من الحرب العالمية الثانية تضررا بالغا دون ان يكون لها فى هذه الحرب ناقة أو جمل. وعقدت القوات النازية العزم على إبادة اكثر من نصف مليون يهودى كانوا يعيشون فى منطقة عربية امتدت من الدار البيضاء وطرابلس إلى القاهرة.. ولكن هزيمة الألمان حالت دون تنفيذ ذلك المخطط.

وفى البلاد العربية الرازحة تحت الاحتلال النازى والاحتلال الفاشى لحق الاذى بآلاف اليهود الذين زج بهم فيما يقرب من مائة معسكر اعتقال وعمل. وفى ظل هذا الاحتلال فقد ألوف اليهود بيوتهم ومزارعهم ووظائفهم ومدخراتهم. حتى عامة اليهود الذين لم يتم إعتقالهم لم يسلموا من الأذى فقد كانوا يتلقون حصصا تموينية أقل من حصص الآخرين.

والجدير بالذكر ان الحكم الفاشى قضى على نحو اربعة أو خمسة آلاف يهودى وان نحو ألف ومائتى يهودى نازحين من شمال افريقيا إلى فرنسا وجدوا انفسهم محاصرين فأرسلتهم حكومة فيشى إلى معسكرات الموت فى بولندا وغيرها من البلاد. وكان اصغر هؤلاء الضحايا سنا رضيعا اسمه أبراهام طيب يبلغ من العمر ثلاثة شهور فى حين كان اكبرهم سنا إيزاك أدا الجزائرى الذى يبلغ من العمر خمسة وثمانين عاما. فضلا عن موت الكثير من يهود شمال افريقيا نتيجة القصف الانجلو- أمريكى اليومى فى الشهور الأولى من عام ١٩٤٣ ونتيجة إرغام النازيين لهم على إزالة الانقاض اثناء استمرار الغارات.

ويقدر روبرت ساتلوف عدد القتلى اليهود بنحو ١٪ من مجموعة اليهود الذين يعيشون فى المستعمرات الفرنسية الواقعة فى شمال افريقيا. ولحسن حظ يهود هذه المنطقة العربية عدم وجود وسائل نقل متاحة مثلما كان الحال فى اوروبا حيث توفرت شبكات سكك حديدية كثيرة ومعقدة استغلها النازيون فى نقل سجناء معسكرات الاعتقال النازية المتناثرة فى طول اوربا وعرضها. ولولا نجاح

الحلفاء فى إلحاق الهزيمة بالألمان لاستطاع الألمان القضاء قضاء مبرما على الجاليات اليهودية التى عاشت على ارض مراكش والجزائر وتونس وليبيا، وربما مصر وفلسطين على مدى ألفى عام.

ويذهب ساتلوف إلى ان اوربا كانت المركز الذى انبعث منه الهولوكست والعداء للسامية وان البلاد العربية الاقرب إلى اوربا «مثل شمال افريقيا» هى التى تأثرت باحداث محرقة اليهود اكثر من المناطق البعيدة عنها. وهذا واضح من حالة كل من سوريا ولبنان اللذين لم يتأثرا بالهولوكست قدر تأثر تونس والجزائر ومراكش به. فضلا عن ان قوات فرنسا الحرة استطاعت انتزاع دمشق من قبضة حكومة فيشى فى وقت باكر فى يونيه ١٩٤١.

ولم يشهد العراق تأججا فى عداوته لليهود إلا لفترة قصيرة من الزمن.. فقد كانت الاسرة الهاشمية التى آزرت بريطانيا فى حربها ضد الحكم العثمانى فى فترة الحرب العالمية الأولى تحكم العراق منذ عام ١٩٣٢ دون ان تسمح باستفحال المشاعر المعادية للسامية. وظل يهود العراق يتمتعون بوضع طيب حتى ١ أبريل ١٩٤١ عندما تمكن رشيد على الكيلانى من الاطاحة بعرش الملك عبدالاله المناصر لبريطانيا مما اضطره إلى الفرار من بغداد.. كان رشيد على المناهض لبريطانيا من اشد الناس ولاء لمفتى القدس المناصر للنازية الحاج امين الحسينى.. الذى لم يكف عن بث دعايته المسمومة ضد بريطانيا من محطة اذاعة بغداد.

غير ان حكم رشيد على الكيلانى لم يدم اكثر من شهرين فقد استطاع البريطانيون إعادة عائلة عبدالإله إلى الحكم وسط ترحيب اليهود بسلامة عودته، الامر الذى اثار حفيظة جانب من العراقيين الذين اعتبروهم خونة وعملاء لبريطانيا فقاموا بالهجوم عليهم يومى ١ و٢ يونيه ١٩٤١ وفتكوا بـ ١٧٩ منهم ونهبوا وسلبوا ٥٨٦ من ممتلكاتهم ودمروا اكثر من اثنى عشر بيتا.. يقول ساتلوف فى هذا الصدد ان هذه الاعتداءات على ارواح اليهود وممتلكاتهم

لم تحدث بايعاز أو تحريض من الألمان بل كانت عملا تلقائيا. وتعرف هذه الاحداث فى تاريخ العراق باسم فرهود.

والرأى عند مؤلفنا ان وصول الهولوكست إلى شمال افريقيا يرجع إلى اتباع حكومة فيشى الفرنسية العميلة للنازية سياسة معادية للسامية فى مستعمراتها وإلى استنان موسولينى قوانين مماثلة فى ليبيا كما يرجع إلى احتلال ألمانيا النازية لتونس لمدة ستة اشهر كاملة.

يقول ساتلوف ان علاقة المسلمين فى شمال أفريقيا ببنى اسرائيل لم تكن سمنا على عسل كما كان الحال فى الاندلس فقد شابتها بعض الشوائب مثل دفعهم لعدة قرون نوعا من الجزية نظير حماية المسلمين لهم، الامر الذى أثقل كاهل اليهود بالضرائب فضلا عن تخصيص أماكن بعينها للعيش فيها واستهزاء المجتمع بهم. وظل يهود شمال افريقيا يعيشون كمواطنين من الدرجة الثانية حتى قامت فرنسا فى منتصف القرن التاسع باستعمار الجزائر وغيرها من البلاد العربية المجاورة لها و تحسنت احوال اليهود فى عام ١٨٧٠ عندما اصدر وزير الداخلية الفرنسية الاشتراكى ادولف كريميه «اليهودى السفارديم السابق الذى كان يحمل قبل تخليه عن ديانته اسم ايزاك موشيه كريمييه» رسوما مرسوما يعطى يهود الجزائر حق الاختيار فى ان يصبحوا مواطنين فرنسيين كاملى المواطنة عند قيام فرنسا بضم الجزائر إلى اراضيها دون ان يصبح شعبها جزءا من لحمة الشعب الفرنسى. اما وضع كل من المغرب وتونس فقد كان مختلفا حيث ان فرنسا لم تضمها اليها بل اعتبرتها محميتين خاضعتين لها. على اية حال اشترطت فرنسا على يهود الجزائر سريان القانون المدنى الفرنسى الامر الذى لم يرق فى عيونهم حيث ان هذا يعنى عدم خضوعهم للقوانين اليهودية الضاربة بجذورها فى اعماق التاريخ والتخلى عن أعرافهم وتقاليدهم.

وفى عقد العشرينات من القرن العشرين عرضت الحكومة

الفـرنسـيـة على يهـود تونس عـرضـا شـبـيـهـا بهـذا ولكنه اقل فى سـمـاحـتـه من العـرض المقـدم إلى الجـزائريين . ورغم هذا فـقـد اغـتنم عـشـرات الآلاف من يـهـود تونس هذه الفـرصـة السـانحـة ورحبـوا بالمواطنة الفرنسـية. وهكذا اصبح لليهود اليد نطولى على الاغلبية التونسـية المسلمة التى لم يعـرض عليها الفـرنسـيون حق اكتساب المواطنة الفرنسية.

ومن ناحيتهم ابتهج آلاف الجـزائريين بالحصول على الجنسـية الفـرنسـيـة فانخـرطوا فى صـفـوف الجـيش الفـرنسى فى الحـرب العالمية الأولى. واستشـهـد من يهـود الجـزائر فى هذه الحـرب مـالا يقل عن ١٣٥٣ شـخـصـا كمـا حـصـل تسـعـة وثلاثون منهم على وسـام صليب الشـرف العـسكرى وعندمـا اندلعت ألسنة الحـرب العـالمية الثانيـة فى عام ١٩٣٩ بادر يهود شـمـال افـريقـيا زرافـات ووحـدانا بالتطوع فـى صـفـوف الجيش الفـرنسى والاكتتـاب له بمبـالغ مـالية كبيـرة. كمـا كانوا فى صلواتهم يدعـون له بالنصـر. تقـول صـحـيـفـة المسـتـقـبـل المصـورة الفـرنسـيـة الصـادرة فى الدار البـيـضـاء فى افتتـاحيـتهـا بتـاريخ ديسـمـبـر ١٩٣٩ «ينبغى على بنى اسـرائيل ككل وليس على كل يهـودى على حـدة مـسـاعـدة فـرنسـا وحلفـائهـا فى الانتصار على العدو المشترك».

ومن سـخـرية الاقـدار ان فـرنسـا الحـقت بيـهـود شـمـال افـريقـيـا الخسف والاضطهاد رغم عظيم ولائهم لهـا. فمنذ عقـد الثلاثينات من القـرن العشرين بدأت فـرنسـا تشيح بوجههـا عن جـحـافل اليهـود الذين لجـأوا إليـهـا هـربا من الاضطهـاد فى وسـط اوروبا وشـرقـهـا. وفى عـام ١٩٣٦ عـبـر نائب البـرلمان الفـرنسى إكسـافـيـيـر فـاليت صراحـة عن استيـائه من تولى اليهودى الفرنسى ليون بلوم رئاسـة الوزراء. بل ان اليـمـين الفـرنسـى المتطرف اعتبـر حكم هـتلر النازى لفرنسا أفضل من حكم اليهودى بلوم لها.

وفى هذا الجـو المناهض للسـامـيـة فـرضت فـرنسـا قـيـودا على هجـرة اليـهـود اليـهـا كـمـا شـددت الرقـابة عليهم لدرجـة انها زجت

بالاجانب الذين لا يحملون اوراق هوية سليمة فى معسكرات الاعتقال.. وكان الوضع فى شمال افريقيا أضل سبيلا. فقد خشى المستعمرون الفرنسيون من اعطاء يهود شمال افريقيا حقوقهم السياسية كى لا يشجع هذا السكان المسلمين على المطالبة بالمعاملة بالمثل. ولهذا السبب وجدت الدعاية النازية المعادية لليهود ترحيبا من الفرنسيين الذين يستعمرون شمال افريقيا. كما ان هذه الدعاية وجدت صدى فى نفوس بعض المثقفين المسلمين الكارهين للاستعمار الاوروبى . ولهذا فزع اليهود من احتلال النازيين لفرنسا فى شهرى مايو ويونيه ١٩٤٠ سواء كانوا من سكان اوربا الشرقية أو شمال افريقيا. كما أنهم ادركوا ان فرنسا لم تعد ملاذا آمنا لهم.

وزاد الطينة بلة ان حكومة فيشى وكثيرا من الفرنسيين اعتبروا اليهود السبب فى هزيمتهم العسكرية النكراء ونكبتهم القومية المخزية فلا غرو اذا رأينا الحكومة الفرنسية تتراجع عن سياستها المتسامحة مع اليهود وتلغى المرسوم الذى يتيح لهم فرصة التجنس بالجنسية الفرنسية. وبين عشية وضحاها فقد اكثر من ١٠٥ آلاف يهودى جزائرى جنسيتهم الفرنسية رغم سريان القانون الفرنسى المدنى عليهم.. وبذلك تحالفت حكومة فيشى مع ألمانيا النازية فى تجريد اليهود من حقوق المواطنة. يقول الباحثان ميشيل ماروس وروبرت باكستون فى هذا الشأن: «وجد يهود الجزائر انفسهم فى نفس وضع اليهود الألمان بعد استتان النظام النازى لما يعرف بقوانين نورنبرج. فبعد ان كانوا يتمتعون بالمواطنة اصبحوا مجرد رعايا». والجدير بالذكر ان الألمان لم يمارسوا اى ضغوط على حكومة فيشى كى تضطهد اليهود . فقد اختارت هذه الحكومة اتباع هذه السياسة بمحض حريتها وإرادتها فى المستعمرات التابعة لها. هذا ما حدث ليهود فرنسا. وفى نفس الوقت تقريبا قامت السلطات الفرنسية بتجريد يهود الجزائر ودول شمال افريقيا الاخرى من معظم حقوقهم المدنية والقانونية والشخصية مما يدل

على وجود تناغم بينها وبين حكومة فيشى التى اصدرت قوانينها المعادية للسامية فى اكتوبر ١٩٤٠. وهى قوانين لم يقتصر بطبيعتها على الجزائر فقط بل امتدت إلى كل من مراكش وتونس.

كان الهدف من القانون الفرنسى الجديد تعريف معنى كلمة يهودى.. وينص هذا القانون على ان اليهودى شخص ينحدر من ثلاثة اجداد يهود أو شخص من نسل جدين يهوديين أو اذا كان «أو كانت» متزوجا من العرق اليهودى. وينطبق هذا القانون على اليهود الذين اعتنقوا ديانات اخرى كما انه ينطبق على اطفال الآباء و«الامهات» الذين تحولوا إلى ديانات اخرى. وخلاصة القول ان مثل هذا التعريف لليهودى يتفوق فى خسفه وتعسفه على التعريف النازى لليهود الذين يعيشون فى فرنسا المحتلة. وطبقا للقانون الجديد لم يعد من حق اليهودى الالتحاق بالوظائف الحكومية والرسمية أو شغل مواقع سياسية أو العمل فى اية جهة إدارية إلا اذا كانت جهة العمل فى الحضيض. اضف إلى ذلك حرمانهم من الخدمة العسكرية أو القيام بعمل له صفة جماهيرية أو شركات المقاولات أو الاشتغال بالصحافة والمسرح والسينما والاذاعة.

غير ان هذه القيود القاسية التى كبلت بها حكومة فيشى برئاسة المارشال بيتان اليهود كانت بدرجة محدودة للغاية أقل وطأة فى كل من مراكش وتونس. ففى هذين المستعمرتين الاخيرتين كان من حق اليهود العمل كمدرسين فى المدارس الخاصة باليهود. واعترض سلطان مراكش بوصفه الحاكم الشرفى والزعيم الروحى للبلاد «اى بوصفه امير المؤمنين» على القانون الجديد لانه يعتبر اليهود الذين اعتنقوا الإسلام يهودا. واعطت السلطات الفرنسية المحلية استثناء لا أهمية له ليهود تونس الذين لهم سجل عسكرى مشرف فيا لجيش الفرنسى. وحيث ان هذا الجيش لم يقبل فى صفوفه غير أعداد ضئيلة للغاية من اليهود فان هذا الاستثناء كان عديم الفائدة.

وعلى الرغم من قسوة هذه القيود فان حكومة فيشى لم تكتف

بها بل أصدرت فى يونيه عام ١٩٤١ قانونا آخر اكثر تضييقا على يهود فرنساو شمال افريقيا من القانون الاول. وكان الهدف من هذا القانون الجديد سد الثغرات الموجودة فى القانون القديم التى تسمح باعطاء اليهود شيئا من الامتياز الذى يعطيه القانون القديم لليهود المنخرطين فى صفوف الجيش الفرنسى.. ولتضييق الخناق على هؤلاء اليهود اكثر من ذى قبل نص القانون الجديد على عدم سريان الاستثناءات على المجندين اليهود العاديين بل فقط على من حصل منهم على نوط الشجاعة. فضلا عن استبعاد اليهود من المزيد من الاشغال والوظائف مثل العمل فى مجال الاعلانات والبنوك وشركات التأمين والبورصة وبيع العقارات والاتجار فى القمح والماشية والانتيكات والفنون والرسم والنشر والوظائف الاداريةو التنفيذية الخاصة بالهيئات.

وايضا استنت حكومة فيشى قانونا بتعديل تخصيص حصة صغيرة تحدد عدد اليهود المصرح لهم بممارسة بعض الاشغال بحيث لا يزيد عدد المحامين والاطباء والقابلات والموثقين وأطباء الاسنان على ٢٪ من المجموع الكلى لكل فئة من هذه الفئات. وبالنظر إلى ما عرف عن اليهود من كفاءة فى هذه المجالات فقد ادت القيود المفروضة عليهم إلى تدهورها وبوجه خاص مهنة الطب التى برع اليهود فى ممارستها. وفى بداية الحرب العالمية الثانية بلغ عدد الاطباء فى الجزائر ٩٣٨ طبيبا يعالجون بين سبعة وثمانية ملايين جزائرى بينهم نحو مائة طبيب يهودى بنسبة تزيد على ١٠٪ من مجموع الاطباء الجزائريين الممارسين. وجاءت حكومة فاختزلت عددهم إلى ستة عشر طبيبا الامر الذى اثر سلبا على فرص الجزائريين فى تلقى العلاج. وليس هناك تعسف اكثر من ان حكومة فيشى منعت الاطباء اليهود فى الجزائر من علاج بنى جلدتهم. ورغم هذا الحظر فقد لجأ بعض الاطباء اليهود إلى علاج بنى جلدتهم فى الخفاء.

ولم تكتف حكومة فيشى بحظرممارسة اليهود التدريس فى

المدارس الفرنسية الموجودة فى المستعمرات التابعة لها بل انها استنت قوانين للحد من عدد الطلبة اليهود الملتحقين بها. ففى يونيه ١٩٤١ صدر مرسوم يحدد عدد خريجى الجامعات بـ ٣٪ من العدد الكلى للطلبة، الامر الذى أدى إلى طرد ٨٠٪ من الطلبة اليهود من دور العلم. وبزيادة الضغوط على النظام التعليمى فى الجزائر، صدر مرسوم بتقليص عدد التلاميذ اليهود فى سائر المدارس الجزائرية الابتدائية والثانوية والغريب ان حكومة فيشى اختصت يهود الجزائر بهذه القيود التعليمية المجحفة. مما أدى إلى حرمان نصف التلاميذ اليهود وعددهم ١٩ ألف تلميذ من الالتحاق بالمدارس الجزائرية فى العام الدراسى ١٩٤٢-١٩٤٣.

وايضا سعت حكومة فيشى إلى الاستيلاء على سندات اليهود وأوراقهم المالية.. ففى اكتوبر ١٩٤١ اصدرت هذه الحكومة مرسوما يعطى يهود الجزائر مهلة أقل من شهر لبيع أو نقل أو تصفية كل اعمالهم وممتلكاتهم بعد استئذان الدولة. واذا لم تتم هذه التصفية فى المدة المقررة تصبح الدولة وصيا مؤقتا على هذه الممتلكات وتتولى تصفيتها نيابة عنهم. وطبقا لقوانين حكومة فيشى المجحفة كان من حق الادارة المحلية ان تزج بالمعترضين من أصحاب هذه الممتلكات على هذا الاجراء فى معسكر خاص. وفى نوفمبر ع ام ١٩٤١ اصدرت حكومة فيشى مرسوما يخول حاكم الجزائر العام الفرنسى الحق فى تعيين وصى مؤقت على اى مشروع صناعى أو تجارى أو عقارى أو حرفى أو على اى مبنى «سوى المسكن الخاصش وكذلك على اية ايجارات أو منقولات يمتلكها اليهودى امتلاكا كليا أو جزئيا. وعاد هذا على الوصى الفرنسى بعائد مادى كبير.

كان الهدف من وراء هذه الاجراءات «استبعاد كل نفوذ يهودى من الاقتصاد القومى».. وتأثرت سلبا جميع العائلات اليهودية التى تعيش فى شمال افريقيا بهذه القوانين المجحفة.. ففى الجزائر وحدها تخلصت الحكومة الجزائرية من اكثر من ٨٠٪ من اليهود

العاملين فيها. وحتى تسهل حكومة فيشى على نفسها الاستيلاء على ممتلكات اليهود قامت بعمل تعداد لهم وحصر ممتلكاتهم.

وهكذا عانى يهود الجزائر من اضطهاد حكومة فيشى لهم قبل الغزو الانجلو - أمريكى للجزائر. اضف إلى هذا الاضطهاد الرسمى لهم، كان المستعمرون الفرنسيون يحملون لهم البغض. ورغم ان حال يهود مراكش وتونس كان افضل من حال يهود الجزائر فان هذا التحسن كان هامشيا وطفيفا للغاية كما كانت له أسبابه ومبرراته ففى تونس مثلا، كان الشعب التونسى والمستعمرون الفرنسيون يعتمدون على الاطباء اليهود اعتمادا كبيرا، الامر الذى دفعهم إلى المطالبة برفع نسبتهم إلى ٥٪ من مجموع الاطباء. وفى مراكش لم يرغب الحاكم الفرنسى العام فى تلطيخ يده بقمع اليهود وتكبيلهم فكلف النقابات المهنية المحلية بفرض القيود على أنشطتهم وأعمالهم.

وبطبيعة الحال لعبت الطباع الشخصية للحاكم العسكرى الفرنسى دورا مهما فى اسلوب معاملة اليهود.. فعلى سبيل المثال كان الادميرال إستيفا رجلا كاثوليكيا متدينا الامر الذى جعله نهبا مقسما بين الولاء لأوامر المارشال بيتان وبين إحساسه الدينى الذى يمنعه من اضطهاد اليهود. ولهذا سعى إلى ايجاد حل وسط يجمع بين ولائه الوطنى ومشاعره الدينية.

فعندما مارست الحكومة الفرنسية ضغطا عليه لمصادرة املاك يهود تونس أو بيعها فى المزاد أوعز لحكومته بأن هذا البيع لن يكون فى صالحها لان الايطاليين الذين يعيشون هناك يفوق عددهم عدد الفرنسيين ومن ثم فانهم سوف يبادرون بشراء الاراضى مما سوف يزعزع سيطرة فرنسا على محميتها التونسية. ولهذا نصح حكومة بلاده بأن مصلحتها تقتضى احتفاظ اليهود باملاكهم للحيلولة دون ايلولتها إلى ايدى الايطاليين.. فلا غرو اذا رأينا إذاعة شتوتجارد النازية تهاجمه بضراوة وتعتبره صديقا لليهود.

وفى مراكش تحمل بنو اسرائيل وطأة صدور مرسوم يقضى بضرورة عودة اليهود الذين تركوا حاراتهم وأزقتهم التقليدية ليعيشوا فى احياء المدن الكبيرة والعمارات الحديثة إلى محال سكنهم القديمة على ان يتم هذا فى مدة اقصاها عيد الغفران عام ١٩٤١ . ولهذا تعين على خمس عدد اليهود فى الدار البيضاء البالغ عددهم خمسين الفا وعلى الجاليات اليهودية الكبيرة فى كل من الرباط وفاس ان يبحثوا عن مساكن جديدة لهم فى حارات اليهود القديمة الامر الذى ادى إلى ازدحامها وانتشار الامراض فيها. وعلى العكس من الجنرال استيفا الذى ترفق باليهود عاملهم الجنرال العام فى الرباط أوجست بوك نوجيه بخشونة ونفذ بفظاظة وبكل حذافيرها قوانين حكومة فيشى المعادية للسامية وكان احد اسباب تحمسه الشديد فى تضييق الخناق على اليهود رغبته فى التغطية على زواجه من امرأة يهودية.

وفى فترة الحرب العالمية الثانية وجد يهود شمال افريقيا الخاضعون لحكومة فيشى مشقة يومية بالغة فى الحصول على التموين اللازم لهم مثل السكر وزيت الطعام وعاش أغلبهم قريبا من خط الفقر رغم اشتغال الكثيرين منهم بالمحاماة والطب لدرجة ان اكثر من نصف عدد اليهود فى تونس كانوا على حد قول احد الباحثين «فقراء واميين وعلى هامش المجتمع يعيشون على دخول شديدة التواضع» كانت معاناة اليهود أقسى من معاناة العرب كما كانت معاناة العرب أشد من معاناة الجاليات الاوروبية.

وشجع موقف حكومة فيشى المعادى لليهود وسائل الاعلام فى شمال افريقيا على التطاول على اليهود والعدوان عليهم.. وانتشرت فى الجزائر منظمات فاشية تناصبهم العداء اغمضت حكومة فيشى عينها عن انشطتها المعادية للسامية. وتناول الكاتب الامريكى أ.ج.ليبلنج هذه المنظمات بسخرية قائلا: «انهم فى الحقيقة لم يتعاونوا مع النازيين بل ان النازيين الذين جاءوا فيمابعد هم الذين تعاونوا معهم» والجديربالذكر انه حتى قبل

وصول القوات النازية إلى شمال افريقيا فى نوفمبر عام ١٩٤٢ اصبح عدد اليهود السجناء فى معسكرات الاعتقال التونسية يمثلون ١٠٪ من مجموع المقبوض عليهم بأمر من حكومة فيشى. اى ان نسبتهم كانت ثلاثة اضعاف نسبتهم السكانية.

وامام هذا الاضطهاد المكثف والمنظم اضطر يهود الجزائر إلى التكاتف والتضامن حيث بادروا بانشاء مؤسسات تعليمية يهودية لاستيعاب آلاف الطلبة اليهود المطرودين من مدارس الدولة. ففى العام الدراسى ١٩٤٢ -١٩٤٣ اقام يهود الجزائر بجهودهم الذاتية سبعين مدرسة تشمل مدارس ابتدائية وفصولا جامعية انتظم فيها نحو عشرين ألف طالب يهودى ، الامر الذى اعتبرته حكومة فيشى نشاطا مناهضا لها ومعارضا لبرنامجها المعادى للسامية.

ولهذا حاولت فيشى عرقلة هذا النشاط اليهودى التعليمى الخاص. فأصدرت تعليمات بعدم فتح فصول جامعية بدون الحصول على اذن رسمى بذلك لتحديد المناهج والكتب المقررة وحتى تشدد النكير على يهود الجزائر أصدرت حكومة فيشى امرا باقتصار ممارسة التدريس فى جميع مدارس الجزائر على الفرنسيين حتى لو كانت هذه المدارس يهودية.

الفصل الثانى

الاستمرار فى اضطهاد يهود شمال أفريقيا رغم انتصار الحلفاء

بعد قيام حكومة فيشى بالقضاء على استقلال التعليم اليهودى سعت إلى القضاء على استقلال جميع أنشطة الجالية اليهودية. ولهذا أسست فى مارس ١٩٤٢ الاتحاد العام ليهود الجزائر بهدف تنفيذ كل المراسم التى اصدرتها. وتعين على كل يهود الجزائر الانضمام إلى هذا الاتحاد الذى تولى قيادته خمسة عشر يهوديا عينهم الجنرال العام الفرنسى ليحلوا محل الاعضاء اليهود المنتخبين الذين درجوا على تسيير شئون الجالية اليهودية.. وفى حقيقة الامر كان هذا الاتحاد نسخة طبق الاصل من المجلس الاجتماعى اليهودى الذى انشأه النازيون فى كل أرجاء اوروبا.

وكان من حسن حظ اليهود ان انشاء هذا الاتحاد فى شمال افريقيا تأخر واستغرق كثيرا من الوقت ولم يكتب له الاستمرار سوى ستة اسابيع انتهت بغزو الحلفاء لشمال افريقيا. ولو قدر لهذا الاتحاد ان يصبح راسخا ومستقرا لفترة طويلة لكان مصير يهود شمال افريقيا اسوأ حالا مما كان عليه. وقبل قدوم قوات الحلفاء بأيام قلائل أمر الجنرال العام للجزائر بيف شاتل بانتاج كمية هائلة من شارة نجمة داود الصفراء كى يضعها جميع يهود الجزائر على أذرعهم وهو مالم يحدث فى ذلك الجزء من فرنسا الذى لم يقع

تحت الاحتلال النازى. ولولا غزو قوات الحلفاء لشمال افريقيا فى نوفمبر عام ١٩٤٢ لكان للجنرال الفرنسى بيف شاتل ما يريد. ولكن قدوم قوات الحلفاء وتحرير الاراضى العربية من براثن الجيش النازى لم يعن وضع نهاية لمحنة اليهود نظرا لانشغال بال الحلفاء بأولويات اخرى واذاع روزفلت بيانا بالغاء جميع التعليمات النازية ولكن هذا البيان كان محدود الاثر من الناحية العملية لان الجيش الأمريكى فى شمال افريقيا بقيادة الجنرال ايزنهاور ومبعوثه الشخصى روبرت ميرفى أسند إدارة شئون الجزائر إلى سلطة حكومة فيشى المهزومة وفقا للاتفاقية التى عقدتها القوات الأمريكية الغازية مع هذه الحكومة تحت رئاسة الأدميرال جين فرانسوا دارلان التى سمحت للقوات الأنجلو- امريكية بممر آمن فى المنطقة الواقعة تحت سيطرة القوات الفرنسية مقابل اعتراف الحلفاء بسلطتها على مستعمراتها فى شمال أفريقيا. ورغم تعرض هذه الاتفاقية لنقد بعض الحلفاء فانها كانت السبب فى انقاذ حياة عدد من الجنود الأمريكان. ولم تكن هذه الاتفاقية فى صالح اليهود لانها تركت السلطة الادارية فى يد العاملين فى حكومة فيشى وفى يد عدد من غلاة الفرنسيين المعادين للسامية مثل شاتيه ونوجيه الذين ظلوا يحتفظون بمناصبهم.

ورغم انتصار القوات الأنجلو-أمريكية على القوات النازية فقد ظلت القوانين المعادية لليهود سارية المفعول. وذهب هؤلاء الكارهون لليهود إلى ان اعطاء اليهود حقوقهم لن يكون فى صالحهم لان هذا من شأنه ان يثير حفيظة المسلمين عليهم فيهاجمونهم ويفتكون بهم. وهذا ما لم يحدث على الاطلاق فقد قامت فرنسا الحرة باعادة الحقوق إلى اليهود فى أواخر عام ١٩٤٣ حيث ان المسلمين لم يعترضوا على ذلك ولم يقوموا بالفتك بهم. وكالعادة قام القادة العسكريون فى حكومة فيشى باستبعاد اليهود من الخدمة العسكرية وكلفوهم بحفر الخنادق والخدمة فى المزارع.. وكان الهدف من إقصاء اليهود من الخدمة العسكرية منعهم من المطالبة

بأحقيتهم فى المواطنة الفرنسية اذا كان سجلهم العسكرى مشرفا.
ومعنى ذلك ان الحلفاء الظافرين تركوا للمسئولين عن حكومة فيشى فى الجزائر فرصة معاملة اليهود معاملة سيئة تماما كما كان يحدث فى الماضى. بل يمكن القول ان احوال اليهود ساءت وتدهورت ايام تحرير الحلفاء لشمال افريقيا عما كانت عليه ايام الاحتلال النازى. وزاد من حنق السلطة الفرنسية فى الجزائر على اليهود انهم استقبلوا قدوم القوات البريطانية والامريكية بالحفاوة والترحيب الامر الذى أشعرها بالمذلة والهوان القومى حيث ان فرنسا استسلمت مرتين فى غضون ثلاثين شهرا..اندحرت مرة امام الجيش النازى ومرة اخرى امام القوت الانجلو- أمريكية وعندما رحب يهود مراكش بوصول قوات الحلفاء اغلق المسئولون الفرنسيون بوابات أحياء اليهود فى كثير من المدن وحبسوهم فى هذه الاحياء لمدة تصل إلى ثلاثة اسابيع.

وايضا تعرض اليهود فى اعقاب عملية الإبرار التى قام بها الحلفاء والمعروفة باسم الشعلة لكثير من الاعتداءات فى الدار البيضاء ولاعمال الشغب فى الرباط ومساعيد وللتحامل ضدهم فى كل من ماكنيس وفاس. وليس أدل على استمرار سوء معاملتهم من ان مدينة بنى هلال المراكشية اصدرت مرسوما جديدا يعطى الحق للاوربيين فى احتلال مسكن اى يهودى ويرغم قاطنيه على اخلائه فى غضون ٤٨ ساعة.

ولم ينج من اضطهاد السلطات الفرنسية المحلية هؤلاء اليهود الذين التحقوا بالعمل مع القوات الامريكية ككتبة ومترجمين وسائقين - سواء كانوا لاجئين من اوربا أو من سكان مراكش -فقد فقدوا وظائفهم نتيجة تطبيق قوانين حكومة فيشى الجائرة عليهم. وتروى لنا الوثائق الأمريكية قصة محزنة عن يهودى هارب من احد معسكرات الاعتقال النازية فى أوربا اسمه وينكلر استطاع الالتحاق بعمل فى استديو احد المصورين فى مراكش وعندما وصل الجيش الأمريكى إلى مراكش تمكن وينكلر من الحصول على وظيفة فى

سلاح المهندسين فى الجيش الأمريكى فى الدار البيضاء. وفى يناير ١٩٤٣ قامت السلطات الفرنسية المحلية التابعة لحكومة فيشى بالقبض عليه واتهمته بالاتصال بلجنة الهدنة الالمانية فى الشهور السابقة على الغزو الأنجلو- أمريكى وبأنه استغل عمله كمصور فى تحميض بعض الصور التى طلبها منه زواره من الضباط الألمان.

ولم يصدق بعض المسئولين الأمريكان مثل هذه التهمة فتقدم عدد منهم ممن عرفوا وينكلر معرفة شخصية بالتماس إلى السلطة الفرنسية للإفراج عنه دون جدوى. ولم تكتف هذه السلطة بحبسه بل قامت بتعذيبه.

وإلى جانب هذا حدثت فى الجزائر مأساة عندما انخرطت جماعة يهودية مناهضة للنازية فى المقاومة السرية. فقبل نزول القوات الأمريكية على الساحل الشمالى لافريقيا ارسلت هذه القوات مبعوثين إلى هذه الجماعة للتعبير عن تعضيدها ومساندتها بالسلاح والذخيرة كى تتمكن من تخريب عدد من المنشآت الاساسية التابعة لحكومة فيشى مثل قطع أسلاك التليفونات وتسجيل المكالمات واحتجاز بعض قوات حكومة فيشى بالقوة. ولكن الأمريكان خذلوا المقاومة اليهودية فى اللحظة الاخيرة وامتنعوا عن إمدادها بالسلاح والمال. ورغم هذا الخذلان فقد صمم رجال المقاومة السرية من اليهود على المضى قدما فى تنفيذ مخططاتهم رغم انه لم يكن بحوزتهم إلا بعض السلاح البدائى مثل السكاكين والغدارات وبعض الاسلحة القديمة من مخلفات الحرب العالمية الأولى. واستطاع هؤلاء المقاومون اليهود الشجعان بأسلحتهم البدائية تمهيد الطريق لنجاح ابرار القوات الأنجلو- أمريكية وإنقاذ حياة الكثير من الجنود البريطانيين و الأمريكان. وكان هؤلاء المناضلون اليهود يتعشمون خيرا من غزو القوات الأمريكية للساحل الشمالى لأفريقيا ويأملون ان يضع الحلفاء نهاية لسياسة حكومة فيشى المعادية لليهود. ولكن أملهم سرعان ما تبخر. فما ان وصلت حكومة فيشى إلى عقد اتفاق

مع القوات الأمريكية، يعرف على سبيل التفكه والسخرية بصفقة دارلان، حتى بدأت هذه الحكومة على الفور بالغاء القبض على العناصر الوطنية اليهودية واجتمع الامريكان والانجليز الظافرون على هذه الاعمال الانتقامية من اليهود احتجاجا واهنا وضعيفا. وقد أبدى شجاعة نادرة فى مقاومة النازية القادمة إلى شمال أفريقيا يهودى يبلغ من العمر ثمانية وسبعين عاما اسمه هنرى أبولكر الحاصل على وسام قدامى المحاربين فى الحرب العالمية الأولى والذى تعرض فيها لاصابات بالغة كادت ان تقعده تماما عن المشى والحركة. وايضا كان جوزيه ابن أبولكر أحد قادة المقاومة اليهودية.

كان مسكن ابولكر يعمل كخلية نحل ليلة انزال القوات الأنجلو- امريكية على سواحل شمال افريقيا. وقد أمضى روبرت ميرفى مبعوث روزفلت جانبا من تلك الليلة فى شقة أبولكر. ورغم تعاون أبولكر مع قوات الحلفاء فان ذلك لم يشفع له حيث ان الامريكان - كما اسلفنا - اتفقوا مع حكومة فيشى المحلية على الاستمرار فى مباشرة الشئون الادارية فى مستعمراتها. ولم تتورع هذه الحكومة عن الغاء القبض على الرجل العجوز شبه المقعد أبولكر. وقد قام مراسل حربى أمريكى برواية قصة القبض على أبولكر كما جاءت على لسان ابنته كوليت. يقول هذا المراسل الحربى فى هذا الصدد: كانت كوليت وحيدة فى الشقة مع والدها وطفليها اللذين كان احدهما فى الثالثة والاخرة فى الثامنة. وسمعت كوليت طرقا على الباب فقامت بفتحه فدخل عليها رجل فى ملابس مدنية مصويا مدفعه الرشاش إلى بطنها فى حين وجه آخر مدفعه الرشاش الاصغر إلى طفلها البالغ من العمر ثمانية اعوام طالبا منه ان يرفع يديه. ودلف إلى الشقة اثنا عشر مخبرا للبحث عن اسلحة فى الشقة غير انها كانت خالية من السلاح، ثم جروا أبولكر بعيدا عن الجهاز الكهربائى الذى كان يستخدمه فى علاج رجله المصابة ولم يسمحوا له بارتداء ملابسه بل زجوا به فى السجن دون ان يلبس بنطلونه. واسترسلت كوليت قائلة: «لم

يسمحوا له بأخذ عصاه معه حيث انه لم يكن فى مقدوره أن ينصب قامته بدونها. الامر الذى ادخل التسلية فى نفوسهم ثم جروه أسفل الدرج ولم يسمحوا لى بزيارته فى السجن».. وتذكر كوليت ان ميرفى مبعوث روزفلت ترك قبعته فى شقة أبولكر عشية عملية الشعلة التى قام بها البريطانيون والأمريكان وهو يقول: «سوف أعود فى الحال» ولكنه خرج ولم يعد.

ولم تنشر الصحف ووسائل الاعلام الامريكية والبريطانية أنباء الزعامات اليهودية المنخرطة فى أعمال المقاومة ضد النازية والتى ظلت مقبوضا عليها حتى عام ١٩٤٣ وبعد ذلك بدأ ممثلو الحلفاء فى الضغط على الفرنسيين للافراج عنهم. وفى تلك الأونة قام فرنسى من انصار النظام الملكى باغتيال دارلان فحل الجنرال هنرى جيرود محله برغم كراهية الحاكم الجديد جيرود للألمان فانه كان يشاركهم مقتهم لليهود.. ولم يتخل المستعمرون الفرنسيون عن قوانين حكومة فيشى المناهضة للسامية إلا فى ٨ أغسطس ١٩٤٣ عندما قامت اللجنة القومية لتحرير فرنسا التى كانت آنذاك تحت سيطرة الجنرال ديجول بالغاء جميع القوانين المعادية للسامية.. و بحلول عام ٢١ ديسمبر ١٩٤٣ قامت اللجنة القومية لتحرير فرنسا رسميا بطرد جميع الموظفين الكبار فى الحكومة الفرنسية المعروفين بولائهم للمنظمات الفاشية. حدث هذا بعد انقضاء ثلاثة عشر شهرا على غزو القوات الأنجلو - امريكية لشمال افريقيا، دأبت حكومة الولايات المتحدة فيها على غض الطرف عن الانشطة المعادية لليهود التى كانت حكومة فيشى تمارسها فى شمال أفريقيا.

اضطهاد الحركة الفاشية ليهود ليبيا

لم يكن الاستعمار الفرنسى الوحيد فى شمال أفريقيا فقد كانت ليبيا خاضعة للحكم الايطالى. وفى بداية هذا الحكم لم تكن عداوة السامية ملمحا واضحا فى سياسة الاستعمار البريطانى

وكانت هناك فى ليبيا جالية يهودية قوامها ثلاثون الف شخص يعيشون على ارضها فى أمان. ولكن هذا الأمان سرعان ما تبدد عام ١٩٣٨ عندما تحالف موسولينى مع هتلر الذى حفزه إلى استتان حزمة من القوانين والتشريعات المناهضة لليهود ومن بينها طرد الطلبة والاساتذة اليهود من دور العلم الايطالية ومصادرة معظم ممتلكات اليهود ومنعهم من الاشتغال بالطب والمحاماة وغيرها من الوظائف وحظر تملكهم للمصانع والمتاجر وغيرها من الاعمال. وبين عشية وضحاها أصبح يهود ايطاليا ملاحقين ومستهدفين من قبل الدولة الفاشية رغم ان بعضهم كانوا اعضاء أوفياء للحزب الفاشى.

وفى البداية لم يتعرض يهود ليبيا لما تعرض له يهود ايطاليا من اضطهاد. وكان حاكم ليبيا آنذاك رجلا إيطاليا مواليا للحزب الفاشستى يدعى بالبو يؤمن بالقومية الإيطالية دون ان يعضد عداوة السامية التى ظهرت بقوة بعد التحالف بين ايطاليا الفاشية والمانيا النازية.

ورأى بالبو ان اضطهاد اليهود من شأنه ان يدمر الدور المهم الذى يلعبونه فى إنعاش الحياة الاقتصادية فى المستعمرات الايطالية المترامية الاطراف. ولهذا تعمد التباطؤ فى تنفيذ المراسم المعادية للسامية التى أصدرتها حكومة بلاده.

وفى مراسلات بالبو مع موسولينى أوصى هذا الرجل الجرئ الدوتشى بتوخى الحذر فى تطبيق القوانين الايطالية العنصرية على يهود ليبيا خشية ان يهتز نموها الاقتصادى. كتب بالبو إلى الدوتشى يقول: «اذا توقف اليهود فجأة فى الإسهام فى بناء الاقتصاد قبل استبدالهم بمجموعة من رجال التجارة والصناعة الكاثوليك فسوف يصاب الاقتصاد بالخلل ويفقد اتزانه». وفى مناسبة اخرى كتب بالبو إلى موسولينى يقول: «اليهود شعب فارق الحياة بالفعل ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى ظلمهم والقسوة عليهم وخاصة لان العرب ـ وهم اعداء اليهود التقليديون ـ بدأوا

الان يظهرون بعض علامات الاشفاق والاسف عليهم». واستجاب موسولينى لبعض مطالب بالبو بعدم تطبيق القوانين المعادية لليهود فى مواقف معينة ولكن بالبو لم يستطع ان يغير أفكار موسولينى السيئة عنهم فقد ارسل برقية مقتضبة إلى بالبو جاء فيها: «قد يبدو اليهود أمواتا ولكنهم لن يفارقوا الحياة».

ولسوء حظ يهود ليبيا ان بالبو قتل فى حادثة سقوط طائرة عن طريق الخطأ بنيران صديقة. وبعد موته بدا مصير يهود ليبيا كئيبا وكالحا وخاصة بعد معاناة ليبيا الشديدة من نقص المواد التموينية الاساسية، عقب تكثيف الحلفاء غاراتهم الجوية على كبرى المدن الليبية الامر الذى عرض اليهود لاعمال العنف والانتقام المتصاعدة. يقول احد يهود طرابلس واسمه روبرتو أربيب فى هذا الشأن: «وقعت هجمات عنصرية كثيرة على اليهود فى وسط الفوضى والارتباك ولم يطق الفاشيون رؤية أى يهودى».

وفى ربيع عام ١٩٤١ تحطمت آمال يهود ليبيا وساءت أحوالهم عما كانت عليه. وفى فبراير من هذا العام استطاعت القوات البريطانية السيطرة المؤقتة على المنطقة الشرقية من ليبيا حتى مدينة بنى غازى. ورحب كثير من اليهود المحليين بوصول البريطانيين واعتبروهم محررين. وانتهز بعض اليهود فرصة انتصار البريطانيين المؤقت فاقدموا على تخريب المصالح الايطالية انتقاما من اضطهاد ايطاليا لليهود. ولكن هذه الفرحة لم تتم حيث ان الطليان استطاعوا فى ابريل ١٩٤١ استرجاع المنطقة المحتلة وانتقموا من اليهود الخونة بسرعة وقسوة معا. وظلت هذه المنطقة محل شد وجذب يحتلها البريطانيون تارة ويحتلها الايطاليون تارة أخرى. وفى كل مرة ينجح الايطاليون فى إستعادتها يمعنون فى التنكيل باليهود الخونة ويزجون بهم فى السجون. وشدد الايطاليون النكير على اليهود عندما أصدر موسولينى امرا بتطويقهم وحبسهم فى معسكرات الاعتقال. وألقى الطليان القبض على ألفين وخمسمائة يهودى من جميع الاعمار واودعوهم فى معسكرى

جيادو وغاريان فى جنوب طرابلس وغيرهما من المعتقلات.

كانت اليهودية بروريا دعدوش حبلى عندما دخلت معسكر جيادو حيث ولدت طفلتها التى ماتت فى المعسكر. ويقول احد الناجين من معسكر جيادو واسمه رافائيل دعدوش: «لم يكن هناك غير الجوع والتضور والتيفوس. وعندما التفت إلى ناحية وجدت امامى جثة وعندما التفت إلى الناحية الاخرى وجدت امامى جثة اخر».. وقد توفى اكثر من ربع عدد سجناء هذا المعتقل البالغ مجموعهم ٥٦٢ سجينا نتيجة الاصابة بمرض التيفوس اساسا. وفى خلال ستة اشهر فقط مات فى هذا المعسكر الليبى اكثر من جميع المتوفين فى كل معسكرات العمل مجتمعة فى شمال افريقيا وصدر مرسوم آخر بالحاق الذكور اليهود الذين تقل اعمارهم عن خمسة واربعين عاما بمعسكرات العمل، الامر الذى ادى إلى ترحيل ثلاثة آلاف يهودى آخرين إلى معسكر عمل سيدى عزاز الذى سادته حالة من الفوضى والارتباك. وفى نهاية المطاف تم إرسال ثلث هذا العدد من الرجال للالتحاق بمعسكرات عمل فى مواقع قريبة من الحدود الليبية المصرية.

يقول شالوم أرفيف القادم من طرابلس والسجين فى احد معسكرات العمل واصفا محنته: «اختفت الرحمة من القلوب حيث ان قتل بنى آدم اشبه ما يكون بقتل ذبابة. فاذا عن لشخص أن يستخدم العصا فى ضرب يهودى وكسر كتفه لم يهتم بهذا احد».

وتطلع يهود ليبيا إلى استنشاق نسيم الحرية مرتين وذلك عندما تمكن الجيش البريطانى مرتين من الانتصار على الجيش الايطالى. ولكن يهود ليبيا لم يشعروا بالارتياح إلا فى المرة الثالثة عندما نجحت قوات الحلفاء من النزول على شواطئ كل من مراكش والجزائر فى نوفمبر ١٩٤٢ وانهزام قوات المحور قبل ذلك بثلاثة ايام فى معركة العلمين الشهيرة.. وقد واكب انهزام قوات المحور فى هذه المعركة سعيها إلى الانتقام من اليهود حيثما وجدوا وقامت قوات المحور المنهزمة بسلب بيوت اليهود أثناء تراجعها. ولم

ينقذ اليهود من براثنها سوى انتصار الجنرال البريطانى المعروف مونتجومرى عليها عندما دخل طرابلس غازيا فى ٢٣ يناير ١٩٤٣.

اضطهاد النازيين لليهود فى شمال أفريقيا

تعرض يهود شمال افريقيا الواقع تحت الاحتلال النازى للتنكيل الوحشى. ولكن هذا الاحتلال لم يدم غير ستة أشهر ابتداء من نوفمبر ١٩٤٢ حتى مايو ١٩٤٣. والجدير بالذكر ان القوات النازية لم تنجح قط فى السيطرة على جميع الاراضى التونسية بل كان وضعها مهتزا وقلقا منذ البداية.

وفى الشهر الاول من احتلال قوات المحور لتونس وصل عددها إلى احد عشر ألف جندى فقط «ثمانية آلاف منهم من الايطاليين وثلاثة آلاف من الألمان». ورغم ان قوات الحلفاء كانت أكثرعددا فانها فشلت مرتين فى اختراق مواقع المحور الدفاعية والاستيلاء على تونس. ولا غرو فقد استماتت القوات الألمانية والايطالية فى الدفاع عن تونس واستطاعت ان تبسط سيطرتها على نحو ثلث هذا القطر. غير انها واجهت قصفا جويا متواصلا كل ليلة تقريبا، الامر الذى احدث فى صفوفها خسائر فى الارواح والمعدات. ورغم ما تعرض له الالمان والطليان من اخطار محدقة فقد ادى هذا إلى إلحاق المزيد من الاضطهاد والخسف باليهود على نحو ما فعلوه لهم فى قلب القارة الاوروبية. كانت قوات المحور تأخذهم رهائن وتصادر ممتلكاتهم وتنهب أموالهم وذهبهم ومجوهراتهم ثم ترسلهم إلى معسكرات العمل وتنفذ احكام الاعدام فى بعضهم وتقوم بترحيل الآخرين فضلا عن ان النازيين انشأوا لجانا من زعماء اليهود للاشراف على تنفيذ سياسة تهدف إلى القضاء المبرم على حياة اليهود التونسيين.. ولكن قصف الحلفاء الجوى المستمر حال دون تحقيق هذا الهدف.. ورغم ذلك فقد اضمر النازيون اليهود تونس الشر المستطير واستدعوا للتنكيل بهم عتاة العاملين فى وحدة البوليس الخاصة وعلى رأسهم العقيد النازى والتر روف

الذى اخترع وسيلة اقتصادية وفعالة لقتل أكبر عدد من اليهود يتمثل فى حشرهم فى عربة متحركة تنبعث منها الغازات السامة. وهو الأسلوب الناجح الذى اتبعه النازيون اثناء تقدمهم وزحفهم على الاتحاد السوفيتى. ويقال ان النظام النازى كلفه باستخدام عربات الغاز لقتل يهود فلسطين. ولكن هزيمة روميل «ثعلب الصحراء» فى العلمين حالت دون تنفيذ هذه الخطة.

لم يمض غير أسبوعين على وصول الألمان إلى تونس حتى بدأوا اتصالاتهم الرسمية بالجالية اليهودية وألقوا القبض على موشيه بورجل رئيس هذه الجالية الحالى إلى جانب رئيسها السابق وقنصل فنلندا وبعدمرور ثلاثة ايام على القبض عليهم تقدم إستيفا الجنرال الفرنسى المقيم بمذكرة احتجاج جاء فيها أن إلقاء القبض عليهم يمثل انتهاكا للسلطة الفرنسية وخرقا لحق هذه السلطة فى إدارة شئون تونس المدنية.

فقام الألمان بالافراج عن بورجل شريطة ذهابه مرتين فى اليوم إلى مكتب روف.

وبحلول أوائل ديسمبر ١٩٤٢ تحسنت أوضاع الألمان العسكرية فقد استطاعت قوات المحور ان ترد هجومين ارضيين شنهما الحلفاء. كما ان هذه القوات ما لبثت ان التقطت أنفاسها استعدادا لخوض معركة طويلة الأمد. وفى يوم ٨ ديسمبر عين هتلر قائدا عسكريا جديدا هو مارشال هانز فون ارنيم آمرا إياه بالاحتفاظ بتونس والتشبث بها بأى ثمن. وانصرف هذا القائد إلى تعزيز دفاعاته العسكرية فى تونس فى حين اضطلع روف بمهمة التعامل مع يهودها.

وفى يوم الأحد الموافق ٦ ديسمبر ١٩٤٢ استدعى روف إلى مكتبه كلا من اليهودى بورجل وحاييم بيلايش رئيس الأحبار اليهود فى تونس ليقرأ عليهما مرسوما عسكريا يتضمن بإلحاق الرجال اليهود بمعسكرات العمل لدعم قوات المحور. واصاب الذهول هذين الزعيمين اليهوديين عندما اخبرهما روف انه يعتبر الجالية

اليهودية مسئولة عن انتظام افرادها فى العمل وعن إمداد العمال اليهود بالطعام والمعدات والامدادات ووسائل النقل اللازمة لعملهم. كما طلب منهما تعيين رؤساء عمال يكونون مسئولين امامه فاذا أخل واحد منهم بواجباته الوظيفية فسوف يأخذه النازيون كرهينة. واضاف روف ان العمل يحتاج إلى خمسة آلاف عامل يتعين عليهم جميعا ان يلبسوا على صدورهم وظهورهم شارة صفراء كبيرة حتى يسهل التعرف عليهم و قتلهم فى حالة محاولتهم الهرب. واعلن روف ان قوات الاحتلال النازى ألغت المجالس الحاكمة التى انشأها اليهود واستبدلتها بلجنة يرأسها الحبر بيلايش المكلف بتنفيذ اللوائح الخاصة بمعسكرات العمل. واكد روف ان أولى مسئوليات هذا الحبر تتلخص فى إمداده بقائمة اسماء ألفى يهودى كدفعة أولى من العمالة اليهودية المطلوبة ولم يمهل النازى روف الحبر اليهودى سوى اربع وعشرين ساعة لتقديم هذه القائمة وهدده روف قائلا انه اذا ماطل الحبر أو تلكأ فى اداء واجبه فسوف يقوم الألمان بمحاصرة اليهود. ولما سمع الحبر بيلايش هذا التهديد أجهش بالبكاء.. واسقط فى يد الزعماء اليهود لان هذه المطالب التعسفية كانت تعجيزية ورأى اليهود ان هذه الاجراءات النازية المتعسفة تفوق فى سوئها سياسة حكومة فيشى المعادية للسامية. وأسرع زعماء اليهود إلى الالتجاء إلى استيفا الجنرال الفرنسى المقيم فى تونس الذى اشتهر بقدرته على الالتفاف حول أوامر حكومة فيشى المناهضة لليهود. وفشل استيفا فى مساعيه الحميدة لدى النازى روف الذى قبل بعد لأى ارجاء الموعد النهائى لتسليم القائمة يوما واحدا مقابل زيادة اسماء العمالة المطلوبين من ألفى إلى ثلاثة آلاف عامل غير ان الجانب اليهودى تمكن فقط من إعداد قائمة بألفى وخمسمائة عامل. وفاجأ روف اليهود بطلب تعجيزى آخر يتمثل فى جمع ألفى عامل يهودى فى نقطتى تجمع فى صبيحة اليوم التالى وتزويدهم بالطعام والمعدات اللازمة.. وعبثا حاول الزعماء اليهود حث الجنرال

استيفا للتدخل مرة اخرى لإقناع النازى روف بأنه ليس لزعماء اليهود سلطان على بنى جلدتهم يمكنهم من إرغامهم على العمل . ولم ير استيفا جدوى من وساطته فاعتذر.

وقلب زعماء اليهود التونسى٨ون الامر فى رءوسهم يقول اليهودى التونسى بول سفيز الحاصل على وسام المحاربين القدامى من الجيش الفرنسى فى مذكراته ان اليهود وجدوا انفسهم امام حلين لا ثالث لهما: إما المقاومة والامتناع عن العمل وهو نوع من الانتحار أو اتباع سياسة الانحناء للعاصفة حتى تمر على أمل ان يتحقق نصر الحلفاء على الألمان.

وفى يوم ٨ ديسمبر١٩٤٢ قام يهود تونس بالاستسلام والرضوخ أمام الجبروت النازى.

الفصل الثالث

أوربا تصدر الهولوكست إلى شمال أفريقيا

كان يوم ٩ ديسمبر ١٩٤٢ يوما أغبر فى حياة يهود تونس.. ففى صباح هذا اليوم تحرك رجال الوحدة الخاصة فى مركز القيادة الألمانية الواقع أسفل الطريق المقرر ان يكون نقطة تجمع العمال اليهود. ووصل النازى روف فى الموعد المحدد وهو الثامنة صباحا متوقعا ان يشاهد ألفى عامل يهودى ولكنه استشاط غضبا عندما رأى ان عدد العمال اليهود المتجمعين لا يزيد على ١٢٨ شخصا. وكرجل فقد عقله هاج العقيد روف وماج وارغى وازبد وخرج من فمه سيل منهمر من الشتائم والاهانات: «خنازير وكلاب وحيوانات.. سوف تضربون بالنار فى خلال ساعة انتم وحبركم الاعظم الذى ابحث عنه الآن وسوف ترون بانفسكم ان رجال الوحدة الخاصة يعرفون كيف يتعاملون مع اليهود». غير ان روف راجع نفسه ولم ينفذ وعيده بقتل الحبر الأعظم أو اى من بنى اسرائيل إما لانه كان غير متأكد من رد فعل الباى والعرب المحليين وإما لانه رأى ان هذا الحبر قد يكون مفيدا له فى المستقبل.

ورغم ذلك فقد امر العقيد روف الجنود الألمان المدججين بالمدافع الرشاشة باقتحام بدروم المعبد اليهودى الكبير المكتظ بالعائلات اليهودية الشريدة نتيجة القصف الجوى والغارات

المتواصلة التى شنتها قوات الحلفاء وقامت القوات الألمانية بالاعتداء على اليهوديات واطفالهن كما قامت بجر كل رجل وجدوه فى طريقهم خارج المعبد فى المطر الهاطل بغزارة وبعد ذلك توجهت القوات الألمانية إلى مدرسة التحالف الاسرائيلى التى اكتظت كذلك باليهود واللاجئين الذين هربوا من مدينة بيزرت نتيجة القصف المكثف. كما ان هذه القوات خرجت إلى الشوارع والازقة المجاورة لإلقاء القبض على كل يهودى يشاء حظه العاثر ان يكون فى طريقهم.

فى ذلك اليوم الاسود قامت القوات النازية بتطويق اكثر من ألف وخمسمائة يهودى بعضهم من كبار السن وبعضهم الآخر لا يزيد عمره على خمسة عشر عاما.. كما انهم ارسلوا اليهود الذين يتجاوز عمرهم خمسين عاما إلى السجن الحربى فى تونس العاصمة. وكان بينهم شاب معوق فى الثامنة عشرة من عمره اسمه جلبرت حازوز يضع على ساقه جهازا خاصا بالعظام كى يستعين به على السير. غير ان الحارس الالمانى ظل يدفعه حتى سقط على الارض. وقبل توقف المسيرة للخلود إلى النوم فى فترة الليل حاول المسكين حازوز المشى مرة اخرى ولكن قدمه تعثرت وسقط على الارض وهو يتلوى فتقدم إليه جندى ألمانى واخرج مسدسه وقلته بدم بارد. ولم يسمح النازيون لبنى جلدته اليهود ان يدفنوه إلا فى اليوم التالى. وبهذا اصبح هذا الشاب المعوق اول قتيل يهودى يقتله الألمان فى أرض عربية.

وفى نفس الوقت جاءت مجموعة من وحدة البوليس الخاصة إلى مكتب رئيس الجالية اليهودية بورجل وألقوا القبض عليه وعلى كل من تصادف وجوده فى مكتبه فضلا عن إلقاء القبض على مائة من ابرز زعماء الجالية اليهودية واخذهم رهائن مهددين باعدامهم. وهكذا لقن النازيون يوم ٩ ديسمبر ١٩٤٢ اليهود درسا ألا يستخفوا بأوامرهم. وتولى بول غز زعامة اليهود فحاول اقناع روف برفع الحصار عنهم مقابل تعهده ان يفعل كل ما فى وسعه

لتنفيذ اوامره واحضار العمال اليهود المطلوبين لمعسكرات العمل. وانشأ بول غز لهذا الغرض لجنة تجنيد العمالة اليهودية التى ادت عملها بكفاءة واقتدار.. وكان من الطبيعى ان يحمل اليهود المقت لهذه اللجنة وخاصة ذلك المكتب التابع لها المعروف باسم «مكتب الاستدعاء والبحث» المكلف بمهمة اقتفاء اثر العمال الهاربين من معسكرات العمل النازية والمتخلفين عن الحضور للعمل فيها. كما كان من الطبيعى ان يشعر اليهود بالكراهية لغز حيث انه كان مسئولا امام الألمان عن توفير العمالة اليهودية المطلوبة. ولهذا ألقى بعض اليهود من آن إلى آخر على نوافذ منزله قنبلة بدائية الصنع. ورغم تعرض غز لهذه الاعتداءات فانه عذر المعتدين عليه اذ قال فى مذكراته: «إننى افهم شكواهم واغفر لهم اهاناتهم» والجدير بالذكر ان بنى جلدته اتهموه بالمحسوبية لصالح أثرياء اليهود على حساب فقرائهم. وهو الامر الذى نفاه غز بقوله: «قررنا الصمود وعدم منح أى أحد أية امتيازات. اننى ادرك اننى اكتسبت عداوات غير ان هذا امر لا مفر منه».

وبعد ان أفلح غز فى حل مشكلة تجنيد العمالة اليهودية التى طلبها النازيون وجد نفسه امام مشكلة أعوص وهى مشكلة توفير الطعام والكساء والرعاية الصحية لهم. عندئذ تكاتفت جمعيات من اثرياء اليهود ممن آمنوا بقرب حلول يوم الخلاص من براثن القوات النازية على يد الحلفاء وهبت بمساعدة بنى جلدتهم فى محنتهم واعطوا الالمان اموالا طائلة نظير ان يصرفوا لهم نفس الطعام الذى يصرفه النازيون لجنودهم.. ودفع اثرياء اليهود خمسة وعشرين فرنكا واحيانا اربعين فرنكا يوميا إلى الألمان لإطعام كل عامل يهودى بل ان الجالية اليهودية فى تونس اضطلعت بنفسها بمهمة شحن الطعام إلى معسكرات اعتقال اليهود التونسية. ولكن هذه الاريحية لم تكن كافية لرفع الغبن والضيم عن كاهلهم حيث ان الألمان درجوا على فرض غرامات باهظة بملايين الفرنكات عليهم للثأر من قيام الحلفاء بقصف المواقع الألمانية.. واتخذت هذه

الاتاوات شكل اوامر اصدرها النازيون إلى اليهود بتسليم جواهرهم وفرائهم وكاميراتهم وآلاتهم الناسخة واتواب القماش إلى الجيش الالمانى ولهذا الغرض انشأ زعماء اليهود مكتبا للتزويد والتأثيث اثار كراهية الجالية اليهودية ايضا. ورأى روبرت بورجل «ابن الزعيم اليهودى بورجل الذى تولى زعامة يهود تونس آنذاك» ان بنى جلدته محقون فى شكواهم من عمل اللجنة التى يرأسها والده. يقول ابن بورجل فى هذا الشأن: «ربما لم يتسم ممثلونا دوما بالكياسة المطلوبة.. ولكن إحقاقا للحق كانوا يرزحون تحت ضغط محاولة تلبية وابل طلبات الألمان المنهمر».

وفى النهاية تمكنت الجالية اليهودية من إرسال خمسة آلاف عامل يهودى إلى معسكرات العمل المنتشرة فى جميع ارجاء الاراضى التونسية جاء معظمهم من منطقة تونس العاصمة التى كان يسكنها معظم اليهود التونسيين. ولكن بعض جيوب اليهود الاصغر عددا كانت تعيش فى كل مدينة كبيرة وصغيرة واقعة تحت الاحتلال النازى. وكانت هذه الجيوب الصغيرة مطالبة ايضا بامداد النازيين بالايدى العاملة. وكان فى الاراضى التونسية ما يقرب من أربعين معسكر عمل نازيا انقسمت إلى القطاع الالمانى والقطاع الإيطالى والقطاع الموجود فى منطقة تونس العاصمة الواقعة تحت سيطرة الألمان. وأقامت قوات الاحتلال النازى فى القطاعين الاوليين معسكرات عمل كاملة الاعداد وفى المنطقة المحيطة بتونس العاصمة تجمع العمال اليهود فى الصباح وتوجهوا إلى أعمالهم ليعودوا منهكين إلى مضاجعهم فى الليل. كانت ساعات العمل طويلة كما كان العمل نفسه مضنيا وتكتنفه الاخطار. واحيانا كان الخطر على حياة العمال يكمن فى موقع العمل نفسه، مثلما حدث عندما أرغم الألمان العمال اليهود على إزالة الانقاض والركام من المواقع التى سوتها قنابل الحلفاء بالارض. واحيانا كان النازيون يتلذذون برؤية العمال اليهود وهم يخاطرون بحياتهم نتيجة ازالة انقاض الغارات. ناهيك عن الاخطار الناجمة عن طبيعة العمل

نفسه مثل نقل المتفجرات والحفر بجوار حقول الألغام. فضلا عن عدم وصول المؤن اليهودية إلى مناطق العمل النائية. يقول احد الشهود اليهود واسمه سيون راموند اوزان الذى كان احد الذين حاصرهم النازيون فى ٩ ديسمبر ١٩٤٢ ان ما تلقاه كل عامل يهودى فى الاربعة ايام الاولى من العمل كان نصف رغيف خبز وبعض المربى.

وكانت بنزرت اكثر البلدان تعرضا للخطر والقصف شبه المستمر. وهناك كان العمال اليهود يعيشون فى ثكنات تعرف باسم ثكنات فيليبيرت التى وصفها أحد السجناء بقوله: «كان القمل والحشرات اكثر الرفاق إخلاصا والتصاقا بالسجناء».

وفيما يلى شهادة سجين يدعى جلبرت م.طيب فى هذا الشأن:

«تم تجنيدنا ووضعنا فى عربات شحن الحيوانات تحت حراسة جندى متوحش يمسك بمدفع رشاش. ووصلنا إلى بيزرت فى غضون ساعة. ثم اقتادونا وعددنا مائة وخمسون شخصا إلى بدروم لا يتسع إلا لخمسين نزيلا فقط يمكنهم التنفس فيه. ووقفنا فى طابور يتكون كل صف فيه من ثلاثة واقتادنا جندى مراقبة لا يقل فى وحشيته عن جندى الحراسة، لا يتوقف بمؤخرة بندقيته عن ضرب سجناء المعسكر الذى كان مقررا ان نقضى فيه الستة أشهر القادمة.. وكانت الكلمات تنهال على السجناء الذين يبطئون فى السير لدرجة ان دماءهم النازفة سالت فتركوهم على جانب الطريق. وفى المعسكر قدمونا إلى جندى ألمانى اسمه مومنتو كان يتحدث قليلا من اللغة الايطالية، ويستخدم سوطه كوسيلة للتفاهم. وبدأنا العمل بسرعة وتمثلت مهمتنا فى توزيع الذخيرة. وكان يحق للالمانى ان يوسعنا ضربا. وكان الرؤساء يرضون على السجناء الذين يعملون بكل همة ونشاط واثناء العمل كان الحراس المسلمون باللغة الفرنسية يترجمون انتهارات وتهديدات بنى جلدتهم الألمان لنا مثل قولهم «بمجرد انتهائكم من العمل واستغنائنا عنكم سوف نفعل بكم ما فعلنا باليهود فى ألمانيا وبولندا. ولم نكن

نعرف الألمان باسمائهم الحقيقية بل بكنيتهم مثل مومنتو «اى اللحظة» والجدة والقاتل الخ.. ويصف احد السجناء اليهود المخضرمين فى معتقل بيزرت واسمه جاك كالوب حراس المعسكر الالمان بقوله: «قام المجند والتر «وكنيته القاتل» بالاجهاز على أخ زوجتى فكتور ليلوش فى حين قام المجند الملقب باسم الجدة بقتل كل من الفريد هابابو وايلى سعدون.. ايضا اعتاد الجندى الملقب بفيلا الصغير على ضرب اليهود بالعصى والسياط كما انه عذب عمالا بعينهم عن طريق الدش الذى ينزل فى عز الشتاء ماء فى مثل برودة الصقيع. واعطى الملازم ايلفس النازى المتعصب امره وموافقته بقتل ثلاثة عمال يهود. وفى الغالب الاعم كان اليهود الذين يرسلون إلى المنطقة الإيطالية أوفر حظا من زملائهم ويلقون معاملة افضل من اقرانهم الذين يرسلون إلى المنطقة الالمانية. ففى العادة كان الجنود الايطاليون لا يتسمون بعداوة السامية التى اتسم بها حلفاؤهم الألمان. وكان هذا واضحا فى تونس العاصمة التى تسكنها جالية كبيرة العدد من اليهود الذين يحملون الجنسية الايطالية وبعض المرحلين الطليان الذين يفوق عددهم عدد المرحلين من يهود فرنسا. ومع ذلك فقد لقى بعض اليهود الطليان الذين يعيشون حول منطقة نائية تعرف باسمى زاغوان وانفيداڤيل معاملة سيئة على ايدى الجنود الطليان. وهى المنطقة التى امدت النازيين فى ديسمبر ١٩٤٢ بنحو ألف عامل يهودى. ومما زاد من شقاء هؤلاء العمال ان طبيعة مواقع العمل هناك كانت اشد ما تكون قسوة لدرجة ان القيادة العسكرية الايطالية رفقت بهؤلاء العمال وأرسلتهم إلى معسكرات أخرى أقل منها قسوة.

وفى أواخر شتاء وأوائل ربيع عام ١٩٤٣ ادركت القوات الألمانية فى تونس سوء وضعها القتالى، الأمر الذى دمر معنويات الحراس الألمان وجعلهم اكثر تساهلا فى التعامل مع سجنائهم. وقد انتهز كثير من العمال اليهود هذه الفرصة للهرب من معسكرات العمل. ومما ساعدهم على الهرب ان زوار المعسكر من المتصلين بالدوائر

اليهودية كانوا يرشون الحراس بالخمور والعطور والحرير وبعض المنح والهدايا الاخرى حتى يغمضوا عيونهم عن هرب السجناء. وفى بعض الاحيان تعمد الاطباء اليهود الزائرون للمعسكر نشر شائعات بوجود أمراض معدية، الامر الذى مكن مجموعات كبيرة من العمال اليهود من الذهاب إلى تونس العاصمة لتلقى العلاج. وبحلول نهاية ابريل ١٩٤٣ وبسبب هذه العوامل مجتمعة انخفض عدد العمال اليهود فى جميع الاراضى التونسية إلى ١٥٠٠ سجين.

وفى البداية كان الألمان يقومون بمحاصرة جماعات إضافية من اليهود كنوع من الانتقام لهرب زملائهم وبزيادة فى التنكيل والتشفى آمروا آلاف المسلمين بتكوين جماعات عمل لتعويض النقص الناجم عن هرب العمال اليهود. بل ان الألمان قبيل سقوط تونس فى ايدى الحلفاء زجوا بالأوربيين المحليين فى معسكرات العمل.. وطبقا لاحد التقديرات بلغ عدد اليهود المقيمين فى تونس العاصمة الذين اختبأوا من الاحتلال النازى قبل نجاح الحلفاء فى غزو هذه المدينة نحو ستة آلاف شخص استطاعوا الهرب من الحصار الذى فرضه النازيون عليهم. وجن جنون النازيين الذين لم يتورعوا عن اطلاق النار على كل يهودى يضبط وهو يحاول الهرب فضلا عن فرض الغرامات الضخمة مع الجاليات اليهودية التى تعيش فى كل من تونس العاصمة وسوسة وصفاقس وجبيانة وجربة للانتقام من العمالة اليهودية الهاربة.

وبلغ التعسف بالنازحين كل مبلغ لدرجة انهم اعتبروا الجالية اليهودية مسئولة عن الهجوم الانجلو- امريكى على شمال افريقيا فأمضوا فى ابتزازهم وأرغموهم على دفع ملايين الفرنكات. وبعد انتزاع هذه المبالغ الطائلة منهم وزعوها نكاية فيهم على الجمعيات الخيرية الإسلامية والأوربية. واستطاع النازيون عن طريق هذا الابتزاز السافر جمع مبالغ هائلة من المال من تونس العاصمة وصلت إلى عشرين مليون فرنك «بالاضافة إلى الواحد

وثلاثين فرنكا التى انفقتها الجالية اليهودية على طعام العمال اليهود وملبسهم» إلى جانب عشرين مليون فرنك وعشرين كيلو ذهب من يهود مدينة صفاقس وخمسة عشر مليون فرنك من مدينة سوسة وعشرين كيلو ذهب من مدينة جبيانة واحيانا كانت الجاليات اليهودية المحلية تضطر إلى اقتراض الغرامة نظير فائدة من البنوك المحلية بعد صدور تعليمات بذلك من الادارة الفرنسية.

وايضا أمر الألمان بنوك مدينة جبيانة بفتح سراديبها وخزائنها السرية حتى يقوموا بنهب جميع ودائع اليهود فيها. وطبقا لشاهد عيان فى مدينة سوسة «قام الالمان بعمليات النهب والسلب بطريقة منهجية ومنظمة». وفى جزيرة جربة التى كانت موطنا لاقدم العائلات اليهودية وصل الألمان يوم السبت الذى يوافق إجازة اليهود فى منتصف شهر فبراير. فطلبوا من اليهود المقيمين هناك إحضار عشرة ملايين فرنك فى غضون ساعتين. وفوجئ اليهود بهذا الطلب عسير التنفيذ فاقترحوا على الألمان اعطاءهم اربعين كيلو من الذهب بدلا من المال فقبل النازيون مقايضة المال بالذهب. واستغل الحبر اليهودى وزعماء الجالية اليهودية سياراتهم رغم أن اليوم كان سبتا وطافوا فى المدينة لجمع الحلقان والعقود والفوانيس وسائر المشغولات الذهبية من اغنياء اليهود وفقرائهم على حد سواء لارضاء رغبة الالمان فى تجريدهم من ثرواتهم. وبلغت حصيلة جميع هذه المشغولات الذهبية ٣٢ كيلو.. وانصرف النازيون بعد ان هددوا اليهود بالعودة للحصول على البقية.. ولكن القدر شاء ان تستسلم قواتهم امام القوات الانجلو- امريكية قبل ان يتمكنوا من تنفيذ تهديدهم.

ولم يقتصر هذا النهب لثروات اليهود على المستوى الجماعى بل امتد إلى حياة الافراد اليومية حيث قام جنود نازيون واحيانا جنود ايطاليون وميليشيات فاشية محلية بالاستيلاء على

ممتلكات افراد من الجالية اليهودية. إلى جانب حدوث بعض حوادث اغتصاب لنساء يهوديات عاشت الفوضى والانفلات الأمنى بين صفوف القوات الألمانية لدرجة افزعت القيادة الألمانية العليا فى تونس الامر الذى جعلها تصدر امرا إليها بعدم الاقتراب من احياء اليهود فى تونس العاصمة. ورغم ان القيادة الألمانية كانت ترمى بذلك إلى فرض النظام على قواتها المنفلتة فانها فى نفس الوقت أوعزت للميليشيات الفاشية بارتكاب مجازر لليهود على نطاق محدود وبنهب بيوهم ومحلاتهم بل والاعتداء المتكرر على أشخاصهم ليس فى المدن الصغيرة فحسب بل فى القرى المحيطة بها. ولهذا قال الزعيم اليهودى غز بحسرة: «لقد تم تدمير مدينتى سوس وصفاقس».

وفى تونس وضع النازيون خطة تهدف إلى إلزام جميع اليهود فيها بلبس الشارة الصفراء التى تميزهم عن غير اليهود. غير أن أوامر القائد الالمانى روف المتعجلة بضرورة جمع العمال اليهود على وجه السرعة لم تعطهم فرصة أو وقتا كافيا لاعداد الشارات الصفراء. وكان هذا واضحا يوم ٩ ديسمبر ١٩٤٢ وهو اليوم الذى تم فيه ارسال اليهود المحاصرين إلى معسكرات الاعتقال فورا. وفى غمرة سرعة إلحاق اليهود بمعسكرات العمل نسى روف ونائباه موضوع لبس اليهود للشارة الصفراء ثم عاد روف ليتذكرها فى مارس ١٩٤٣. عندئذ أمر هذا النازى رئيس الشرطة التونسية باصدار تعليمات تلزم جميع يهود تونس بلبس الشارة الصفراء. واحتارت السلطة الفرنسية امام الاوامر الألمانية والايطالية المتضاربة. ففى حين امر الالمان روف بالزام اليهود بلبس الشارة الصفراء اعفت السلطات الإيطالية اليهود الطليان الذين يعيشون على الاراضى التونسية وعددهم ثلاثة آلاف ومأتا يهودى من لبس هذه الشارة ووافقت السلطات النازية فى برلين على طلب السلطات الايطالية باعفاء يهودها من لبس الشارة الصفراء. واستجابت السلطة النازية فى برلين لهذا الطلب وأصدرت

المراسيم التى تستثنى يهود ايطاليا المقيمين فى تونس من لبس الشارة الصفراء. غير ان خطوط الدفاع الالمانية سرعان ما سقطت فى ايدى القوات الانجلو- امريكية . ولكن هذا لم يمنع من صدور أوامر نازية إلى آلاف اليهود المقيمين خارج مدينة تونس بلبس الشارة الصفراء. وتدل الصور الفوتوغرافية الملتقطة فى تلك الفترة لليهود ان نجمة داود التى يلبسونها كانت لها خمسة وليست ستة اطراف. وفى مدينة سوسة اصدر قادة وحدة البوليس الخاصة امرا إلى جميع اليهود سواء كانوا ذكورا أو اناثا ممن تبدأ اعمارهما من سن السادسة، بلبس نجمة اليهود الصفراء. والجدير بالذكر ان النازيين خططوا للتخلص من بعض يهود شمال افريقيا إما بترحيلهم أو إعدامهم. فهناك دلائل تشير إلى ان النازيين كانوا يخططون للقبض على زعماء اليهود المحليين وترحيلهم إلى معسكرات الابادة النازية فى قلب القارة الاوربية، كما فعلوا من قبل مع اربعين يهوديا كانوا أعضاء فى حركة المقاومة المناهضة للفاشية التى ضمت إلى جانب اليهود يساريين وشيوعيين بارزين وبعض العمال المشاغبين الذين هلك منهم سبعة عشر عاملا.

وكان الحظ حليف اليهود فقد اختبأ الكثيرون منهم حتى تمكنت قوات الحلفاء من الاستيلاء على تونس العاصمة فى ٧ مايو ١٩٤٣. وفى ميناء سوسة كان من الواضح ان النازيين يريدون قتل جميع العمال اليهود قبل جلائهم عن المدينة بسبب زحف قوات الحلفاء عليها. ولم ينقذ هؤلاء اليهود من براثن الموت سوى تدخل رئيس البوليس التونسى فى آخر لحظة.

ويجدر بالذكر ان الشائعات راجت رواجا عظيما فى تونس. فقد سرت شائعة بأن الألمان شرعوا سرا فى بناء محرقة فوق كل تل يعرف باسم جبل جلوذ يقع خارج العاصمة تونس ولكن الوثائق الالمانية تخلو من اية اشارة إلى ذلك. فضلا عن ان ارشيف الدبلوماسية الفرنسية لا يشير إلى هذه الخطة. وحتى اذا كان النازيون لم يفكروا فى اقامة محرقة تونسية فان اليهود التونسيين

أرقهم هذا الهاجس واقض مضجعهم لدرجة انه ـ كما يقول البعض ـ اصبح جزءا من الذاكرة الجماعية للمهاجر اليهودى الذى رحل عن تونس ليعيش فى باريس.

وطبقا لاحد التقديرات هلك ٢٥٧٥ يهوديا فى فترة الاحتلال النازى لتونس توفى معظمهم من جراء قصف القوات الانجلو - امريكية للمواقع التونسية. وتبين من جولة فى مدافن اليهود فى ميناء سوسة ان عددا كبيرا من قبور اليهود يرجع تاريخه إلى فترة الاحتلال النازى ومن بينهم حبيبان تعاهدا على الزواج ولكن قنابل الحلفاء لم تمهلهما. ويؤكد الكتاب الذى نحن بصدده ان عدد الضحايا اليهود التونسيين كان يمكن ان يرتفع على ذلك بكثير لو أن فترة الاحتلال النازى لتونس زادت عن ستة أشهر.

وفى مدينة قيروان التونسية الصغيرة تهلل اليهود ورحبوا بمقدم قوات الحلفاء ويصف لنا المراسل الحربى فيليب جوردان الملحق بقوات الحلفاء المقاتلة فى مذكراته ترحيب اليهود العظيم بالجيش الانجلو امريكى الظافر بقوله:

«لم يحضر أى عربى لتحيتنا ولكن اليهود خرجوا زرافات لاستقبالنا وهم يصفقون ويصيحون وقام الاكثر جرأة فيهم بنزع شارة نجمة داود الصفراء من عروات جاكتاتهم وأضرموا النار فيها بأعواد الثقاب التى زودناهم بها. وكانت علب الكبريت تحمل علامة النصر فقاموا بانتزاعها بطريقة مجنونة هستيرية وعلقوها على جاكتاتهم. وحضر زعيم اليهود وهو جنتلمان ذو لحية كثة ليقف بسيارته ويقرأ علينا رسالة موجهة إلينا. وكانت هذه الرسالة المكتوبة بلغة انجليزية غير سليمة تقول «احب ان اقول لكم صباح الخير ومساء الخير».

الفصل الرابع

المؤلف يزور مدافن اليهود في المغرب

في أواخر عام ١٩٣٧ عنَّ لصبى ترزى يهودى اسمه موريس توندوسكى ان يترك منزله فى مدينة كاليش فى جنوب غرب بولندا ليسافر إلى فرنسا هربا من نذر الحرب التى لاحت فى الافق. وبعد ان أمضى عدة شهور فى باريس انتقل إلى ميناء نيس فى جنوب فرنسا حيث وجد عملا مستقرا كترزى سيدات.

وعندما اندلعت ألسنة الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ اصدرت الحكومة الفرنسية إليه وإلى سائر المهاجرين إلى فرنسا أمرا بالالتحاق بفيلق الاجانب التابع للجيش الفرنسى العامل فى شمال افريقيا. وبعد نجاحه فى الكشف الطبى الذى أجرى عليه فى مارسيليا ارسل موريس للتدريب فى المعسكرات الموجودة فى مدينتى سيدى بن عباس وصعدة الجزائرية ثم صدر الامر بنقله لمدة طويلة إلى مدينة مكناس المراكشية التى كانت حاضرة العائلة العربية المالكة إبان القرون الوسطى. وفى الليلة الاولى من وصول موريس توندوسكى إلى هذه المدينة العريقة الناضحة بعبق التاريخ تجمع حوله زملاؤه المجندون وغطوه ببطانية وأوسعوه ضربا بالعصى واللكمات كما جرت عادة الجنود الفرنسيين فى شمال افريقيا فى استقبال اى زميل جديد لهم سواء كان يهوديا أو

فرنسيا.
وفى عام ١٩٤٠ نجحت ألمانيا النازية فى احتلال فرنسا وإقامة حكومة فيشى العميلة الامر الذى غير مجرى حياة موريس تغييرا كاملا وقلبها رأسا على عقب اذ قام الضباط الفرنسيون ذات يوم بتجريده من سلاحه دون أى شرح أو تفسير وبعد مضى اسبوع دفعوا به فى شاحنة واقتادوه إلى منطقة معزولة على حافة الصحراء على بعد ستين ميلا من الشاطئ الجنوبى للبحر الابيض المتوسط وعلى مقربة من الحدود المراكشية - الجزائرية فى واحة العين السخنة فى بركنت.
وبعد وصوله إلى محطة بركنت الصغيرة للسكك الحديد صدر الامر اليه وإلى العشرات من زملائه بالسير إلى مكان فسيح يخلو من السكان على بعد خمسة أميال تحت حراسة قوات فرنسية وعربية وسنغالية وكان جميع المرحلين إلى هناك من اليهود المهاجرين غير الشرعيين والمجندين النظاميين وفى قلب الصحراء صدرت إليهم الاوامر بالتوقف عن السير وحفر الحفر فى التربة القاسية المغطاة بالحصى. وهناك أخبروهم بأن ذلك هو المكان الذى سوف يعيشون فيه داخل خيمة تحميهم من صقيع الليل.. وهكذا بدأ موريس حياته فى معسكر عمل بركنت الوحيد المخصص لليهود الذى انشأته فرنسا فى جميع مستعمراتهم العربية.
لم يحدث إبان فترة الحرب العالمية الثانية سوى فى بعض الحالات النادرة ان التقى يهود العالم المسيحى بيهود العالم الإسلامى. وهناك ثلاث حالات نادرة لحدوث هذا اللقاء اولها ذلك اللقاء الذى تم بين عدة عشرات من اليهود أغلبهم من تونس وليبيا الذين قام الألمان والطليان بالزج بهم فى معسكرى اعتقال أوشوتيز وبرجن بلسن وبعض معسكرات الاعتقال الاخرى فى اوربا و شملت الحالة الثانية ما يقرب من ١٢٠٠ يهودى جاءوا من مستعمرات فرنسا فى شمال افريقيا ليجدوا انفسهم محاصرين فى اوربا

بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية وانتهى أمرهم بالإبادة شأنهم فى ذلك شأن ملايين اليهود الاوربيين الذين قضى عليهم النظام النازى فيما يعرف «بالحل النهائى». اى التخلص نهائيا من يهود اوربا. اما المجموعة الثالثة التى ضمت نحو ألفى من يهود اوربا مثل موريس توندوسكى الذى اعتقلته فيشى فى معسكرات العمل فى البلاد العربية فقد ساروا فى الاتجاه المعاكس اى من اوربا إلى شمال افريقيا وفى حين يعرف الجميع قصة الهولوكست فى اوربا نرى ان الهولوكست الذى حدث فى صحارى وجبال مراكش والجزائر يخفى على السواد الاعظم من البشر.

والجدير بالذكر ان المعسكرات الفرنسية كانت سابقة على الاحتلال النازى لفرنسا عام ١٩٤٠ فقد بدأت هذه المعسكرات فى الظهور إبان الجمهورية التونسية الثالثة التى اتسمت بقدر من التحرر والليبرالية جعلوها تفتح باب الهجرة إليها على مصراعيه لإيواء آلاف اليهود القادمين من وسط اوربا والذين توجسوا شرا من تعاظم النظام النازى. وانخرط كثير من هؤلاء المهاجرين فى صفوف الجيش الفرنسى فى فيلق الاجانب اعترافا منهم بفضل فرنسا عليهم ويمكن التنويه ان نصف اليهود المتطوعين للالتحاق بالجيش الفرنسى عام ١٩٣٩-١٩٤٠ والبالغ اجمالى عددهم ستين ألف يهودى كانوا من المهاجرين اليهود. ولكن عندما سقطت فرنسا فى مايو ١٩٤٠ لقمة سائغة فى فم هتلر لم يصبح لولاء اليهود الشديد لفرنسا أى معنى حيث ان حكومة فيشى العميلة للنازية برئاسة المارشال بيتان جعلت من اليهود المولودين فى فرنسا والمهاجرين إليها على السواء كباش فداء فقد اعتبرتهم مسئولين عن انهيار فرنسا السريع امام الألمان. وسرعان ما تبدد الجو الليبرالى الذى اتسمت به حكومة الجمهورية الثالثة وانقلب إلى عداء سافر للاجانب بوجه عام واليهود بوجه خاص انتهى بالزج بهم فى غياهب السجون والمعتقلات.

ولم تخجل حكومة فيشى من ان تتبنى على المستوى الرسمى

سياسة معادية للسامية.. ولهذا رأينا الضباط الفرنسيين يقتادون الآلاف منهم فى عربات شحن لإرسالهم إلى معسكر اعتقال درانسى وأمثاله تمهيدا لترحيلهم إلى معسكرات الموت النازية فى شرق اوربا. وقد كان اليهود المهاجرون من أوربا الشرقية وغيرها إلى فرنسا اول من عانوا فى عهد حكومة فيشى. غير ان حكومة فيشى وجدت شيئا من الحرج فى اضطهاد اليهود الذين دافعوا عن فرنسا بشجاعة وشرف لدرجة ان الحكومة الفرنسية وعدتهم بمنحهم إقامة مشروعة بل بالمواطنة الكاملة. وهكذا وجد الفرنسيون المناهضون للسامية أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه بسبب شعورهم بالخجل من انفسهم من طرد الجنود اليهود الذين ابلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن فرنسا ثم ارسالهم إلى حتفهم فى معسكرات الابادة. ولهذا آثروا الزج بهم فى معسكرات اعتقال داخل فرنسا بصفة مؤقتة قبل إرسالهم إلى معسكر الموت فى أوشوتيز. وحتى تتهرب حكومة فيشى من خستها ولا تواجه نذالتها المفضوحة اهتدت إلى حل أفضل يتمثل فى ارسال الجنود اليهود إلى مستعمراتها فى شمال افريقيا، لتسخيرهم والاستفادة من عمالتهم فى انشاء خطوط سكك حديدية عملاقة تعبر الصحراء وتمتد لألف ميل على ارض رملية يصعب التعامل معها. ولم يكن هدف حكومة فيشى اختزال وقت السفر من النيجر إلى ميناء نيس الفرنسى فحسب بل كانت ايضا تهدف إلى نقل ثروات افريقيا إلى فرنسا كى تنعم بها. وحتى تنفذ حكومة فيشى هذا المشروع الضخم ارسلت على وجه السرعة احكثر من سبعة آلاف عامل من غير المرغوب فيهم وعلى رأسهم اليهود إلى الأركان الموحشة فى كل من المنطقة الغربية من الجزائروالمنطقة الشرقية من مراكش.

وكان معظم المرحلين إلى هناك من جميع ألوان الطيف السياسى فمنهم الجمهوريون الاسبان والشيوعيون والاشتراكيون الألمان المناهضون للنازية وانصار ديجول ونفر قليل من العرب

ويابانى واحد. اما اليهود امثال الترزى موريس فكانوا يستبعدون من الخدمة العسكرية أو ينقلون إلى مناطق نائية بسبب ديانتهم وليس بسبب الشك فى ولائهم السياسى.

قامت حكومة فيشى بتسريح الجنود اليهود من الجيش الفرنسى وأرغمتهم على توقيع عقود تفيد بأنهم «عمال مجندون فى زمن الحرب» وهو تعبير قانونى يتيح للقوات العسكرية الفرنسية التحكم فيهم والسيطرة على مقدراتهم.

ورغم ان هذه العقود نصت شكلا على حصول العامل على اجر زهيد لا يتجاوز بضعة فرنكات يوميا تصرف له من ميزانية سكك حديد النيجر والبحر الابيض المتوسط فان قلة منهم هى التى تلقت أية أجور بالفعل. فحقيقة الامر انهم كانوا سجناء وليسوا اجراء إلا بالاسم. وكان هؤلاء السجناء يشحنون فى قطارات مكتظة شديدة الحرارة متجهة إلى الجنوب من فيافى الجزائر واوران ليستقروا فى معسكرات كئيبة وموحشة ومقفرة حيث ظلوا يعملون من الفجر حتى المغرب ويعيشون على القليل من الزاد والماء وبدون اية راحة أو رعاية صحية. كانوا يشتغلون بتكسير الحجارة وحملها إلى جانب بناء الثكنات من هذه الحجارة كى يعيش فيها رؤساؤهم الفرنسيون. أما هم فكانوا يبيتون فى خيام وكان كل اربعين عاملا يحشرون للمبيت فى خيمة مصممة لإيواء ثمانية اشخاص فقط وكانت ملابسهم وبطانياتهم مجرد اثمال وهلاهيل. وفى معظم الاحيان لم يكن لديهم أحذية يلبسونها. وكان الحراس يردون قتيلا كل من يحاول الهرب منهم وقد وصف أحد الناجين من الموت فى هذا المعسكر انه بوخنوالد فرنسى.

وبوخنوالد كان واحدا من اشهر معسكرات الاعتقال النازية واكثرها سوءا. وطبقا لشهادة الشهود كان قادة المعسكر وضباطه الكبار يتسمون بالشراسة والسادية ومعاداة السامية إلى جانب إفراطهم فى معاقرة الخمور. كما كان الكثيرون من هؤلاء القادة الفرنسيين ينحدرون من أصل ألمانى.

ويروى لنا يهودى ألمانى اسمه هارى الكسندر صورة حية لتجربته المريرة فى هذا المعسكر فى معرض الشهادة التى ادلى بها امام متحف ذكرى الهولوكست فى الولايات المتحدة يقول هذا اليهودى انه تمكن الهرب إلى فرنسا وخطط للانضمام إلى الجيش الفرنسى بعد الزج بوالده فى معسكر ساشنهاوزن النازى وبأخيه فى معسكر بوخنوالد. غير ان السلطات الفرنسية ألقت القبض عليه ووضعته فى قطار لشحن البضائع يتجه إلى معسكر عمل اقامته حكومة فيشى فى الصحراء الجزائرية يعرف باسم جلفا..

يقول هارى الكسندر فى شهادته: «لم نكن فى الحقيقة نعرف الجحيم ولكننا عرفناه عندما دخلنا هذا المعسكر وبقينا بداخله لفترة وجيزة. واذا لم يكن هذا المعسكر هو الجحيم بعينه فإنى على يقين من انه كان شبيها به. صدقونى . وعندما وصلنا إليه وقفنا فى حالة انتباه لتحية قائد المعسكر الذى جاء وتكلم. ولن انسى طيلة حياتى ما قاله لى.. أو بالاحرى ما قاله لنا.

قال: انتم جميعا جئتم هنا كى تموتوا. انتم حثالة اوربا وقمامة العالم. ومهمتى ان ارسلكم إلى حتفكم فى هذا المكان. واذا سلكتم مسلكا حسنا وفعلتم ما تأمرون به فقد تعيشون لمدة اطول قليلا. واذا عصيتم ولم تفعلوا ما تأمرون به فسوف تموتون فى الحال. هذا عملى وانا اتقن اداء عملى».

ولكن قدر لهارى ان يعيش عامين . ويستطرد هارى فيقول بشأن معسكر جلفا: «هناك طرائق كثيرة للموت. فاما ان يموت المرأ من الدوزنتاريا أو الملاريا أو الجوع أو نقص المياه أو يموت بلدغة عقرب أو عضة ثعبان. فتلقى حتفك فى خلال ساعة».

ويحدثنا هارى عن اسلوب فى التعذيب تعرض له اسماه القلعة: يقول هارى فى وصف هذا النوع من التعذيب:

«كان الجنود الفرنسيون وحراس المعسكر العرب يربطون ذراعى السجين خلف ظهره ويعلقونه منهما لنحو يومين أو ثلاثة. وعندما يصبح الجو قارصا للغاية يرشونك بخرطوم الماء المثلج ويقومون

بضـــربك.. ويجـــدون فى هذا تسليــة ويضـــحكون وهم يمـــارســـون تسليتهم. وعندما يقطعون الحبال التى تعلقك تسقط على الارض ولكنك تصبح عــاجـزا عن المشى.. وبطبـيــعـة الحـال ســوف تكون محظوظا لو انك بقيت على قيد الحياة. وقد تعرضت لهذه العقوبة مـرتين وكنت حسن الحظ عندما جـاء ضـربهم لى فى المرة الـثانية أخف من ضـربهم لى فى المرة الاولى. ولكنك بعد فترة من الـضـرب تفقد الاحساس به».

والجدير بالذكر ان حكومة فيشى أقـامت نحو ستين مـعسكر عمل فى كل من مـراكش والجـزائر حـيث كان اليهود المرحلون من اوربا أو اليـهـود المحليـون القـادمـون من شـمـال افـريقـيـا يكدون ويكدحون تحت شمس افريقيا الحـارقة. ولكن لابد من الاعتراف بأن من العـسيـر معـرفـة عدد هذه المعسكرات على وجه التـحـديد نظرا لإغلاق بعض هذه المعسكرات احيانا.. فضلا عن تكرار انشاء مـعسكرات واسـعـة تدور فى فلكهـا مـعسكـرات أصـغـر للبـحث عن المعـادن فى بـاطن الارض أو كنوع مـن العـقــاب وهـى كلمـة ملطفـة يستخدمها الفرنسيون بدلا من كلمة التعذيب.

يقول المؤلف روبـرت سـاتلوف انه رأى الدلائل والشـواهد القـوية على وجود مـعسكرات العمل التى انشـأتها حكومة فيشى لاضطهاد اليـهـود فـى الوثـائق والســجـلات ولكنه أراد ان يراهـا رؤية العـين. ولهذا قـام فـى الاسبـوع الاول من شهـر نوفمبـر عـام ٢٠٠٣ بـرفقـة زوجتــه وطفليـه بركـوب سـيـارته اللاندروفـر للسـفـر مـن الرباط العـاصـمـة المراكشـيـة بحـثـا عن شـواهد مادية على وجود مـعـسكر العـــمل الفـــرنســى بركنت الـذى ســبـق الاشـــارة اليــــه وغــيـــره من مـعسكـرات العمل الموجودة فى اطراف الصحـراء. وكـانت المحطة الاولى فـى رحلتــه علـى بعـد ٣٤٠ مـيـــلا شـــرقى مـدينة العـودة فى اقصى الشرق التى تعتبـر آخـر محطة فى مـراكش على الطريق إلى الجزائر. كانت مـدينة العودة فيما مضى موقعا تجـاريا مزدهـرا يقع على الحـدود المراكشـيـة ويزدان بمحـلاته الراقية ومقاهيـه الفخمة

وشوارعه الواسعة العريضة على النمط الفرنسى. ولكن هذه المنطقة الحدودية اصبحت فى يومنا الراهن مغلقة بسبب التوتر الناجم عن الخلاف على الحدود بين المغرب والجزائر على تبعية الصحراء الكبرى الامر الذى ادى إلى تدهور مدينة العودة.

وفى صبيحة اليوم التالى لوصول ساتلوف وعائلته إلى العودة بدأ رحلته على الطريق إلى بوعرفة جنوب العودة. وهو طريق يسير بمحازاة خط سكة حديد مراكش الشرقية التى تشكل القطاع الشمالى من مشروع السكك الحديدية الطموح الهادف إلى اجتياز الصحراء والجدير بالذكر ان فرنسا اتمت بناء سكة حديد مراكش الشرقية فى عقدى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين. وجاءت حكومة فيشى لتبنى معسكرات عمل بالقرب من محطات السكك الحديدية بطول هذا الطريق حتى يتمكن السجناء من اصلاح القضبان والعمل فى المناجم القريبة وحتى يتمكنوا من مد خطوط السكك الحديدية باتجاه الجنوب لعبور الصحراء والوصول إلى مدينة كولمب - بيشار الجزائرية التى تعرف فى يومنا الراهن باسم بيشار، كان ساتلوف يعلم من البحوث التى اجراها ان هذا الطريق يحتوى على اسوأ مواقع التعذيب التى حدثت فى المستعمرات الفرنسية فى منطقة شمال افريقيا فى فترة الحرب العالمية الثانية.. ولم تكن تحت يديه خريطة ترشده إليها بل كان يملك فقط نسخة من وثيقة عمرها ستون عاما استخرجها من وثائق وزارة الخارجية البريطانية وتحمل عنوان «معاملة اليهود والاجانب المحبوسين فى مراكش بوحشية». وتشير هذه الوثيقة إلى خمسة ناجين من احد معسكرات اليهود فى بولندا كانت المخابرات البريطانية قد اجرت مقابلات معهم فى يناير ١٩٤٣ اى قبل قيام الحلفاء بغزو تونس عقب العملية العسكرية الانجلو- أمريكية المعروفة باسم «الشعلة».

كانت عين بنى مطهر . محطة ساتلوف الاولى فى رحلته الاستكشافية . تقع على بعد نحو خمسين ميلا جنوب العودة وهو

الاسم الذى عرفت به بعد حصول مراكش على استقلالها عام ١٩٥٦.

غير ان عددا كبيرا من السكان المحليين لايزالون يسمونها باسم بركنت الضابط الفرنسى الذى قيل انه اول من عبر الصحراء ليكتشف هذه العين.

كانت بلدة بركنت موقع معسكر العمل الوحيد الذى خصصته حكومة فيشى بأكمله لسجن يهود شمال افريقيا وحدهم. ويقال ان هذا المعسكر كان يضم اربعمائة عامل يهودي ولكن عندما جاء مندوب الصليب الاحمر الدولى لزيارة هذا المعسكر فى يوليه ١٩٤٢ لم يجد فيه سوى مائة وخمسة وخمسين يهوديا تسعون فى المائة منهم كانوا مثل الترزى موريس توندوسكى من الملتحقين بالفيلق الاجنبى التابع للجيش الفرنسى.

وفى محطة من محطات بيع وقود الغاز فى الطريق إلى هذه المدينة المقفرة التى يسكنها بضعة آلاف من السكان تجاذب ساتلوف اطراف الحديث مع احد عمالها. ثم جاء شاب نحيف ثرثار فى اواخر العشرينات من عمره للمشاركة فى الحديث الدائر. فشرح له ساتلوف رغبته فى رؤية احد معسكرات العمل المخصصة للاجانب فى فترة الحرب العالمية الثانية ممن كانوا يعملون فى إصلاح خطوط السكك الحديدية. وعرف هذا الشاب الثرثار نفسه ساتلوف قائلا ان اسمه عمر وانه يعمل فى بلدية المدينة ويعرف المنطقة جيدا واضاف ان والده كان يعمل طيلة حياته فى السكك الحديدية مؤكداانه سوف يسعده ان يقدم إلى ساتلوف اية مساعدة عارضا عليه ركوب سيارته لارشاده فقبل ساتلوف ذلك.

اوقف ساتلوف سيارته عند محطة سكة حديد بركنت المهجورة لعدة اعوام فوجد ابواب المحطة موصدة كما وجد نوافذها مسدودة بالعوارض الخشبية. وكان قطار البضائع القادم من المناجم القريبة من بوعرفة يمر على محطة بركنت مرة واحدة فى الاسبوع. ولكن

لم يكن هناك اى مسافر أو راكب يمكن التحدث معه.

ظل ساتلوف يبحث عن موقع معسكر العمل بسيارته لمدة ساعة كاملة دون جدوى وبالرجوع إلى الوثيقة البريطانية الدالة على وجود معسكر لليهود البولنديين على بعد خمسة اميال من مدينة بركنت اتضح انها تغفل ذكر اتجاه هذا المعسكر فلم يجد ساتلوف مناصا من البحث فى جميع الاتجاهات ولكن بحثه كان بدون طائل . وطبقا لما اوردته وثيقة وزارة الخارجية البريطانية عن معسكر بركنت كان موقع هذا المعسكر على جانب تل تعين على كل عامل ان يحفر مأوى لنفسه يبيت فيه وكل ما وجده البريطانيون عندما وصلوا إلى هذا الموقع كان عبارة عن مجموعة من الحفر لا تكفى الحفرة الواحدة منها لغير شخص واحد يرقد فيها على بطنه بصعوبة. الامر الذى جعل هؤلاء العمال يفكرون فى بناء كهوب اوسع فى اوقات فراغهم.

ثم اخذت مدينة بركنت الصغيرة تبوح بأسرارها فقد اكتشف ساتلوف ساحة تبعد أقل من ميل عن جنوب شرق محطة قطارات بركنت بالقرب من سفح التل المطل على المدينة. وعثر ساتلوف فيها على حظيرة مربعة تبلغ مساحتها نحو ٤٠ × ٦٠ ياردة يحيط بها سور. وشرح له عمر انها مدافن اليهود المحلية. ولا غرو فقد كانت بركنت ـ شأنها فى ذلك شأن عشرات المدن والقرى المراكشية يوما ما ـ مكانا لاقامة مجتمع يهودى ينبض بالحياة. ولكن هذا المجتمع مالبث ان رحل منذ نحو اربعين عاما.. ودخل ساتلوف المدافن لعله يجد شيئا ينير له طريق البحث والاستقصاء. وفيما بعد رجع ساتلوف إلى سجل المدافن اليهودية فى العالم فلم يعثر على اى ذكر لوجود اية مدفنة يهودية فى مدينة بركنت التى سميت فى وقت لاحق بعين بنى مطهر. وهكذا خيل لساتلوف انه قد يكون اليهودى الوحيد الذى قام بزيارتها فى خلال عدة سنوات.

وواصل ساتلوف ومعه مرشده عمر السير بالسيارة فى طريق تعترضه الحجارة والصخور المتناثرة فى كل مكان كما تعوقه قنوات

الرى التى تعتمد على سقوط المطر. فاضطر الرجلان إلى الترجل. ثم عبرا جسرا صغيرا مبنيا بالحجارة قادهما إلى مدخل المدفنة حيث رأيا مستودعا للقمامة كما رأيا القبور التى تعرضت للعبث والهدم. وفى احد اركان المدفنة وقعت انظار ساتلوف على فك بشرى بارز فوق سطح الارض. وفى نهاية المطاف لم يجد ساتلوف سوى خمسة قبور لاتزال سليمة يرجع اقدمها إلى عام ١٩٣٩ ويرجع أحدثها إلى عام ١٩٦١ وكانت احدى المقابر السليمة مقبرة طفل فى السابعة من عمره اسمه جورج قطان الذى وافته المنية فى ١٥ فبراير عام ١٩٤٢ اى فى الفترة التى كان فيها بركنت يعمل كمعسكر عمل.

وانتهى ساتلوف إلى رأى مفاده انه يستحيل - والقبور على هذه الحالة من الدمار - التأكد من انها كانت بالفعل تضم رفاة السجناء اليهود فى معسكر بركنت للعمل وايضا عثر ساتلوف على اثار كتيبة فرنسية مهدمة بداخلها صليب احتفظ بسلامته رغم ما لحق بالمكان من تدمير.

يقول ساتلوف انه بعد مضى خمسة اسابيع على زيارته مع عمر إلى مدينة بركنت قام بزيارة الترزى اليهودى موريس توندوسكى الذى سبق ان زجت به حكومة فيشى فى معسكرات العمل فى شمال افريقيا. كان موريس توندوسكى البالغ من العمر آنذاك الثانية والتسعين يعيش فى شقته المريحة فى ضاحية ايلفورد بالقرب من لندن. ورغم تقدمه فى العمركان موريش يتمتع بالوعى والحيوية ويقظة الذهن. وعرض عليه ساتلوف الصور الفوتوغرافية التى كان قد ألتقطها للمدفنة التى زارها فى بركنت فقام هذا الرجل الطاعن فى السن من جانبه بعرض صوره الفوتوغرافية وهو يرتدى الزى العسكرى الفرنسى الانيق فى فترة التحاقه بفيلق الاجانب فى الجيش الفرنسى. وايضا اظهر موريس الامريكى الجنسية واليهودى الديانة خطابا كان قد تسلمه منذ ثمانية اشهر من وزارة الدفاع الفرنسية تدعوه إلى الحضور إلى

باريس لاستلام ميدالية تذكارية تعترف بخدماته العسكرية فى الجيش الفرنسى منذ اكثر من ستين عاما ولكن هذا التكريم المتأخر جدا أغفل بطبيعة الحال ان حكومة فيشى هى المسئولة عن إقصائه من الجيش الفرنسى وإلحاقه بمعسكر بركنت للعمل.

الفصل الخامس

حكومة فيشي تحرض العرب على نهب ثروات اليهود

كانت مدينة تندرارا الواقعة على بعد أكبر بستين ميلا إلى الجنوب فى الطريق إلى بوعرفة محطة ساتلوف التالية. وبدت له هذه المدينة اكثر شحوبا واقفرارا من عين بنى مطهر التى كانت بالمقارنة اكثر زخما بالحياة. وقرر ساتلوف زيارة محطة سكة حديد تندرارا مسترشدا بخريط للسكك الحديدية ترجع إلى عقد الخمسينيات من القرن العشرين تبين منها انها محطة سكة حديد تندرارا تقع فى شرق المدينة.

واستوقف ساتلوف ورفيق رحلته عمر رجلين انيقين فى ملبسهما للاستفسار عن الطريق للوصول إلى الشارع الرئيسى فى هذه المدينة. وايضا عرف ساتلوف من الرجلين ان الطريق إلى محطة قطارات تندرارا كان على بعد نحو ستة اميال إلى الشرق. وطلب واحد من هذين الرجلين الانيقين من غلام يركب دراجة إرشادهما إلى بداية الطريق. ودلهما راكب الدراجة إلى طريق غير واضح المعالم يلتوى التواء الثعبان حول احد التلال.

واخبر الغلام ساتلوف وعائلته بالالتزام دائما بالجانب الايسر من الطريق ثم تركهم مودعا. وعلى الجانب الاخر من هذا التل لم ير ساتلوف سوى امتداد الصحراء الفاصلة والخالية من السكان الذين هجروها منذ فترة طويلة من الزمن. وبعد ان امضى

ساتلوف بضع دقائق فى قلق أدرك انه ضل الطريق إلى تندرارا وعندما انحرف بسيارته اللاندروفر ٣٦٠ درجة لم يجد أمامه سوى الصخور والرمال الممتدة.

وفجأة ظهرت لهم شاحنة قديمة من طراز فورد قادمة باتجاههم من الجنوب الشرقى أعلى التل. واشاروا إليها بالتوقف لسؤال ركابها عن الطريق الصحيح إلى محطة سكة حديد تندرارا. وترجل ركاب الشاحنة وهم العرب وشديدو السمرة لتحية ساتلوف وطمأنوه بأنه يسير باتجاه الشرق فى الطريق الصحيح. ثم مضوا إلى حال سبيلهم ولم يبتعد ساتلوف اكثر من نصف ميل حتى ادرك انه وسط مجموعة من تجار السوق السوداء الجزائريين وانه فى طريق لا يعرف أوله من آخره وان من حسن حظه انه لم يتعرض للسطو.

ولكن قبل مضى وقت طويل بدأ ساتلوف ورفاقه يلمحون فى الأفق العديد من المبانى المقامة بمحاذاة خط السكة الحديد. وكانت جميع هذه المبانى - باستثناء مبنى واحد - تقع على الجانب الغربى من خط السكة الحديد.. وفى الوسط كان هناك مبنى متهدم ومتهالك يوشك على الانهيار هو محطة السكة الحديد التى سقط سقفها وتدلت عروقها الخشبية وايضا كان هناك خلف المحطة مبنيان سقوفهما منخفضة.

ويذكر لنا ساتلوف انه غادر محطة قطارات تندرارا حوالى الرابعة والنصف بعد الظهر بعد ان امضى فيها ساعة ونصف الساعة يفحص اثناءها كل شبر من الموقع ويلتقط له الصور الفوتوغرافية وافلام الفيديو.

ولكنه أسرع بالرحيل إلى بوعرفة قبل حلول الظلام. وايضا كان ساتلوف حريصا على الوصول إلى مدينة واحة فيجويج الواقعة نحو ثمانين ميلا إلى الجنوب الشرقى.. وانطلق ساتلوف بسيارته لمدة ساعتين بسرعة تزيد على مائة ميل فى الساعة. وكان منظر الشمس الغاربة أشد ما تكون بهاء وبعد حلول الظلام ظهر القمر

وضاء فى كبد السماء. و لكن بحلول الساعة السادسة مساء عثر ساتلوف على احدى محطتى سكك حديد بوعرفة اللتين انشأتهما فرنسا قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. ثم قرر مواصلة السفر على ضوء القمر بغية الوصول إلى مدينة فيجويج والمبيت فيها.. كما قرر أثناء رحلة العودة فى اليوم التالى التوقف لفحص المواقع التى انشأتها حكومة فيشى فى محيط مدينة بوعرفة.

كانت مدينة فيجويج التى تحيط بها الحدود الجزائرية من ثلاث جهات تقع فى الركن الجنوبى الشرقى من مراكش. ورغم انها كانت مدينة منعزلة فقد كانت تنبض بالحياة والنشاط التجارى كما ان اثنى عشرة ألف نسمة كانوا يسكنونها. وقد اسهمت هذه المدينة اسهاما كبيرافى حركة استقلال المغرب فى عقدى الاربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وعندما اندلع النزاع المسلح على الصحراء الغربية بين مراكش والجزائر وقعت بعض الاشتباكات فى شوارع فيجويج. وبعد اغلاق الحدود بين البلدين فقدت مدينة فيجويج شيئا من بريقها ولكنها ظلت محتفظة برونقها ورومانسيتها بسبب وجود ربع مليون نخلة بها.

قضى ساتلوف ورفاقه الليلة فى فندق شديد التواضع هو فندق فيجيويج الذى لم تزد عدد نجومه عن نجمة واحدة لاغير. وفى صباح اليوم التالى توجه ساتلوف إلى مدينة بوعرفة التى كانت آخر محطة سكة حديد على حدود مراكش بالقرب من الصحراء الكبرى والتى كان من المزمع - كما اسلفنا - انشاء خطوط سكة حديد عملاقة تعبر الصحراء الغربية وتربط وسط افريقيا بموانى البحر الابيض المتوسط. فضلا عن ان بوعرفة كانت مركزا من اهم مراكز التعدين فى جنوب شرق مراكش حيث كانت عربات القطار تحمل المنجنيز المستخرج من مناجمها إلى موانى البحر المتوسط. ولهذه الاسباب اهتمت حكومة فيشى باقامة اكبر معسكر اعتقال لها فى كل ربوع مراكش بالقرب من محطة القطارات الاساسية فى بوعرفة. وطبقا لاقوال المسئولين فى الصليب الاحمر بلغ عدد

السجناء فى معسكر بوعرفة ٨١٨ وذلك بدءا من يوليه ١٩٤٢ . ولم يكن معسكر بوعرفة معسكر عمل فقط بل كانت المعسكرات الصغيرة التى تدور فى فلكه تستخدم فى توقيع العقاب على النزلاء اى فى تعذيبهم وكان عدد المعسكرات الفرعية التى تدور فى فلك معسكر بوعرفة الرئيسى ثلاثة أولها اقيم فى موقع قديم خاص بفيلق الاجانب فى الجيش الفرنسى وهو يعرف بمعسكر ميروجا الذى يبعد عن مدينة كولمب بيشار بخمسة وخمسين ميلا . والجدير بالذكر ان الفرنسيين هجروا هذا المعسكر بعد شهور قليلة من إنشائه واختاروا له موقعا آخر فى عين قوراك بالقرب من موقع تعدين ناء على بعد نحو خمسة وعشرين ميلا من جنوب بوعرفة .

ورغم ان عين قوراك ليس لها أى ذكر فى خريطة مراكش فان هذا الموقع الخامل الذى ظل حتى مايو ١٩٤٢ أهم موقع لتأديب المعاقين فى معسكر بوعرفة اى اهم موقع لتعذيبهم. وعندما قام الضباط الفرنسيون ببيع هذا الموقع لاحد الاعيان العرب مقابل مائة الف فرنك نقلوه إلى مكان آخر يعرف باسم فوم دفلاح الواقع نحو تسعة اميال شرقى بوعرفة .

وايضا ليس هناك ذكر لفوم دفلاح على الخريطة المراكشية . وعند وصول ساتلوف إلى هذا الموقع الاخير توقف ليسأل على الطريق رجلا متقدما فى العمر اسمه سعيد كان فى انتظار اوتوبيس يقله إلى بوعرفة .

قال سعيد بلغة عربية تتخللها الألفاظ الفرنسية انه عاش فى ذلك الوادى طيلة حياته . كان هذا الوادى يحتوى على مبنى مقام بالحجارة.. وطبقا للتقرير الذى اعده مسئول فى الصليب الاحمر كان اهالى قوم دفلاح يعيشون فى الخيام وينامون على مراتب من القش. وكان هذا المبنى الذى انشأته حكومة فيشى مخصصا لتأديب «اى تعذيب» عمال معسكر بوعرفة . وهو شاهد على أسوأ انواع التعذيب التى حدثت فى مراكش وهناك كان العامل المعاقب

يكاد ان يدفن حيا اذ ان المشرف عليه امره بحفر حفرة فى الارض طولها متران وعرضها خمسون سنتيمترا وعمقها خمسة وثلاثون سنتيمترا يرقد فيها هذا المعاقب لمدة اسابيع بحيث يخرج منها للعمل اثناء النهار ليعود اليها فى الليل ويتعرض للشمس الحارقة صيفا والبرد القارص شتاء. وفى الحفرة يرقد النزيل المعاقب بجوار برازه وفضلاته لا يأكل غير الخبز ولا يشوب غير الماء. وكانت اية حركة من السجين المعاقب كفيلة ان تهيل عليه الحجارة أو ضربات الحراس بمؤخرة البندقية.. وكانت الاجراءات الروتينية التى يتبعها الملازم توماس المنوط به عقاب العمال فى فوم دفلاح أشد شراسة من تلك التى اتبعها الملازم جرونتر فى عين قوراك. فضلا عن ان حصته التموينية فى جميع الحالات لم تزد كثيرا عن لتر ماء واحد و١٥٠ جراما من الخبز فى اليوم.

وقد روى اليهود البولنديون لرجال الاعلام البريطانيين قصة يهوديين احدهما يدعى برنمان البالغ من العمر ٣٦ عاما والاخر كلينكوف البالغ من العمر اربعين عاما. قال: «لم يتمكن برنمان وكلينكوف من الهرب فبعد الزج بهما لاول مرة فى المقبرة لم يكن لديهما القدرة على الوقوف على اقدامهما. ولهذا السبب لم يذهبا إلى عملهما فى الصباح التالى. وابلغ الملازم توماس رئيسه فى بوعرفة القائد كيسلر بأن هذين الرجلين مضربان عن العمل. وظل برنمان وكلينكوف راقدين فى قبرهما المكشوفين يعانيان من شدة القيظ نهارا ومن الصقيع مساء.

وعقابا لهما حرما من الخبز واعطيا من الماء القذر الذى يمنعهما من الموت عطشا. وقد شوهد برنمان و هو يلعق ويأكل حشود الذباب المستقرة على شفتيه الضامرتين وفى الليل عندما غابت عنهما عيون الحراس قام برنمان وكلينكوف برفع جسديهما كى يشربا بولهما من كفتى اليد.

ظل كلينكوف راقدا فى قبره المكشوف من ٣ سبتمبر ١٩٤٢ حتى ٢٨ سبتمبر من نفس العام. وفى هذا اليوم كان برنمان

يحتضر على فراش الموت فجاءه القائد كيسلر والدكتور كورين من مدينة بوعرفة ليأخذاه معهما. وكان وزنه آنذاك ٣٥ كيلو جراما اى نصف وزنه الطبيعى. وتم نقله إلى ما يسمى بمستشفى بوعرفة حيث ألقوه على فراش فى نفس الحجرة.. وكان الفراش قذرا بطريقة يستحيل وصفها. وفى هذا المستشفى لم يقم المسئولون باعطائه أى نوع خاص من العلاج أو الطعام. بل فقط اعطوه نفس نوع الطعام الذى كان يعطى له فى المعسكر. وعندما ذهب الدكتور كورين لزيارة برنمان وجد انه قد جعل فراشه اكثر اتساخا حيث انه لم تكن لديه القدرة على التحرك من مكانه. فثارت ثائرة الطبيب وهاج وماج ولعن برنمان وهدده باعادته فورا إلى معسكر فوم دفلاح. ولكن لحسن حظه توفى فى ١٥ أكتوبر ١٩٤٢ قبل ان يتمكن من وضع هذا التهديد موضع التنفيذ.

والجدير بالذكر ان برنمان كان أعز اصدقاء الترزى اليهودى موريس توندوفسكى الذى سبق الاسارة اليه. يقول المؤلف ساتلوف انه عندما زار موريس فى ايلفور بضواحى لندن اخبره بأمر هذه الصداقة قائلا: «لقد كنت أفكر فيه دوما» واضاف توندوفسكى انه حاول عبثا حث صديقه على المقاومة قائلا له: «هتلر سوف يمنى بالهزيمة. وسوف نصير احرارا. ولكن يتعين عليك ان تبقى حيا. وكى تبقى حيا يتعين عليك ان تعمل. ولكن برنمان انهار نتيجة عدم قدرته على التحمل».

ويذهب ساتلوف إلى ان موقف معظم العرب من اليهود فى فترة الحرب العالمية الثانية يتلخص فى اللامبالاة وعدم الاكتراث. وفكرة عدم اكتراث العرب بمصير اليهود تردد فى اقوال الكثيرين من اليهود الذين عاشوا آنذاك فى شمال افريقيا. فنحن نرى احد النزلاء المخضرمين فى معسكر بيزرت يقول فى مذكراته ان العرب كانوا بمصير بعدم اكتراث إلى العمال اليهود الذين يحملون الجاروف والجرادل على اكتافهم وهم يسيرون فى الشوارع تحت حراسة النازيين والفاشيين. ويكرر مؤرخ آخر نفس المعنى فى

معرض حديثه عن الفترة الباكرة من الحرب العالمية الثانية بقوله:

«كان موقف الغالبية العظمى من سكان تونس غير اليهود يتفق مع موقف السلطات الفرنسية.. كانت هناك دلائل تنم عن عطفهم على اليهود. ولكن مواقف السواد الاعظم منهم اتسمت بعدم الاكتراث القاتل».. وبطبيعة الحال ساعد على عدم مبالاة معظم العرب بمصير اليهود انهم كانوا يعانون معاناة شديدة من الصعوبات الهائلة الناجمة عن الحرب مثل نقص المواد التموينية وانتشار الامراض وشدة الجوع. وفى نظر الألمان وانصارهم من الاوربيين كان العرب يقلون سوءا عن اليهود بدرجة هامشية لا تذكر . ويتضح هذا الموقف النازى الذى ينطوى على زراية بالعرب من تهديد ضابط ألمانى لعربى عبر عن ابتهاجه لمعاقبة بعض اليهود بالقرب من تونس العاصمة «سوف يأتى دوركم سوف نتفرغ من اليهود وبعدها سوف نلتفت إليكم».

ويجد ساتلوف شيئا من العذر لعدم اكتراث عامة العرب بمصير اليهود مبررا ذلك بشدة معاناتهم فى فترة الحرب الثانية ويعرض ساتلوف لظاهرة نعرفها جميعا وهى ترحيب كثير من العرب فى قرارة أنفسهم بقدوم القوات النازية والفاشية وبانتصارها على الحلفاء. فضلا عن ان كثيرا من العرب عاملوا المارشال بيتان رئيس حكومة فيشى باحترام وتوقير كبيرين بسبب تقدمه فى السن وسجله العسكرى الحافل وتواضعه الشخصى وشدة احترامه للعلاقات الاسرية. يقول احد الاساتذة الجزائريين «وهو عضو فى مجلس فيشى القومى اسمه احمد ابنو زكرى»: «نحن معشر المسلمين نعتبر المارشال بيتان سيدا جليلا».

ولكن إحقاقا للحق يؤكد ساتلوف ان غالبية العرب لم يساهموا على نحو ايجابى فى الحرب التى شنها الاوربيون الفاشيون ضد اليهود الذين يعيشون فى شمال افريقيا كما انهم لم يساندوا هذه الحرب بأى شكل من الاشكال حيث ان شغل العرب الشاغل آنذاك كان الاستمرار على قيد الحياة. فضلا عن ان العرب اعتبروا

مقاومتهم للاستعمار الفرنسى اهم من الاشتراك فى اضطهاد اليهود. يقول ساتلوف فى هذا الشأن ان قطاعا كبيرا من العرب الساعين إلى تحرير بلادهم من نير الاستعمار الفرنسى شعروا بالابتهاج والشماتة من انهيار الجمهورية الفرنسية امام القوات النازية وبأنه لا ضير من اضطهاد النازيين لليهود اذا كان هذا الاضطهاد جزءا من عملية التخلص من نير الاستعمار الفرنسى. وهناك بعض الكتابات العربية التى تدل على ان أصحابها لا يستهجنون اضطهاد النازيين لليهود اذا كانوا سوف يخلصونهم من براثن الاستعمار الفرنسى. يقول اليهودى جاد شاهر النزيل المخضرم فى معسكرى اعتقال صفصف وسيدجانان انه يتذكر ان العرب المحليين هللوا للجنود الألمان اثناء اقتيادهم لليهود فى شوارع العاصمة تونس وايضا كتب البعض يقول: « كان المسلمون يصفقون للقوات النازية التى ألقت القبض على اليهود ودفعتهم للسير فى استعراض يجوب شوارع تونس العاصمة.. وقذفنا المسلمون بالزجاجات فى محطة ماتير فضلا عن انهم قذفونا بأوانى الماء الفخارية التى كان يمكنها إطفاء ظمأ اليهود المنهكين».

وكذلك يشهد اليهودى يهوشوا دويب الذى قيض له النجاة من الموت فى أحد معسكرات العمل التونسية ان العرب عبروا عن عظيم ابتهاجهم عندما دفعه الألمان مع رفاقه اليهود للسير فى شوارع المدينة فى طريقنا إلى محل عملنا. وكان هؤلاء العرب الذين يتفرجون علينا يصيحون: «حان الوقت كى نستخدم الجاروف يا شالوم. وكانوا يعنون بهذه الكلمات القول ان اليهودى الذى امتهن التجارة اصبح لزاما عليه الآن القيام بالاعمال الشاقة» واضاف يهوشوا دويب إلى ذلك قائلا ان النسوة العربيات اللائى اعتدن ملازمة البيت خرجن للفرجة على العمال اليهود الذين اصبحوا الان خاضعين للذل وهدفا للضحك والاستهزاء.

وكذلك يخبرنا اليهودى التونسى فيكتور كوهين ان طبيعة العرب ظهرت على حقيقتها عندما قام الألمان باقتياد العمال اليهود فى

شوارع مدينة تونس فقد عبروا عن سعادتهم بهذا المنظر واستهزائهم الضاحك بهم بقولهم:

احملوا الجاروف واستخدموه». وهذا ما يؤكده لنا يهودى اخر اسمه ارتست يهوشوا اوزان الذى كلفه الألمان بالعمل الشاق فى مزرعة كوتسة.. ويذكر لنا هذا الرجل المتعة الخاصة التى وجدها بعض العرب فى مصائب اليهود.

ويعترف ساتلوف ان الفرنسيين الشامتين فى اليهود والمستهزئين بهم كانوا من المنتمين إلى حثالة المجتمع. وان العرب الذين تلذذوا بمشاهدة ما يلحق باليهود من اذى كانوا يحسدون الجالية اليهودية على ثرائها رغم ان هذه الجالية ضمت كثيرا من اليهود الفقراء.

وفى ديسمبر عام ١٩٤٠ اقترحت البلاغ وهى صحيفة عربية جزائرية على حكومة فيشى الاقتداء بالالمان فى إجبار اليهود على ارتداء ملابس تميزهم عن سواهم. تقول هذه الصحيفة: «من الضرورى منع اليهود من لبس القباعات الاوروبية وتلك التى يلبسها سكان البلاد الاصليون.. ونحن نقترح على الحكومة ان تلزم اليهود الجزائريين بلبس الطاقية التقليدية الخاصة بهم..» وقبل ذلك بشهر اتهمت هذه الصحيفة اليهود باللؤم وانه من الضرورى حماية الاغلبية العربية من فكرهم، الامر الذى قد يتطلب اتخاذ اجراءات عنيفة ضدهم. ومضت الصحيفة تقول:«ان العلاج الناجح قد يكمن فى عزلهم فى جزيرة نائية أو صحراء قاصية تحت سيطرة دولية شديدة الاحكام».

واذا كان بعض العرب قد عبروا عن فرحتهم باذلال اليهود فان البعض الآخر استفاد من هذا الاذلال فى تحقيق مكاسب تجارية ورغم انهم لم يشتركوا بانفسهم فى اذلال اليهود والتنكيل بهم فانهم استفادوا ماليا من محنتهم وخاصة فى مجال الاتجار فى السوق السوداء وبيع المواد التموينية لهم باسعار مرتفعة.. على سبيل المثال احتفل التونسيون فى خريف عام ١٩٤٢ بشهر رمضان

بشكل شبه طبيعى. ولكن بحلول هذا العام وجد العرب انفسهم يعانون من نقص فى الطعام والمواد التموينية الامر الذى اغرى المراكشيين والجزائريين بالمتاجرة فى السوق السوداء فى المواد الغذائية لزيادة دخلهم. «وقد ظلت ظروف بلاد شمال افريقيا المعيشية طبيعية أو شبة طبيعية حتى جاء الاحتلال النازى واختفت معه السلع الاساسية.

تقول اليهودية ميريام ليفى التى كانت تعيش فى بنى غازى ان العرب استغلو القصف الجوى بسلب ونهب منازل اليهود.. تقول ميريام فى هذا الشأن: «كان العرب يستغلون المحنة التى تواجهنا فهم لا يتوقفون عن البحث عن المال. فما ان تسقط قنبلة على منزل يهودى حتى تكون كل محتوياته قد سرقت». ويقول ايزاك جاك سمادجا القادم من إحدى ضواحى العاصمة تونس انه شاهد العرب يقترفون فظاعات من اجل السلب والنهب: «ففى نهاية القصف بالقنابل رأينا العرب يرتكبون اعمالا وحشية. رأيناهم يقطعون اصابع الموتى لسرقة الخواتم والحلى والذهب والمجوهرات من اليهود.

كما رأيناهم يقطعون الرقاب من اجل الاستيلاء على العقود.. ويروى لنا فيكتور كوهين من مدينة تونس قصة أخيه الذى تم إرساله إلى موقع ريفى ناء للعمل فى أحد معسكرات العمل فيقول ان الالمان فى الايام الاربعة الاولى لم يعطوا العمال أى طعام على الاطلاق فجاء العرب المحليون إلى هؤلاء العمال ليبيعوا لهم قشر البرتقال. ثم يضيف ان العرب مالبثوا ان استرجعوا هذا القشر عن طريق السرقة. وكان العمال «اليهود» يتضورون جوعا.

وجه اليهود الاتهامات إلى العرب باستغلال محنتهم للاستيلاء على ممتلكاتهم بأزهد الاسعار وخاصة عندما يجد هؤلاء اليهود انفسهم مضطرين إلى الفرار من منازلهم فى المدن التونسية التى هدمتها القنابل وبحثا عن الامان لجأ اليهود إلى الاحتماء بالريف والقرى. وتروى لنا كورين بوكنوزا هاكمون قصة عمها الثرى

صاحب الاملاك والعقارات ألبرت ناتاف الذى كان يعيش فى مدينة سوسة. فقد اعطى هذا اليهود عربيا من قرية بجمال حزمة كبيرة من الاوراق المالية نظير ايوائه وعائلته فى مسكن بعيد عن الغارات التى يشنها الحلفاء على مدينته».

وكذلك يذكر ياكوف زريفى الذى يعيش فى قرية قريبة من مدينة صفاقس ثانى اكبر مدن تونس كيف ان العرب تقاضوا منه مبالغ باهظة نظير تأجير بعض البيوت والشقق له بعد ان قام الألمان بطرد اليهود من منازلهم.

وفى مراكش انتهز المغاربة احيانا القوانين المعادية للسامية التى استنتها حكومة فيشى للتربح والحصول على مكاسب سياسية. وقام رئيس الوزراء المراكشى محمد المقرى بشرح هذا الابتزاز لبول بودوين وزير خارجية حكومة فيشى قال المقرى محتجا على هذا الابتزاز بأنه قبل ان تقيم فرنسام محميتها المراكشية كان يهودى يقضى عشرين عاما من عمره حتى يستطيع ان يجمع ثروته ثم يحتفظ بها لمدة عشرة اعوام بعدها تتدخل الحكومة للاستيلاء عليها. ثم يبدأ هذا اليهودى هذه الدورة من جديد. واضاف المقرى ان هذا النمط تغير بعد مضى ثمانية وعشرين عاما من الحماية الفرنسية حيث اصبح بإمكان المراكشى الجشع الاستيلاء على ثروة اليهودى بعد فترة لاتزيد على عامين يتعاون فيهما تعاونا وثيقا مع حكومة فيشى التى كانت لأسباب سياسية محضة تشجع العرب على نهب ثروات اليهود لصرف انظارهم عن كراهية الفرنسيين وصب جام غضبهم عليهم.

والجدير بالذكر ان الباشا حاكم مراكش قلب ظهر المجن للجالية اليهودية المحلية لكسب رضاء النازيين عليه. ولم يكتف هذا الحاكم بارغام اليهود على ارتداء الملابس التى تميزهم عن العرب بل سدد اليهم ضربة اقتصادية قاضية عندما فرض عليهم ضريبة قاضية بان فرض ضريبة قدرها مائة الف فرنك على قاطنى الاحياء اليهودية. وفعل الباشا حاكم مدينة سالية نفس الشئ

عندما اصدر مرسوما يحظر على اليهود استئجار مسلم أو استخدامه.

وايضا فى مدينة بنى ملال اصدر حاكمها المحلى المسلم بالاشتراك مع المدير المدنى الفرنسى مرسوما يقضى بأنه يحق لأى أوربى ان يطرد أى يهودى من مسكنه ويحل محله. والجدير بالذكر ان قائد شرطة تونس سطر فى تقرير له بتاريخ اغسطس ١٩٤١ ما يلى «يرجع الفضل فى التزام السكان الاصليين «أى الأهالى العرب» بالهدوء انهم اصابوا ثراء لم يعتادوا عليه وهو ثراء ناجم عن السطو أو الإتجار فى السوق السوداء.

الفصل السادس

ساتلوف يتهم بعض العرب صراحة بتعذيب اليهود
(١)

درج ساتلوف فى الصفحات السابقة على الهجوم المعلن والمستتر على عرب شمال افريقيا فهو يقول ان الحماقات والسفاهات والشماتات العربية التى عرضنا لها لا تجعل منهم جناة بأى حال من الأحوال حيث ان الجناة الحقيقيين المسئولين عن اضطهاد اليهود هم الاوربيون.

ولكن ساتلوف لا يلبث ان ينحى باللائمة على العرب لاستهزائهم باليهود فى محنتهم والتصفيق للمنكلين بهم ولتحمسهم شبه السادى فى تزويد الاحتلال النازى والفاشى بما يلزمه من حراس ورؤساء عمال وسائقى قطارات الامر الذى جعل اضطهاد النازيين لليهود ممكنا. ومن ثم يرى ساتلوف ان العرب بشكل أوبآخر لعبوا دورا نشطا فى إلحاق الضيم والخسف بيهود شمال افريقيا عن طريق تنفيذهم القوانين المعادية للسامية وتجنيد العمالة اليهودية فى خدمة الاحتلال النازى.

ولا مناص ـ فى رأيه ـ من القول ان العرب من الدار البيضاء حتى منطقة الصحارى جنوب طرابلس قاموا بمهمة حراسة معسكرات العمل والاشراف عليها. مما يدل على تعاونهم مع النازيين والفاشيين وحكومة فيشى.

ويجدر بالذكر ان حكومة فيشى زجت باليهودى بيهو شادويب

فى تكنات معسكر فيبلرت السيئ السمعة فى مدينة بنزرت وكانت مجموعات من الحراس العرب تجوب الشوارع ليلا بحثا عن اى يهودى حاول الهرب بجلده من غارات الحلفاء والقصف العنيف. يقول دويب فى هذا الشأن ان بعض العرب «كانوا يجمعون المزيد من اليهود ويتوعدونهم بالويل والثبور وعظائم الامور ويسلمونهم إلى الجيش الألمانى».

ويتذكر اليهودى تزفى حداد الذى كان يسكن مدينة قابس أن المشرف العربى - وليس الألمانى أو الايطالى - كان مكلفا باقتياد مجموعة مكونة من خمسين عاملا يهوديا إلى عملهم فى الصباح ليعود بهم إلى المدينة فى المساء».

والرأى عن ساتلوف ان العرب بحكم وظائفهم كحراس ساهموا فى تعذيب السجناء حيث انهم كانوا يقومون بشكل دورى بعبط السجناء فى معسكرات العقاب المقامة فى الصحراء. وبما يذكر ان معسكر كولمب بيشار - وهو احد اكبر معسكرات العمل التى انشأتها حكومة فيشى - شاهد بعض اعمال التعذيب الوحشية.. ويروى لنا ساتلوف قصة نزيل يهودى جزائرى قفز من نافذة الثكنة التى ينزل بها واختفى فى الصحراء. ولكن بعض الحراس العرب من الخيالة استطاعوا القبض عليه وجروه إلى المعسكر بعد ان ربطوه فى خيولهم ثم ارسلوه إلى مكان شبيه بالجحيم يعرف باسم هادجيرات حيجويل حيث تم تعذيبه وحيث اسلم الروح بعد ثمانية أيام من هذا التعذيب.

وكان هناك معسكر اعتقال آخر سيئ السمعة تابع لحكومة فيشى فى جينين بورزق اتسم قائده الملازم الايطالى بيير دى ريكو بالسادية. وكان تحت أمرته فريق من الاتباع من بينهم نصير من انصار الفاشية جاء فى منطقة الألزاس، إلى جانب رجل ألمانى كلف بزعامة عصابة محلية من الغوغاء الكارهين لليهود ورجل بوليس عربى اسمه على جويسنى وفى معسكر جلفا فى الصحراء الغربية اتسم قائده القوضهدان ج.كابوشى بالسادية فقد كان يتلذذ

بنزع كل ملابس السجناء ثم ينهال عليهم ضربا بالسياط. واصدر كابوشى امرا إلى السجناء بعدم اشعال اى نار للتدفئة. وفى الليالى الصحراوية القارصة البرودة ألزم مساعده العربى بتنفيذ أوامر رئيسه حرفيا. وقيل ان هذا المساعد العربى كان يتلذذ بمنظر سجنائه وقد تجمدت اطرافهم من شدة برودة الليل فى الصحراء. وايضا اشتهر بالقسوة عربى يشرف على معسكر العمل القائم فى مزرعة تدعى ديميرج - فرتيجا بالقرب من مدينة هايتر فى شمال تونس. وهناك حكايات تروى عن تلذذه بتعذيب الاربعين يهوديا الذين شاء حظهم العاثر ان يكونوا خاضعين لسلطته.

وقد ترك لنا ضابط بريطانى يعمل فى لجنة الحلفاء المنوط بها التحقيق فى معسكرات العمل التابعة لحكومة فيشى تمهيدا لتحريرها. ويقول هذا الضابط بصدد الدور الذى لعبه الجنود العرب المحليون فى ادارة معسكر صغير للعقاب ليس بعيدا عن منطقة التعيين وسكك حديد مدينة بوعرفة فى جنوب شرق مراكش: «كان معسكر عين قوراك تحت أمرة ستة من امناء الشرطة السابقين ممن يعملون فى فيلق الاجانب بالجيش الفرنسى. وكان هذا المعسكر تحت إشراف مجموعة من المجندين العرب من أهالى المنطقة والقادمين من المناطق الجنوبية والذين يصل عددهم إلى نحو ستين سجينا. وتلخصت مهمة هؤاء الجنود العرب فى منع اية محاولة للهرب قد يقوم بها السجناء المعاقبون وهم يحرسون المعسكر بسنابك بندقياتهم المحشوة بالطلقات ولديهم تعليمات باطلاق النار على كل من تسول له نفسه الهرب».

ويضيف الضابط البريطانى إلى هذا قوله ان الحراس العرب كان أيضا يتولون تعذيب سجناء المعسكرات فهم الذين يقومون بحراسة السجناء المعاقبين بدفن أنفسهم احياء بعد حفر قبورهم بانفسهم. وهم الذين لا يسمحون للسجين المدفون ان يتحرك كى يطرد ذبابة أو يتحاشى لدغة عقرب.. ويستطرد الضابط البريطانى قائلا: «هؤلاء الذين يجرأون على رفع رءوسهم يعرضون

انفسهم لسقوط وابل من الحجارة التى يرميها الحراس عليهم أو للركل أو الضرب بمؤخرة البندقية».

وتذكر الوثيقة التى اصدرتها وزارة الخارجية البريطانية عام ١٩٤٣ والتى سبق لنا الاشارة إليها وتحمل عنوان «المعاملة البربرية لليهود والاجانب فى مراكش» تفاصيل مروعة عن دفن سجناء المعسكرات اليهود احياء والدور الذى لعبه العرب فى تعذيبهم. وتروى لنا هذه الوثيقة قصة معاقبة يهودى ألمانى اسمه سيلجو بدفنه حيا. ففى يناير ١٩٤٢ اصيب سيلجو بجرح فى سابقه فقام بتضميد هذا الجرح. ولكن الضمادة لم تكن ثابتة فى مكانها حيث انها كانت تنزلق أثناء المشى ، الامر الذى اضطره إلى الوقوف عن السير من آن لآخر لرفع الضمادة. ولهذا السبب عاقبه الضابط جابر بأن يدفن نفسه حيا لمدة خمسة عشر يوما تعين عليه مثلما تعين على الآخرين ان يرقد ليل نهار ووجهه يتجه إلى أعلى. ولم تكن لديه أغطية بل كان يرتدى زيا عسكريا ممزقا خاصا بفيلق الاجانب التابع للجيش الفرنسى دون ان يكون لابسا اية ملابس داخلية. ولم يكن مسموحا له بالحركة أو تغيير وضعه فى مرقده. وكلف احد الحراس العرب بالوقوف أعلى القبور حتى يتأكد من ان ضحيته لا يحرك جسده قيد أنملة. وكان هناك صف من القبور يحتوى على اربعة وعشرين مدفنة. واذا حدث ان الضحية تحركت اثناء وجود الحارس العربى بالقرب منه ضربه هذا الحارس بمؤخرة بندقيته اما اذا كان الضحية على مبعدة من حارسه فكان حارسه يلقيه بحجر». وعندما يهطل المطر ويملأ حفرة المقبرة بالماد كان الحارس يسمح له برفع رأسه حتى لا يغرق فى الماء.. ونظرا لان ترية المقبرة كانت صلصالية فقد كان ماء المطر يستغرق ثلاثة ايام حتى يجف. والجدير بالذكر انه تعين على احد المعاقبين الرقاد فى الماء لمدة ثلاثة ايام كاملة.. وكان من حسن حظه ان هذا حدث له فى فصل الصيف فلم يتجمد ماء الحفرة التى يرقد فيها». ولكن حظ سيلجو كان سيئا فقد صدر الحكم بدفنه حيا فى شهر يناير أى فى عز الشتاء حيث تجمد الماء

المتجمع فى الحفرة اثناء الليل.
وبعد انقضاء خمسة عشر يوما اضطروا إلى نقله من الحفرة لان الصقيع اصاب رجليه بالتلف والعجز مما استدعى نقله إلى المستشفى لبتر قدميه. ولم يكن مسموحا للضحايا بتبادل الحديث رغم ان كل مقبرة كانت لا تبعد اكثر من اربعين سنتيمترا من المقبرة المجاورة. وكان عدد الحراس العرب فى الدورية الواحدة ستة يتم تغييرهم كل ساعتين.
كان الحارس العربى يحضر الطعام للمدفونين احياء.. وتتكون جراية كل منهم من لتر ماء يصرف له فى الساعة الثامنة و٢٥٠ جراما من الخبز وكوب ماء يصرفان له فى الساعة الثانية عشرة ظهرا وكوب ماء آخر عند هبوط الظلام.
وسمح للمعاقب بقضاء حاجته اثناء زيارات الحارس الثلاث له كل يوم. وبطبيعة الحال لم يكن فى سلطة الحارس العربى السماح للسجناء المعاقبين بمغادرة المقبرة. ونظرا لان غالبية السجناء كانوا مصابين بالدوزنتاريا الحادة فقد جرت عادة السجين على قضاء حاجته فى نفس المكان الذى يرقد فيه.
ولعلنا نذكر قصة السجين اليهودى هارى الكسندر القادم من لينبرج الذى أودع معسكر جلفا التابع لحكومة فيشى والشهير بقسوته فى معاملة نزلائه. يقول هذا الرجل ان سلطات المعسكر عينت قوات من العرب الخيالة الذين اتسموا بالقسوة والفظاظة. فقد دأب هؤلاء الحراس العرب على ضربه و ضرب زملائه بالسياط فوق الرمال اللاسعة وتحت اشعة الشمس الحارقة. وكان بعض السجناء يسقطون على الطريق فيضطر زملاؤهم إلى جرهم لانهم كانوا يرسفون فى الاغلال.
وفى الشهادة التى أدلى بها هارى الكسندر امام متحف ذكرى الهولوكست فى الولايات المتحدة يروى قصة العذاب الذى كابده على ايدى الحراس العرب.. يقول: «لأقل هفوة ومخالفة للقانون كانوا يقومون بدفن الضحية فى الرمل حتى عنقه ويأتى العرب

ويتبولون على رأسه. اما اذا حرك الضحية رأسه فكانوا يرفعون حجرا كبيرا ويسحقون به رأسه حيث انه كان من المفترض ألا يتحرك قط.. وايضا اذا اقترب عقرب أو ثعبان أو هاجمه سرب من النمل أو الحشرات الاخرى تعين عليه ألا يتحرك من مكانه.

غير ان هاري وزملاءه من السجناء ظلوا صامدين امام هذا التعذيب فهو يقول: «كان سبيلنا الوحيد فى مقاومة هذه المعاملة القاسية والاحتجاج عليها هو عدم استسلامنا امام هذه العقوبات . فهم يستطيعون ضربنا كما شاءوا . ولكن كنا نجلس ونتلقى هذا الضرب فى صمت ودون ان يصدر عنا اى انين. كنا نمتنع عن اصدار اى صوت أو ضوضاء.. كان الضرب المبرح يؤلمنا ويسبب لنا النزيف. وكان الألم الناجم عن الضرب ممضا. وكلما تحديناهم بطريقتنا أوسعونا ضربا وانزلوا بنا عقوبات أكثر وأفدح وأطول وحرمونا من الماء طوال اليوم ومن الطعام طوال يومين أو اوقفونا عرايا وقد اوثقونا إلى عمود طول اليوم تحت شمس افريقيا القاسية ثم يضعون فوق رءوسنا جردلا مليئا بالنمل ثم يدفوننا فى الرمال حتى عنقنا ويتبولون على رءوسنا ويواصلون ضربنا على رءوسنا حتى تنزف منها الدماء ولكننا لم نصدر اى صوت مهما فعلوا بنا».

وعندما حاول البعض التماس العذر لتصرفات العرب الهمجية باعتبارهم عبيد المأمور وينفذون الاوامر الصادرة اليهم اجاب هارى بما يلى: «كلا.. كلا.. كلا.. فالقوة والهمجية التى اتسم بها سلوك الحراس كان تلقائيا حيث ان احدا لم يطلب منهم ضربنا ضربا متواصلا طيلة الوقت. كما ان احدا لم يطلب منهم ربطنا جميعا بالسلاسل أو ان يضربونا بالسلاسل والاسواط. وكذلك لم يطلب منهم احد ربطنا عرايا إلى العواميد وضربنا ونحن فى هذه الحالة أو تعليقنا من أذرعنا ثم تدليننا لدفننا فى الرمال بحيث تتجه انظارنا إلى أعلى أو ضربنا على ادمغتنا أو التبول عليها. وابلغنا الحراس العرب بأنه يفترض اننا محبوسون للعمل فى مد خطوط السكك

الحديدية العابرة للصحراء دون تحديد طبيعة العمل الذى سوف يكلفوننا بادائه. كلا. فقد اذلونا ذلا كاملا واستمتعوا بما فعلوه بنا وكان استمتاعهم بما يفعلون جليا على وجوههم».

وايضا كان الجنود العرب يستغلون سلطتهم وسلاحهم فى بث الرعب فى قلوب اليهود. فبعد عملية غزو الحلفاء لشمال افريقيا قام يهودى مراكشى اسمه موريس ماراكى بارسال خطابات إلى الديبلوماسيين الامريكان يخبرهم فيها بسيل الشتائم القاذعة التى كان العرب يسبونهم بها. واضاف ان الجنود العرب كانوا يفتحون بيوت اليهود وينهبون ما فيها من مال بالمخالفة للقانون. فضلا عن اغتصابهم لربات هذه البيوت وأغتاظ الجنود العرب عندما رأوا اليهود يعبرون عن فرحتهم لاندحار قوات حكومة فيشى المهين امام القوات الأنجلو - أمريكية فى عملية الابرار الناجحة المعروفة باسم «الشعلة» فانتقموا منهم بإغلاق حى اليهود فى الرباط لمدة ثلاثة اسابيع ومنعهم من الخروج منه.. وامعانا فى التنكيل بهؤلاء اليهود كان المجندون العرب فى مدينة الرباط يستولون على طعامهم ويطردونهم من مساكنهم.

وحدثت وقائع مماثلة فى بعض المدن المراكشية الاخرى مثل مكناس وفاس بموافقة وتواطؤ الحكومة والشرطة والجنود الاوروبيين وعدد من الاهالى.

وفى تونس زاد عدد الدهماء المعادين لليهود بعد قيام الجيش الفرنسى بتسريح المجندين العرب بعد هزيمته الماحقة امام الألمان فاتجهت انظارهم نحو اليهود يتربصون بهم الدوائر .. ففى أغسطس عام ١٩٤٠ كانت مدن الكاف ومكتر وسليانة وابا قصور مسرحا للشغب ضد اليهود ونهبهم وسلبهم. واندلعت اعمال العنف نتيجة انتشار شائعة بأن اليهود اختطفوا فتاة مسلمة، الامر الذى ألهب المشاعر المعادية للسامية وزاد من هذا الاختناق اعتقاد العرب المتزايد بأن اليهود مسئولون عن نقص المواد التموينية فى فترة الحرب. وبطبيعة الحال كان الفرنسيون يشجعون العرب على

كراهية اليهود. ولكن خوفاً من ان تعود عليهم هذه السياسة بالضرر، فأخذوا يتراجعون عن هذا التشجيع عندما خشوا ان يؤدى إلى الانفلات الأمنى الكامل وزعزعة سلطتهم ومن احتمال اعتداء العرب عليهم. وكانت هذه رسالة الادميرال استيفا الحاكم الفرنسى المقيم فى تونس حين قال: «ان سخط الجماهير المسلمة قد يتصاعد لدرجة انه قد يتحول إلى شغب يطال الفرنسيين انفسهم».

والغريب ان المسئولين الفرنسيين فى حكومة فيشى أنحوا باللائمة على اليهود وحملوهم مسئولية ما يجرى لهم. وطلب بول بودوين وزير الخارجية فى حكومة فيشى من استيفا تحذير زعماء اليهود بلغة صريحة وشديدة اللهجة كى يوقفوا هجومهم على الماريشال بيتان وحكومة فيشى وان يقبلوا الاضطهاد الواقع عليهم بهدوء. فضلا عن انه امر استيفا بايجاد وسائل هادئة لا تثير الالتفات للتقرب من العرب واسترضائهم مثل اطلاق سراح العرب المتهمين بالتورط فى اعمال الشغب والنهب ضد اليهود.

ورغم ذلك فقد استمرت اعمال العنف وفى نوفمبر ١٩٤٠ حدثت اعمال شغب ضد اليهود فى داجاش. وحدث نفس الشىء للجالية اليهودية فى قنصة فى اوائل عام ١٩٤١.

وفى مايو ١٩٤١ حدثت فى مدينة قابس التونسة الساحلية اسوأ اعمال الشغب التى حدثت فى شمال افريقيا ابان الحرب العالمية الثانية. وظلت اعمال الشغب هذه متأججة لمدة ثلاثة ايام واكبتها اعمال قتل ونهب وسلب. بدأت اعمال الشغب بهجوم عصابة من العرب قوامها ثلاثون شخصا على المعبد اليهودى.. وانتهت بقتل ثمانية يهود وجرح عشرين منهم بالتواطؤ مع الشرطة.

يقول يوسف حورى ان احداث الشغب والنهب فى قابس كانت متفرقة ومن بينها قيام العرب بالهجوم على جارته اليهودية أفيلا راكاش اثناء اعدادها طعام الغداء لعائلتها فى المطبخ حيث وجدوا اناء مليئا بالشوربة التى تغلى فالقوه عليها وعذبوها ورجموها ثم

قتلوها. ويروى لنا يهودى آخر اسمه يوسف ميمون ان العرب اجتمعوا مع جيرانهم اليهود فى احد احياء مدينة قابس للاحتفال معا باقامة مأدبة فى عشية يوم الشغب وفى اليوم التالى فوجئ اليهود المحتفلون بهذه المناسبة بهجوم رفاقهم العرب الذين اكلوامعهم خبزا وملحا عليهم.

يقول ميمون فى هذا الشأن: «بالرغم من العلاقات الطيبة التى ربطتنا بهم وجدناهم بين المهاجمين علينا لانهم كانوا يكرهون اليهود كيهود».

ولم تبارح مخيلة تزفى حداد اليهودى الذى كان يعيش فى نهاية شارع أغلبية سكانه من العرب بالقرب من مقهى صورة أمه التى خرجت من البيت فور شعورها باندلاع اعمال الشغب للبحث عن اخته.. ويذكر تزفى حداد ان عربيا هاجمها فور خروجها من باب البيت وطرحها ارضا وان عربيا آخر قام بجرها محاولا قطع رقبتها. وسمع تزفى صرخات امه فهرع إلى الشارع ليرى الدم يسيل على وجهها وساقيها.. وفى آخر لحظة وصل ابوه إلى مكان الحادث وانقذها من موت محقق. وظلت رقبتها تحتفظ بآثار الجراح وبالندوب طيلة حياتها.

وبعد انفلات الأمن تماما فى قابس وصلت شرطة حكومة فيشى إلى موقع الحادث بقوة كبيرة وهى عازمة لاول مرة ان تضع الامور فى نصابها.

ولم يكن دافعها إلى ذلك حماية اليهود ولكنها خشيت على نفسها من ان يطيح الانفلات الأمنى بالسلطة الفرنسية برمتها. ولاشك ان انهزام الجيش الفرنسى واستسلامه للجيش النازى شجع العرب على ازدراء السلطة الفرنسية والاستهانة بها. فلا غرو اذا رأينا استيفا يرسل برقيته إلى رؤسائه فى حكومة فيشى تقول: «من الضرورى ان نعرف ان هيبة الألمان فى تزايد وتصاعد لاول مرة، فهى «اى هزيمة فرنسا النكراء» تقود المسلمين إلى الاعتقاد بأنهم أمة تتفوق على اليهود الذين وضعوا ثقتهم فى

بريطانيا وامريكا. ولاشك ان امتناع الضباط الالمان فى قابس عن التدخل جعل العرب يعتقدون انهم سوف يتولون حمايتهم فى حالة قيامهم بأية اعمال شغب. لقد سبق لى ان شرحت الفكرة الشائعة بين التونسيين الباى - وهو الأمر الذى يثير الضيق والغضب - ان هتلر هو سيد العالم كله وان الفضل يرجع إلى كرم الفوهر فى الابقاء على الانتداب الفرنسى على تونس..

وحتى تستتب الامور وتعود إلى فرنسا هيبتها امر استيفا بالقبض على العديد من الجناة العرب وتم اعدام خمسة منهم فى القصبة. والجدير بالذكر ان اليهود والعرب على حد سواء تأثروا باحداث الشغب التى وقعت فى قابس. فقد كان اليهود يتطلعون إلى فرنسا كحامية لهم فاذا بها تخذلهم وتضحى بهم من اجل استرضاء العرب. ومن ناحيتهم ارتاب العرب فى نوايا الفرنسيين الذين ادخلوا الفرحة إلى قلوبهم باستتان قوانين مناهضة لليهود فاذا بهم يقومون بحماية اليهود من اعتداء العرب عليهم.

لم يكن الحراس العرب فى معسكرات العمل العاملين تحت امرة الضباط الألمان والايطاليين والفرنسيين الوحيدين الذين انضمواإلى صفوف المحور فقد انشأ العرب جيشا صغيرا تطوع لخدمة وحدات الجيش الالمانى ومؤازرة قوات المحور.

ونذكر فى هذا الصدد ان حكومة فيشى قامت فى اعقاب الغزو الأنجلو - امريكى لتونس بانشاء الكتيبة الافريقية التى تعرف بكتيبة الفرنسيين المتطوعين فى تونس وكانت هذه الكتيبة تضم اربعمائة جندى ثلثهم من العرب إلى جانب جماعات متنوعة من الاوربيين الخارجين على اعراف مجتمعاتهم والمناصرين للفاشية. وفى فبراير ١٩٤٣ تولى الجيش الألمانى السيطرة الكاملة على هذه الكتيبة. وفى العام التالى لانشائها قامت هذه الكتيبة بمحاربة القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة. وتقلد قيادة هذه الوحدة ضابط اسمه بييركيستوفينى الذى ادانته محكمة عسكرية فرنسية فى عام ١٩٤٤ بتهمة الخيانة وتم إعدامه.

وايضا تكون تشكيل عسكرى ثان جميع افراده من العرب يعرف باللواء الافريقى - النوردى أشرف الألمان على انشائه على يدى ضابط فرنسى سابق اسمه محمد المعادى اشتهر بشدة عدائه للسامية لدرجة انه لقب بمحمد العامل بوحدة البوليس الخاصة بالنازية.

وإلى جانب هذه التشكيلات شبه العسكرية حاول الألمان انشاء وحدات خاصة تتكون من القوات العربية العاملة تحت قيادتهم المباشرة وفى يناير ١٩٤٢ أقام الألمان كتيبة تدريب المشاة الألمانية العربية التى ضمت اليها العرب الذين سبق وقوعهم كأسرى حرب بعد التحاقهم بالخدمة العسكرية فى يد الجيش البريطانى والجيش الفرنسى. ورحبت هذه الكتيبة بالمتطوعين من مصر والشرق الادنى وحتى من بلاد بعيدة مثل السعودية الامر الذى يدل على رفض هؤلاء المتطوعين للاحتلال سواء كان بريطانيا أو فرنسيا. ولا غرو فقد نجح الألمان فى تأجيج الكراهية ضد كلا هذين الاحتلالين. وكأن كل جندى عربى متطوع فى هذه الكتيبة يضع على ذراعه شارة كتب عليها باللغتين الالمانية والفرنسية «البلاد العربية الحرة». ولعل اشهر هذه التشكيلات العسكرية العربية التابعة للجيش الالمانى كان تشكيلا لوحدة خاصة تعرف باسم سوندر فيرياند أو الوحدة رقم ٢٨٧ كما كانت تعرف ايضا باسم الليجيون أو الفرقة الالمانية - العربية المكون من ثلاثة لواءات. واشتملت هذه الفرقة على إدارة عربية و ضابط اركان ألمانى. واشتركت القوات العربية بأقسامها الفرعية المتنوعة الملتحقة بهذه الفرقة فى عدة اعمال قتالية تمتد من القوقاز إلى اليونان وإلى تونس فضلا عن خوضها الحرب فى يوغسلافيا.

وبوجه عام لم يعول الألمان كثيرا على هذه الوحدات العسكرية من المتطوعين العرب. ولهذا استبعدوهم قدر الامكان عن مسرح العمليات القتالية وكلفوهم بحراسة مؤخرة الجيش وبالدفاعات الساحلية. ورغم هذا كان هناك استثناء واحد فقد نجح الألمان فى

تكوين وحدة هندسية متخصصة فى اعمال التخريب منتقاة من نحو مائة عربى قام باختيارها ضابط ألمانى يعمل فى الحامية بتونس اسمه الكابتن شاخت العامل فى الفرقة الاولى للمظلات. وقد وصفهم شاخت بانهم خليط من المراكشيين والجزائريين والتونسيين والسنوسيين والسوريين والمصريين والعراقيين والتوارجة واعراب الصحراء». وتم نقل هذه الوحدة بالطائرة إلى برلين لتلقى التدريب اللازم فى مدرسة ويتستوك للمظلات. و قد حاربت هذه الوحدة بكفاءة واقتدار خلف خطوط الحلفاء فى عملية «الشعلة» اثناء غزوهم لتونس.

ومن الصعب تقدير العدد الاجمالى للعرب المتطوعين للقتال فى صفوف الألمان.

يقول مراقب عسكرى ان نحو ثلاثة عشر ألف متطوع عربى انضموا إلى جيوش المحور فى فترة الحرب العالمية الثانية انخرط نحو نصفهم انخراطا مباشرا فى الجيش الألمانى وفى التنظيمات التابعة له، إلى جانب انخراطهم فى جيش حكومة فيشى . وبوجه عام كان دورهم القتالى محدودا للغاية. ولكن الألمان استفادوا منهم استفادة كبيرة فى الدعاية لانفسهم ضد قوات الحلفاء.

ويرجع احد الدوافع التى دفعت هؤلاء المتطوعين العرب للوقوف بجانب القوات النازية إلى كراهية الاستعمار الفرنسى المقترنة بالاعجاب بالقوات النازية القادرة على إلحاق الهزيمة به. فضلا عن ان بعض العرب حصلوا على مكاسب اقتصادية من تأييدهم للنازيين والجدير بالذكر انه لا توجد اية سجلات أو وثائق تدل على اشتراك الوحدات العسكرية العربية بشكل مباشر مع النازيين فى التنكيل باليهود كيهود.. ورغم ذلك فان وجود مثل هذه الوحدات يدل بشكل قاطع على مؤازرة كثير من العرب للألمان فى حربهم ضد الحلفاء.

الفصل السادس

ساتلوف يتهم بعض العرب صراحة بتعذيب اليهود (٢)

وهناك عرب فى شمال أفريقيا تجاوزوا رحلة التواطؤ وبادروا بمساعدة النازيين فى اضطهاد اليهود دون ان يطلب منهم احد استضافة الجستابو فى منازلهم والسهر على خدمتهم فى ملاحظة العمال اليهود أو اقتحام بيوتهم و الاستيلاء على ممتلكاتهم والتبليغ عنهم. هؤلاء العرب اشتركوا اشتراكا كاملا مع النازيين والفاشيين وحكومة فيشى فى معاملة اليهود المحليين بوحشية بالغة.

وتحتوى دار الوثائق القومية فى تونس على شهادات شفوية أدلى بها فرنسيون وعرب ضد يهودى اسمه يوسف بن حميدة بوفهيرى. وتقول هذه الشهادات ان بوفهيرى دأب على ارشاد الدوريات الألمانية عن بيوت اليهود ومتاجرهم كى تقوم بنهبها وسلبها. فضلا إلى انه تزعم مجموعة اخرى من العرب للعمل على خدمة الألمان. ويروى المسئولون فى حكومة فيشى فى ملف آخر ان «الشباب التونسى كان يحضر بصحبة الجنود الألمان إلى بيوت اليهود للحصول على مأكله ومشربه عن طريق الوعيد والتهديد. وكان اليهود يعتبرون انفسهم سعداء اذا التقى الشبان التونسيون بهذا ولم يطلبوا منهم تقديم زوجاتهم وبناتهم».

ويروى لنا اليهودى اموسى شوفان الذى عاش فى فترة

الاحـتـلال النـازى مع جـده المريض فـى قـابس عن مـجئ القـوات الألمانية فى صباح احد السبوت فى عام ١٩٤٣ لمحاصرة العمال اليـهود. ودخل هـؤلاء الالمان المعـبد الرئيسى الموجـود فى المدينة برفقة اثنين من المترجمين العرب ويذكر اموسى ان والده طلب من الألمان السماح لليهود المصلين فى المعبد لحين الانتهاء من صلاتهم. ولكنهم رفضوا اجابته إلى طلبه . وطلب الحبر اليهودى المحلى من بنى جلدته الخروج من المعبد وقبول المصير الذى ينتظرهم لانهم يحاربون معركة خاسرة. ورغم ذلك فقد قام العرب والألمان بضربه وجره على الأرض وأخذوه مع ولديه الكبيرين للعمل فى تفريغ الذخيرة العسكرية فى احد المطارات المحلية. وطبقا لشهادة اموسى كان العرب اكثر سوءا من جميع المتعاونين مع الألمان.

وعندما دخل صحفى بريطانى اسمه فيليب جوردان كمرافق لقوات الحلفاء مدينة قنص قبل تسليم الألمان لها بساعات قليلة ارتاع لمدى ما تعرض له اليهود هناك من نهب وسلب فهو يقول فى هذا الشأن: «تعرض كل يهود المدينة للنهب والسلب على ايدى العرب بتشجيع من الألمان حتى الابواب والشبابيك تمت سرقتها. انه لشئ مروع».

ويروى لنا اليهودى بول غز ان الجنود الألمان والسوقة العرب اغاروا فى اواخر الليل على المناطق اليهودية المجاورة لتونس العاصمة وفى البداية اقتصرت هذه الغارات على السرقات البسيطة ومضايقة المارة. ولكن الامور تفاقمت بمضى الوقت. ففى احدى الليالى فى منتصف شهر يناير اقتحموا مساكن اليهود الخاصة وانتزعوا منهم اموالهم وتموينهم واغتصبوا وهم شاهرون مسدساتهم اثنتين من نسائهم تحت سمع وبصر زوجيهما واطفالهما. وفى نهاية المطاف انزعجت السلطات الألمانية من استشراء الفوضى وانتهاك القانون إلى هذا الحد نتيجة تواطؤ الألمان مع العرب. ولم يجد القواد الألمان حلا لهذه المشكلة غير اصدار الاوامر إلى جنودهم بعدم دخوله احياء اليهود فى تونس.

ويردد اليهود الذين نجوا بجلدهم من الموت فى هذه الاحداث كثيرا من القصص عن النشاط الواسع للعرب كمخبرين . فعلى سبيل المثال يحكى لنا تزفى حداد كيف ان اثنين من العرب ارشدا اثنين من الألمان فى صبيحة احد سبوت عام ١٩٤٣ إلى منازل جميع اليهود اصحاب محلات الصاغة فى مدينة قابس لنهبها. وطبقا لما يقوله موريس يايشى كان العرب يرافقون الجنود الألمان فى جميع ارجاء تونس ويوقفون بعض اليهود طالبين منهم ابراز بطاقات هويتهم ويذكر اليهودى حاييم مازوز ان العرب كانوا يحرضون الألمان ضدهم مشيرين باصابعهم إلى اليهود السائرين فى شوارع مدينة الحماة للتعرف عليهم. وتضيف زوجة ابراهام سازماتى القادمة من الجوليت أن العرب وجدوا سعادة فى اثارة المشاكل امام اليهود، وانهم كانوا يرشدون الألمان إلى بيوتهم ويقولون عنها انها بيوت دعارة وفسق.

ويقول بول غز الذى كان يدير ادارة شئون اليهود فى تونس ان الغارة التى شنها الحلفاء على مطار العوينة فى تونس وافضت إلى مقتل العشرات ألهبت مشاعر الغضب عند العرب فسعوا إلى الانتقام من بنى اسرائيل بأن هاجموا مجموعة منهم كما قدموا بلاغات إلى الألمان ضد ستة من اليهود بتهمة انهم اعطوا اشارات إلى قاذفات قنابل الحلفاء للتعرف على عدد من المواقع الالمانية وكان من حسن حظ اليهود ان الالمان انفسهم وجدوا هذا الاتهام مضحكا فلم يأخذوه مأخذ الجد حيث انه يستحيل على طيار يطير على ارتفاع اكثر من ١٥ ألف قدم ان يرى أية اشارة باليد يرسلها يهودى من الارض إلى هذا الارتفاع الشاهق.

ولكن فيكتور ناتاف الشاب الدارس للديانة اليهودية والقادم من ضاحية عريانة القريبة من الضاحية تونس كان سيئ الحظ حيث انه دفع حياته ثمنا لاتهام مماثل وجه اليه. ويبدو ان اربعة من العرب المحليين القادمين من منطقة عريانة وممن يعرفون عائلة ناتاف قدموا بلاغا إلى الالمان ضده فى ١٣ ديسمبر ١٩٤٢ بتهمة

ارسال شارات ارشادية لمساعدة قاذفات قنابل الحلفاء على دقة التصويب. والواقع ان كل ما فعله ناتاف هو اضاءة الشموع احتفالا بيوم السبت المقدس فظهرت شعلتها المتراقصة فى حلكة الليل المخيم على مدينة تونس. وفى تلك الليلة اقتحم جندى ألمانى منزل فيكتور ناتاف فوجده يغط فى النوم فايقظه للقبض عليه وبعد مرور ستة ايام اعلنت السلطات الالمانية انه مذنب واطلقت النار عليه دون اية محاكمة. وفى يوم ٢١ ديسمبر ١٩٤٣ وبعد اعدامه بيومين نشرت صحيفة تونس خبرا موجزا مفاده انه تم اعدام فيكتور ناتاف لانه يمثل خطرا على أمن القوات الألمانية.

وبعد احتلال قوات الحلفاء لتونس حاول والدا فيكتور اقناع السلطات الفرنسية بملاحقة المجرمين العرب الاربعة وتقديمهم إلى العدالة. وبالرجوع إلى ملفات البوليس الخاصة بشكوى والدة فيكتور نينيت ناتاف يتضح ان هذه المرأة اتهمت عربيا اسمه سعيد بن مصطفى الغومراسنى كان يحمل الضغينة لعائلة ناتاف بسبب مشاحنات مالية بينه وبين هذه العائلة حول مخبز صغير.

ولا يزال الارشيف التونسى يحتفظ بالشكوى الرسمية التى قدمتها هذه المرأة إلى الشرطة ولكن ليس هناك ما يدل على ان السلطات الفرنسية ألقت القبض على اى من هؤلاء العرب الاربعة غير انه من المؤكد ان اهالى منطقة عريانة لم ينسوا الاجحاف والظلم الذى لحق بفيكتور مما جعلهم يطلقون اسمه على الشارع الذى كان يقطنه ولكن هذا الاسم ما لبث ان اندثر.

وايضا روى اليهودى اموسى شوفان قصة اخرى من قصص الابتزاز وسفك الدم العربيين.. وقد سمع اموسى شوفان هذه القصة التى حدثت فى قرية عربية معظم سكانها من العرب من امرأة تدعى هاجب ايون تقول هذه المرأة ان العرب خلال الحرب العالمية الثانية كثيرا ما ابتزوا اليهود الهاربين من القنابل والقصف الشديد واللاجئين إلى أمن المناطق الريفية فقدكانوا لا يكفون عن تهديدهم بتبليغ الألمان عنهم وعن بنى جلدتهم الهاربين من

معسكرات العمل. وذات يوم اوقف عدد من اللصوص و قطاع الطرق عم اموسى الذى كان يسير مع صديق له فى الطريق وطلبوا منهما تسليم كل ما لديهما من نقود بالاضافة إلى تسليم ملابسهما. واضطر الرجلان إلى الخضوع والامتثال وذهبا إلى منزلهما عاريين.. وفيما بعد وفى ذات الليلة اقتحم نفس اللصوص بيت يهودى آخر فى القرية وطلبوا من قاطنيها تسليم مدخراتهم. غير أن كمية هذه المدخرات لم ترق لهم فاذا باحد هؤلاء اللصوص العرب يمسك بطفل هذا الرجل الذى لا يزيد عمره على عام واحد ويلقى به على شجرة صبار خارج المنزل فمات هذا الرضيع شر ميتة من شوك الصبار.. روى أموسى شوفان هذه القصة عام ٢٠٠٣ وكان والد الطفل حتى هذا العام لايزال يعيش فى بيرشيبا فى منطقة جنوب النقب فى اسرائيل ولكنه ظل صامتا على همه وكاتما لغمه لمدة عقود.

كانت هناك قبائل وعشائر تونسية تتمتع بالسطوة و النفوذ وضعت نفسها فى خدمة الألمان بدون اية حدود أو تحفظات مثل قبيلة جويلاتى عقبى التى وضعت الفندق الذى تملكه تحت تصرف السلطات الألمانية. وقد تحالف بعض العرب مع القوات النازية والتصقوا بها التصاقا شديدا لدرجة انهم رافقوا الألمان المتقهقرين ورحلوا معهم إلى اوربا.

ومن بينهم رشيد ادريس زعيم الشبان المسلمين المناصرين للنازية وتاجر اسمه حمادى بوجمعة الذى جنى مكاسب طائلة بسبب علاقاته الوطيدة بقوات الاحتلال النازى لدرجة مكنته من افتتاح محل فى سويسرا. وايضا يعتبر شيخ قرية اولاد أكريم احد الذين توطدت علاقتهم بقوات المحور لدرجة انه حاول الهرب إلى الجانب الألمانى عندما وجد نفسه محاصرا خلف خطوط الجيش البريطانى. وعندما غادر الألمان مدينة قابس رحل معهم عربيان هما محافظ الاقليم والقاضى المحلى التونسيين.

وبعد تقهقر الجيش الألمانى وانهيار حكومة فيشى فى تونس قام

نظام فرنسا الحرة بتطهير وطرد عشرات الموظفين العاملين والشرطة المتعاونين مع النظام النازى. وكان من بينهم عدد كبير من العرب. كان العرب فى كثيرمن الاحيان متهمين بارتكاب اعمال النهب والسلب. وقد تصدت حكومة فرنسا الحرة فى تونس للوطنيين التونسيين بضراوة لا تقل عن ضراوة حكومة فيشى فى قمعهم. وبعد تحرير تونس من ايدى الألمان اعدت حكومة فرنسا الحرة قائمة باسماء ثلاثة وثلاثين عربيا بلغ عدد المتهمين فيهم بالانخراط فى انشطة معادية لفرنسا فى خلال فترة الاحتلال النازى ثمانية من حاشية باى تونس.

بالاضافة إلى عدد من الذين ينفثون سموم دعايتهم ضد الحلفاء. وعلى اية حال لم تشتمل هذه المجموعة إلا على تونسى واحد وجهت اليه تهمة الانخراط فى نشاط معاد للسامية. وهناك قائمة اخرى تتضمن ٢٠٦ أعراب تمت محاكمتهم وصدرت ضدهم احكام بسبب ما اقترفوه من افعال خلال الاحتلال النازى. وتتكون هذه المجموعة من سبعة متهمين حكم عليهم بالاعدام واربعة وعشرين متهماً حكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة. وكان بعضهم قد تطوع لخدمة القوات الألمانية فى حين قام بعضهم بتزويد الألمان بالمعلومات والمؤن وقد وجهت إلى اغلبيتهم تهمة السطو على البيوت المهجورة. ورغم ان معظم اصحاب هذه البيوت كانوا من اليهود فان الملف لا يذكر هذا مطلقا. وفى الحالات النادرة التى اشار اليها الملف اليهودى لم يكن المذنبون يقدمون دائما إلى المحاكمة. وكان العربى الوحيد الذى اشار الملف إلى اتيانه بافعال معادية للسامية رجل اسمه عزوز بن مصطفى الحاج على الملقب بعزوز الغونزالى الذى قام بتعريف احد الجنود الألمان بيت يهودى فى المرسى حتى يتمكن هذا الألمانى من اغتصاب امرأة يهودية. ورغم جسامة هذه الجريمة فان الملف لا يشير مطلقا إلى القاء القبض على العربى الذى ساعد الألمانى على ارتكاب جريمته الشنعاء.

يقول ساتلوف انه فى كل ابحاثه لم يعثر إلا على حالة عربى واحد ألقى القبض عليه وقدم إلى المحاكمة وزج به فى السجن بسبب تعاونه مع القوات الاجنبية فى اضطهاد اليهود. ويضيف المؤلف انه ربما توجد حالات اخرى لعرب قدموا إلى المحاكمة بتهمة الاشتراك فى اضطهاد اليهود.

ولكن هذه الحالات لم ينكشف النقاب عنها بعد فهى لاتزال حبيسة الارشيفات الخاصة بالمحاكم العسكرية الفرنسية التى لا يمكن اذاعتها قبل مرور مائة عام ولعل بعضها قد اندثر بمرور الوقت.

ويعود المؤلف إلى فردريك جاسكيه الذى يعيش فى باريس وهو حفيد جوزيف شملا الذى قام النازيون باعدامه نتيجة وشاية حسن فرجانى به والذى ورد ذكره فى مطلع هذا الكتاب و يؤكد جاسكيه انه لا يفكر مطلقا فى الانتقام للكوارث التى جلبها حسن فرجانى على عائلته و انه طوى هذه الصفحة السوداء من حياته التى لم تتكشف له إلا فى اخريات ايامه.

وبعد ظهر يوم شديد القيظ فى مايو ٢٠٠٤ قابل ساتلوف مصطفى الفرجانى ابن محمد اخ حسن الفرجانى الاكبر. كان مصطفى فى الثامنة والستين من عمره عندما التقى به ساتلوف الذى عرف عنه انخراطه فى العمل السياسى ضد الاحتلال الفرنسى وتم الزج به فى السجن عام ١٩٥٤ بسبب نشاطه السياسى. وبعد ان حصلت تونس على استقلالها التحق مصطفى بوزارة الثقافية التونسية لمدة واحد وثلاثين عاما قضاها فى ادارة شئون المكتبات والقاء المحاضرات وتنظيم الاحتفالات.

وكان ساتلوف ينوى مقابلته فى مدينة الحامة. ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب سفره إلى تونس العاصمة للاحتفال بعيد ميلاد حفيده الجديد. ولكن البروفيسور حبيب كازاغلى الاستاذ بالجامعة التونسية فى مانوبا استطاع ترتيب لقاء بينهما.

حضر مصطفى لمقابلة ساتلوف فى مقهى صغير. ورغم توتره

فقد بدا مؤدبا ومهذبا ورقيق الحاشية. قال ان عمه حسن فرجانى من مواليد ١٩٠٧ وهو الابن الثالث فى عائلة فرجانى فى مدينة الحامة واضاف ان عمه تزوج ولكنه لم ينجب ذرية الامر الذى جعله وزوجته يتبنيان طفلة فيما بعد كما انه كان يملك محلا صغيرا لبيع الاقمشة فى مدينة الحامة. وسأل ساتلوف مصطفى اذا كان عمه حسن يعمل مخبرا لحساب الألمان.. فحاول الرجل التنصل من الاجابة. ولكنه رد اخيرا بان حكاية عمه مع عائلة شملا اليهودية لها وجهان اولهما ان هذه العائلة صادفها سوء الحظ الذى جعل الألمان يوقفون العربة التى كانت تختبئ فيها وثانيهما ان حسن فرجانى كان عميلا للألمان ورجلا ماكرا نصب الشباك للايقاع بعائلة شملا وذكر مصطفى انه يميل إلى الاعتقاد الاول ويستبعد التفسير الثانى.

ثم بدأ الحماس يدب فى حديث مصطفى الذى قال انه يعتقد ان جلبرت ابن شملا الضابط السابق فى الجيش الفرنسى كان يتجسس لحساب الحلفاء. واضاف ان فرنسيا فى الحامة من انصار حكومة فيشى حذر عمه حسن فرجانى من التعامل مع عائلة شملا التى جاءت إلى الحامة وهى تضمر شرا وايضا حذر هذا النصير حكومة فيشى من ان يكون الجاسوس جلبرت قد كلف باعطاء اشارات إلى قاذفات قنابل الحلفاء لقصف اهداف المحور. واستطرد مصطفى قائلا انه اذا كان عمه حسن قد تآمر مع الألمان للايقاع بعائلة شملا فى المصيدة فان هذا لا يرجع إلى كون هذه العائلة يهودية بل يرجع إلى انها عائلة خائنة تخلت عن تونس وطنها واظهرت ولاءها لنفس الجمهورية الفرنسية التى ما فتئت تقمع المناضلين التونسيين من اجل حصول بلادهم على الاستقلال. وكان مصطفى قبل ذلك قد شن هجوما عاتيا على المحكمة التونسية التى حكمت على عمه بالاعدام قائلا ان هذه المحكمة كانت مليئة بالانجليز واليهود والفرنسيين. وهكذا صور مصطفى عمه بانه بطل قومى يناضل من أجل نصرة تونس واستقلالها.

وذكر مصطفى ان محاكمة عمه ألقت بظلالها القاتمة على عائلته وطاردتها كما لو كانت شبحا. ولهذا لم يكن فى مقدور هذه العائلة ان تنعم بالسعادة أو راحة البال التى ينعم بها الاخرون فهم فى العطلات يزورون هذا العم فى سجنه حاملين إليه بعض الورود. وعندما واجه ساتلوف مصطفى بالنتائج الوخيمة لمؤامرة عمه التى ادت إلى اعدام ثلاثة اشخاص اضطر هذا التونسى إلى الاعتراف بان اثنين منهم «الاب وأحد إبنيه» كانا بريئين وماتا ظلما.

ذهب مصطفى إلى ان عمه حسن فرجانى كان مظلوما واضاف انه لم يلمح عمه قط يعبر عن ندمه لما حدث لعائلة شملا. وعندما نقل ساتلوف حديث مصطفى إلى فردريك جاسكيه فى باريس تعجب جاسكيه كيف تبلغ وحشية حسن فرجانى إلى حد التسبب فى اعدام ثلاثة اشخاص مؤكدا انه لو عنّ لمصطفى ان يعبر عن اسفه لما حدث وطلب منه الصفح لما تردد فى العفو عنه.

يقول ساتلوف انه يستحيل عليه احصاء عدد العرب الاشرار الذين تعاونوا مع النازيين فى اضطهاد اليهود ولكنه يستطيع أن يجزم بوجود اكثر من مائة معسكر نازى للعمل منتشرة فى شمال افريقيا من مراكش إلى ليبيا وان آلاف العرب كانوا يتولون حراسة اليهود النزلاء فيها. فضلا عن ان الشرطة والكتبة وصغار الموظفين العرب سهلوا على النازيين والفاشيين وحكومة فيشى التنكيل بهم. وبالاضافة إلى هؤلاء كان هناك عرب يقدمون الدعم الاخلاقى لهم فى حملاتهم ضد اليهود.. ناهيك عن الدهماء والغوغاء الذين كانوا يقذفونهم بالزجاجات ويقومون بتحية المنكلين بهم والتصفيق لهم.

والرأى عند ساتلوف ان تسعين فى المائة من العرب ممن لم يلحقوا الضرر المباشر باليهود كانوا لا يكترثون بمصيرهم الامر الذى يعنى ان مليونى جزائرى ومراكشى وتونسى وليبى اشتركوا اشتراكا مباشرافى استهداف اليهود أو تعاطفوا مع هذا الاستهداف. ويذهب ساتلوف إلى ان هذا الموقف غير المكترث

بمحنة اليهود والمتعاطف مع جلاديهم زاد من عذاب اليهود الذى كان يمكن ان يقل لو تحلى العرب عن عدائهم لهم. ولا يمكن للعرب الادعاد بانهم كانوا يجهلون ما يلاقيه اليهود من خسف وضيم. فمثل هذا الادعاء لا يعدو ان يكون مجرد هراء حيث ان اضطهاد اليهود كان يقع تحت بصرهم وسمعهم.

والجدير بالذكر ان ترسانة القوانين المحلية المناهضة لليهود كانت ممهورة بتوقيع الحكام العرب فى كل من مراكش وتونس اما حكومة فيشى ذاتها فكانت لا تخفى القوانين التى اصدرتها بشأن اليهود حيث انها نشرتها على الملأ فى الصحف الرسمية. وايضا برفض ساتلوف اعطاء العذر للحكام العرب بانهم كانوا مرغمين من قبل قوات الاحتلال النازى والفاشى على اصدارها.

وفى تونس العاصمة درج الألمان على تعليق الاعلانات التى تتهم اليهود بالمسئولية عن الغارات التى شنها الحلفاء على المواقع الالمانية فى شمال افريقيا الامر الذى جعلهم يفرضون على يهود تونس دفع تعويض باهظ مقداره عشرون مليون فرنك بهدف توزيعها على الجمعيات الخيرية العربية.

كان اليهود يتجمعون فى قلب تونس العاصمة لالحاقهم بمعسكرات العمل وفى مواقع مثل محطة قطارات ماستير على بعد مئات الياردات من فندق ماجستيك الذى اختاره الجيش الالمانى ليكون مركزا للقيادة. فى الريف التونسى كان الاهالى يرون آلاف اليهود لابسين الشارة الصفراء التى تميزهم ومن ثم لا يمكن للعرب الزعم بانهم كانوا لا يعرفون ما يجرى لبنى اسرائيل.

والجدير بالذكر ان ساتلوف هنا يفكر بعقلية غربية واوربية ترى انه يمكن لاى شعب ان يمارس ضغطا على حكامه أو لا يعرف تركيبة الشعوب العربية الخانعة للسلطة الحاكمة مهما كانت هذه السلطة.

وفى الجزائر اشترك العرب مع الفرنسيين المعادين للسامية فى تحديد نسبة الطلاب المسموح لهم بالالتحاق بالمدارس ودور العلم.

وفى مراكش تولى العرب والاوربيون الاستيلاء على وظائف اليهود بعد طردهم منها نتيجة تطبيق قوانين حكومة فيشى المعادية للسامية.

كان العرب فى فترة الحرب العالمية الثانية فى كل من تونس العاصمة والدار البيضاء والجزائر وفى مئات الاماكن الاخرى يعلمون ما يحدث لليهود. ولكن ساتلوف يعترف بان اوضاع شمال افريقيا كانت اشد ما تكون اضطرابا وتعقيدا.

فالعرب الذين شاهدوا فرنسا منقسمة على ذاتها لم يكن يعرفون اذا ما كانت مؤازرة حكومة فيشى أو حكومة فرنسا الحرب «الجمهورية الفرنسية» فى صالحهم ام لا. وانتهز الألمان هذه الرؤية الضبابية فى اتباع سياسة فرق تسد ودق الاسافين بين العرب وفرنسا وبين العرب واليهود. الامر الذى حدا ببعض العرب إلى مساندة النازيين والفاشيين وحكومة فيشى فى اضطهادهم لليهود. صحيح ان السواد الاعظم من العرب لم يساهموا فى اضطهاد اليهود بطريقة مباشرة ولكنهم كانوا على اقل تقدير على علم بهذا الاضطهاد وبذلك يكونون قد سهلوا على النازيين إلحاق الضيم بهم.

الفصل السابع

ساتلوف يبدأ في الدفاع عن العرب

يلاحظ ان ساتلوف نذر النصف الأول من كتابه للهجوم على عرب شمال افريقيا واتهامهمْ بالاشتراك مع النازيين والفاشيين فى اضطهاد اليهود.

لكن ساتلوف يقول فى النصف الثانى من كتابه ان معدن العربى الاصيل ظهر لليهود فى وقت شدتهم. فهم لا ينسون قط شهامتهم ونبل أخلاقهم. واستطرد المؤلف قائلا انه نشر رسالة عبر الانترنت يطلب فيها من اليهود الذين عاشوا يوما ما فى شمال افريقيا موافاته بأية شهامة عربية وأى حسن صنيع اظهره العرب لليهود فى ايام ضائقتهم فى فترة الحرب العالمية. فردت عليه يهودية تونسية تدعى ميريلا حسن قائلة:

«عندما كنت طفلة صغيرة اخبرنى والدى بالصعوبات التى واجهناها فى تلك الفترة للبقاء على قيد الحياة. كما اخبرنى فوق كل شئ عن المساعدات التى قدمها الينا جيراننا المسلمون فيما يتعلق بتوفير الطعام واللبن لنا لانه كانت لى اختان صغيرتان للغاية فاضت روحاهما خلال الحرب نتيجة سوء التغذية.

فقد اعتاد ابى ان يجد فى البحث عن لبن الماعز فى الليل اثناء القصف بالقنابل عند بعض رعاة الغنم المحليين. وحضرت ممرضة مسلمة لمساعدة امى فى تمريض اختى. هذا كل ما اذكره ولكنى

لست اذكر اسم المسلمين والمسلمات التونسيات الذين قدموا الينا ما استطاعوا من مساعدة بروح الصداقة الصافية والخالية من الأثرة والأنانية الامر الذى انقذ ارواح اليهود. وهذه هى شهادتى».

وايضا قال اليهودى دافيد جويز الذى أمضى فترة الحرب فى مدينة صفاقس التونسية ان موقف العرب من اليهود آنذاك كان مثلا يحتذى . ثم استطرد قائلا: «الحق ان سلوكهم كان رائعا. فلن انسى ذلك العربى الذى ساعدنى وسمح لى بالحصول على رغيف خبز زائد عن جراية كل يوم رغم صعوبة الحصول على الخبز وضرورة الوقوف فى طابور كان الفران العربى يعطينى رغيفا زائدا. وكان هذا شيئا عظيما».

وايضا روى اليهودى إبراهام كوهين قصة فرار عائلته من قصف قوات الحلفاء لمدينة طرابلس حيث وفر لهم العرب المأوى اللازم لها وساعدوها فى استئجار شقة. يقول ابراهام كوهين فى هذا الشأن: «لقد رحب العرب بنا بطريقة غير عادية. ولابد من الكشف عن الحقيقة لقد استقبلونا واعطونا المال والطعام وجميع الاشياء التى تنقصنا. بكل بساطة، سمحوا لنا بان نشاركهم معيشتهم واصبحنا نملك ما يملكون كما اصبحوا يملكون ما نملك».

وفيما يلى ما يقوله ازرا يوسف من مدينة طرابلس: «تعرضت المدينة كل ليلة للقصف، ولهذا هربنا إلى الحقول واسكننا العرب فى بيوتهم لقاء المال بطبيعة الحال. كنا ندفع لهم المال. ولهذا تركوا لنا بيوتهم وناموا خارجها فى الخيام التى اقاموها. ولكن العلاقة بيننا وبينهم كانت دائما على ما يرام».

ويروى لنا اميل طوبيانا الذى كتب مذكرات غير منشورة عن طفولته فى مدينة بيجا التونسية التى كانت مسرحا لأعنف انواع القتال فى فترة الحرب العالمية الثانية وعن هروب عائلته من المعارك المحتدمة إلى الريف: «وصلنا قرب الظهر إلى مزرعة تزر التى تحولت إلى مجمع سكنى يحتوى على ثلاثين عائلة. واستقبلنا

العرب استقبالا حاراً بالاحضان والقبل وخصص لنا صاحب المزرعة اصطبلا كى ننام فيه واعطانا ملء عربة من الحشائش كى نرقد عليها. وحاول كل منهم اشعارنا بأننا اصحاب بيت. فضلا عن انهم قدموا لنا بعد رحلتنا المنهكة حساء دسما بعث فينا الدفء واخيرا شعرنا بالأمان والسعادة».

ويميز اليهودى التونسى فيكتور كوهين بين العداوة التى اظهرها العرب نحو اليهود فى العاصمة تونس وبين الترحيب بهم بالاقاليم والارياف.. يقول فيكتور كوهين فى هذا الشأن: «قام العرب فى الجنوب بمساعدة اليهود وايوائهم فى بيوتهم المقامة فى الجبال. وفى عائلتى هناك اعمام لى قام العرب بايوائهم فى بيوتهم واعطوهم الطعام الذى تبيحه الديانة اليهودية. ولكن الامر كان مغايرا فى المدن حيث سبب العرب لليهود العديد من المشاكل».

وبادر بعض العرب بحماية ممتلكات اليهود سواء كانوا يهودا أوربيين أو يهودا عربا من اعمال القرصنة والعدوان. ويذكر ياكوف زريفى الذى كان يعيش فى مدينة صغيرة بالقرب من صفاقس كيف أن الألمان والعرب المتعاونين معهم بثوا الرعب فى نفوس اليهود. ولكنه اضاف ان العرب احتفظوا بأموال اليهود واخفوها لصالحهم حتى لا يمسهم احد بسوء.

وهناك عرب ذهبوا إلى ابعد من ذلك فقد هبوا لانقاذ ارواح بعض اليهود. يقول تزفى حداد الذى سبق ان ذكرنا ان عربيا طعن امه بسكين فى رقبتها اثناء مجزرة اليهود فى قابس.. ذكر ان عربيا آخر اشمئز من هذا الاعتداء الوحشى عليها فتقدم لانقاذها من الموت بعد مضى لحظات من الاعتداء عليها. يقول تزفى حداد: «ولكن من انقذها؟ انقذها عربى آخر وانى اذكر اسمه وهيئته. جاء راكبا دراجة قادما من موقع الحادث. وعندما رآنى سألنى: «هل انت ابن الحبر يهوشوا؟» فقلت له: «نعم». وبدأ يصرخ فى ذلك العربى الذى هاجم امى وضربه على يده ففر هذا المعتدى هاربا».

وعندما زار ساتلوف تونس برفقة استاذ يدعى أندريه أريتول فى شهر مايو ٢٠٠٤ اخبره هذا الاستاذ حكاية مثيرة للغاية حدثت لاحد اقارب زوجته - وهو رجل ثرى اسمه ألبرت بيسيسى قدر له قضاء جانب كبير من فترة الاحتلال النازى لشمال افريقيا فاختبأ فى قبو بيته الانيق فى باريس.. ولولا مساعدة احد العرب له لاكتشف النازيون امره وقاموا بالقضاء عليه. فقد عن للقوات النازية ان تستولى على بيت هذا الثرى الانيق لاستخدامه فى ادارة بعض الشئون العسكرية.

وعاش النازيون فى هذا البيت دون ان يعلموا شيئا عن اختفاء صاحبه فى القبو. وكان النازيون يستعينون بسائق عربى اسمه قدورة فى احضار البوسطة والطرود الخاصة بالألمان النزلاء فى هذا البيت الفخيم. وكان المراسل قدورة يغافلهم ويقوم بتهريب طرد من الطعام إلى ألبرت، الامر الذى مكنه من البقاء على قيد الحياة حتى انتهاء الاحتلال النازى لباريس.

ويعبر اليهودى فيكتور كاناف المولود فى ليبيا عن رأى يمس شغاف القلب من فرط بساطته. كان هذا الرجل معروفا فى بنى غازى باسم فيتوريو هاتشى. يقول هذا الرجل ان العلاقة بين العرب واليهود كانت سمنا على عسل.

وايضا هناك شواهد تدل على ان بعض حراس المعسكرات من العرب رفضوا مسايرة المشرفين عليها من الاوربيين والعرب فى رغبتهم السادية فى تعذيب اليهود بل كانوا يقومون سرا بالتخفيف عن ضحاياهم.

فهناك على سبيل المثال قصة يهودا شاشمون اليهودى الليبى المسجون فى معسكر جيادو الايطالى الواقع جنوب طرابلس فى مكان قفر و موحش. ولم يشتهر هذا المعسكر بسوء معاملة نزلائه فحسب بل بتفشى الامراض فيه كذلك. كان معسكر جيادو يكتظ بنحو ٢٦٠٠ يهودى مات منهم ٥٦٢ فى أقل من عام بمرض التيفوس. وكانت نسبة الوفيات فى معسكر جيادو الاعلى فى جميع

معسكرات العمل فى دول شمال افريقيا. ويعترف شاشمون ان الحراس الايطاليين كانوايعاملون اليهود بوحشية فى حين ان موقف العرب الخاضعين لسيطرتهم من اليهود كان ممتازا.

ورغم وصف اليهود البولنديين للمعاملة الوحشية التى تلقاها السجناء اليهود فى معسكرات حكومة فيشى للاعتقال فهناك اشارات إلى بعض الاعمال الإنسانية التى قدمها بعض الحراس العرب اليهم.

وفى وصف خلفية معسكر العمل الشبيه بالجحيم.. والمعروف باسم عين الاوراق الواقع خارج مدينة ابوعرفة جنوب مراكش المشهورة بمناجمها لاحظ السجناء ان طقم الحراسة المكون من ثلاثين حارسا والمكلفين بحراسة المعسكر تحت اشراف شاويش فرنسى يتغير شهريا لان الحراس العرب اظهروا تعاطفا مع سجنائهم الامر الذى خفف من قتامة حياتهم فى هذا المعسكر.

يقول قائل فى هذا الصدد: «ذات مرة عندما كان القيظ على اشده، ظل السجناء محرومين من الماء طوال الليل. فأضرب السجناء عن العمل وذهبوا إلى الضابط المسئول عن المعسكر الملازم جرونتر ـ وهو ألمانى تجنس بالجنسية الفرنسية ـ وطلبوا منه تزويدهم بالماء.

ولكنه رفض وامرهم باستئناف العمل. وعندما رفضوا ان يتفرقوا امر الحراس باطلاق الرصاص عليهم. ولكن الحراس العرب تعمدوا اطلاق النار فى الهواء بعيدا عن السجناء. ولكن اثنين من الحراس الفرنسيين اصابا اثنين منهم بجروح. وظل اليهود يذكرون للعرب هذا المعروف وابلغوا القوات البريطانية به».

وعندما شعر الألمان بقرب انتصار الحلفاء عليهم وان الجالية اليهودية المنهكة فى شمال افريقيا لم تعد قادرة على تلبية مطالبهم بدأوا يجندون العمالة العربية. وهكذا لقى بعض العرب نفس المصير المظلم الذى لقيه اليهود على ايدى النازيين الذين ارسلوا عربا من مراكش والجزائر للعمل فى معسكرات الاعتقال الواقعة

فى قلب الصحراء.

بالاضافة إلى الزج باليهود المناهضين لحكومة فيشى فيها وكان نجاح القوات الأنجلو - أمريكية فى غزو تونس سببا فى الزج بالعرب فى معسكرات العمل وكأنهم مسئولون عن اندحار القوات النازية.

ويرسم السجين اليهودى فى معسكرات الاعتقال جاكوب اندريه جويز صورة اكثر تعقيدا لموقف العرب من يهود شمال افريقيا فبعضهم لا يتورعون عن استغلالهم والاساءة اليهم فى حين ان البعض الاخر يقدم إليهم العون والمساعدة. يحدثنا جاكوب اندريه جويز عن هذين النقيضين فيقول ان عنف بعض العرب واساءتهم لليهود لا تمنع من ان بعضا منهم فى مناسبتين على اقل تقدير ساعدوه على الهرب من بنزرت والعودة إلى تونس العاصمة. ولكن الصورة العامة التى يرسمها جويز للعرب تفيد بانهم اكثر رحمة وانسانية من الألمان وحلفائهم. ويختتم جويز حكايته بان الفضل فى عودته إلى بلده يرجع إلى سائق عربى قام باخفائه وسط اجولة البن الذى يباع فى السوق السوداء.

وفى بعض الاحيان ارتفعت روح السجناء اليهود المعنوية بسبب الصداقات التى نشأت بينهم وبين بنى جلدتهم فى معسكرات حكومة فيشى للعمل. وفى المعسكر المعروف باسم شيراجاس. ميريدجا فى صحراء الجزائر قامت حكومة فيشى بنفى آلاف اليهود الذين انضموا إلى الجيش الفرنسى قبل انهياره امام الجيش النازى اى ان اليهود كانوا سعداء بان يضحوا بحياتهم لمحاربة الألمان. وكان هذا المعسكر يضم سجناء عربيا من المناضلين ضد استعمار فرنسا لبلادهم.

وفى هذا المعسكر سعى قائده الكابتن سوشت ماوسعه السعى للوقيعة بين اليهود والعرب. ولكنه فشل لان كراهية العرب واليهود للحكم الفاشى كانت اعظم من العداوة المتبادلة بينهم.

وفى معسكر دجنيين بورزق الواقع فى صحراء الجزائر تعرض

جميع سجنائه من اليهود والعرب والمناضلين ضد حكومة فيشى الفاشية لنفس القدر من التعذيب وسوء المعاملة على يد قائده السادى الملازم بييرو دى ريكو فهم جميعا يشتركون فى اداء نفس العمل الشاق من تناول نفس الطعام السيئ وفى الخضوع لنفس النظام القاسى. ونحن نشاهد نفس الشئ فى معسكر دجلفا الذى يأوى عربا وجمهوريين اسبان إلى جانب اليهود وغيرهم من السجناء.

ويروى لنا رجل اعمال تشيكى قدر له النجاة بحياته من هذا المعسكر بعد قضاء ثمانية اشهر فيه اسماء كثيرين من السجناء الذين اجهز عليهم قائد المعسكر ج. كابوش ومن بينهم عربى جزائرى يدعى قدورة بلكين.

ومما يؤسف ان هذا الجانب من التاريخ الاسود للنازية والفاشية وضحاياهما فى شمال افريقيا غير معروف. وتجاهل هذا الامر يؤدى إلى انكار الهولوكست والجرائم التى ارتكبها النازيون فى شمال افريقيا فضلا عن انه يعنى ان الهولوكست لم يصل هناك. فضلا عن ان تجاهل هذا التاريخ الاسود أو عدم المعرفة به من شأنه ان يطمس حقيقة تاريخية مهمة وهى ان بعض العرب شاركوا اليهود محنتهم ومصيرهم الحالك إبان احتلال المانيا للبلاد الواقعة فى شمال افريقيا.

لقد شاهدت الجزائر تضامنا عظيما بين العرب واليهود. وكان للجزائر وضع خاص فهى ليست بالمستعمرة أو بالمحمية الفرنسية بل كانت جزءا لا يتجزأ من الاراضى الفرنسية. وفى نظر القانون الفرنسى كانت الجزائر فرنسية تماما مثل نيس ومارسيليا وبوردو. ورغم ان الاراضى الجزائرية كانت فرنسية فإن سكانها من المسلمين واليهود لم يعتبروا فرنسيين ولم يتمتعوا بحقوق المواطنة الفرنسية رغم فرض الضرائب وغيرها من الالتزامات عليهم.

وقد ترك الفرنسيون لهم ادارة شئونهم بانفسهم طبقا لشرائعهم الدينية وقوانينهم العشائرية.

وفى عام ١٨٧٠ تغير هذا الوضع بالنسبة لليهود بعد صدور مرسوم كريميه الذى منح المواطنة الفرنسية لجميع اليهود المولودين فى الجزائر طالما ابدوا استعدادا لتطبيق القانون الفرنسى عليهم. وكان هذا المرسوم بمثابة نعمة من الله هبطت عليهم من السماء. رحبت آلاف العائلات اليهودية بهذه المواطنة الفرنسية ترحيبا عظيما. غير ان الفرنسيين المعادين للسامية رفضوا مرسوم كريمييه وطالبوا بالغائه خاصة بعد قضية دريفرس الشهيرة. وكان الفرنسيون الذين يستعمرون الجزائر من اشد الناس معارضة لهذا المرسوم المتحرر لانهم رأوا انه سيفتح الباب على مصراعيه امام اليهود الاشرار لينعموا بالعيش فى فرنسا ومستعمراتها كما انه يمثل سابقة خطيرة يمكن فى المستقبل ان تسرى على المسلمين.

ولهذا لم يكن غريبا ان يبادر المارشال بيتان فور تأسيسه حكومة فيشى بالغائه. ولم تكتف حكومة بيتان بذلك بل ذهبت إلى ماهو ابعد منه اذ انها قامت باسقاط المواطنة الفرنسية عن جميع اليهود وذريتهم ممن سبق لهم اكتسابها. وقامت حكومة فيشى بنزع الجنسية الفرنسية عن ٩٨,٥٪ من اليهود الجزائريين الحاصلين على هذه الجنسية البالغ عددهم ١٠٦٩٨٦ عشية استسلام فرنسا امام ألمانيا عام ١٩٤٠ وبذلك تكون حكومة فيشى قد حذت حذو النظام النازى فى تجريد اليهود من حق المواطنة بشكل قانونى ومنظم.

لم يكن دافع حكومة فيشى إلى اسقاط المواطنة الفرنسية عن اليهود ارضاء المستعمرين الفرنسيين فى الجزائر فقط . فقد سعت هذه الحكومة ايضا إلى استرداد شئ من هيبتها الضائعة امام الجزائريين بسبب انهيار الجيش الفرنسى السريع والمذل فى مواجهة القوات النازية.

ومن جانبه اراد النظام النازى التقرب من العرب باطلاق سراح مئات السجناء العرب من السجون الفرنسيةممن كانوا يقدمون

الخـدمـات لبنى جلدتهم فى المســاجـد والصـحف العـربيـة ومن التسعين الف جندى عربى ممن قام الجيش الفرنسى باحتجازهم فى اوربا كسجناء حرب. فضلا عن ان الألمان اقاموا محطات اذاعة عربية تبث باللهجات المحلية، الامر الذى زاد من مخاوف حكومة فيشى من تعاظم النفوذ النازى. ولهذا سعت حكومة فيشى إلى كسب تأييد العرب لهم ليس بمنحهم المزيد من الحقوق المدنية ولكن بحرمان اليهود من هذه الحقوق.

ولكن هذه السياسة اختفت فلم تستطع حكومة فيشى كسب العرب إلى جانبها باتباع هذه السياسة اللئيمة والملتوية التى اكتشفها الجزائريون على حقيقتها بمضى الوقت. ولهذا رفضوا الاستجابة لها والانخداع بها وقد علق الزعيم فرحات عباس على هذه السياسة الفرنسية الملتوية بقوله مخاطبا حكومة فيشى: «انكم تتبعون سياستكم العنصرية فى كل اتجاه». ثم اردف قائلا:«انتم اليوم تناهضون اليهود كما انكم تناهضون العرب على الدوام». وايضا علق مسالى حاج رئيس حزب الشعب الجزائرى على الغاء مرسوم كريمييه بقوله:« هذا لا يمكن اعتباره تقدما للشعب الجزائرى. فحرمان اليهود من حقوقهم لا يزيد حقوق المسلمين».

والجدير بالذكر ان المؤسسة الإسلامية فى الجزائر اظهرت تعاطفا واضحا مع اليهود الذين اضطهدتهم حكومة فيشى. وتجلى هذا العطف فى موقف زعيم حزب الإصلاح البارز عبدالحميد بن باديس. كان هذا الزعيم الاصلاحى المرموق رجلا شديد التمسك بأهداف الدين. ورغم تدينه فقد اتسمت نظرته بالسماحة والانفتاح على العالم. ويعتبر نجاحه فى انشاء العصبة الجزائرية للمسلمين واليهود من اهم انجزاته العديدة. ومن المؤسف انه توفى فى ربيع عام ١٩٤٠ وهو عام هزيمة فرنسا الماحقة امام الألمان قبل ان يتمكن من التصدى لحكومة فيشى.

وبعد وفاة عبدالحميد بن باديس اضطلع بدوره المتعاطف مع اليهود فى فترة اضطهاد حكومة فيشى لهم زعيم اصلاحى آخر هو

الشـيخ طيب العـقـبى الذى سـار على نفس درب بن باديس الاصلاحى. كان طيب العقبى تربطه وشائج قوية باليهود الذين اغدقوا المنح والعطايا على الجمعيات الخيرية التابعةله. وظهر معدن العقبى الاصيل فى عام ١٩٤٢ فما ان سمع اشاعات بان زعماء جماعة فرنسية فاشية تسمى فيلق الفرنسيين المحاربين يحرضون الجنود المسلمين على الفتك بيهود الجزائر حتى تصدى لها و حال دون تحقيق مخططاتها . فقد حظر على المسلمين الهجوم على اليهود. وبسبب شهامته فى الدفاع عن اليهود شبهه احد المؤرخين باثنين من رؤساء الاساقفة الفرنسيين المناصرين لليهود هما رئيس اسقفية ساليج و رئيس اسقفية جيرلييه الذى شهد اليهودى ياد فاشيم بانه لعب دورا عظيما بارزا فى انقاذ بعض اليهود من الموت. بل ان هذا المؤرخ يرى ان دور هذا العربى فى انقاذ حياة بنى اسرائيل يفوق فى بطولته وشهامته الدور الذى لعبه هذان الكاثوليكيان لانه بدفاعه عن اليهود عرض نفسه للتهلكة.

ومن فوق منابر المساجد الجزائرية اصدر الأئمة تعليماتهم إلى المسلمين المحليين بالامتناع عن استغلال محنة اليهود للحصول على مكاسب مالية.

اى ان موقف هؤلاء الأئمة كان اكثر نبلا وشهامة من المستعمرين الفرنسيين للجزائر الذين لم يتورعوا عن ابتزاز اليهود فى محنتهم. وقد ألزمت حكومة فيشى اليهود بتسليم ممتلكاتهم واموالهم إلى الحراسة كى تتولى ادارتها نيابة عنهم. وبطبيعة الحال لم يتورع هؤلاء الحراس من نهبها. وكانت حكومة فيشى فى العادة تعهد بحراسة املاك واموال اليهود إلى الموالين لها كرشاوى نظير مؤازرتها. يقول ساتلوف فى ثنائه على عرب الجزائر ان احدا منهم لم يقبل القيام بهذه المهمة. وفى خطبة احد ايام الجمع فى عام ١٩٤١ حذر أئمة المساجد المصلين المسلمين من قبول العمل كحراس على ممتلكات واموال اليهود. بل انهم حذروهم من شراء

ممتلكات اليهود التى تباع بسعر زهيد فى الاسواق والمزادات رغم ان العرب إبان الحرب العالمية الثانية كانوا يعانون من الحياة القاسية الشاقة.

وبعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها أدلى جوزيه أبوكلر البطل البارز فى حركة المقاومة اليهودية فى الجزائر بحديث صحفى امتدح فيه الجزائريين للدور المشرف الذى قاموا به ابان هذه الحرب.. قال:

«ان العرب لم يشتركوا فى الحرب ضد حكومة فيشى فهى ليست حربهم ولكن موقفهم من اليهود كان مثاليا. وعبثا حاولت حكومة فيشى وعملاء الألمان دفعهم إلى التظاهر ضد اليهود والقضاء عليهم. وعند طرح البضائع اليهودية فى المزاد العلنى اصدرت المساجد تعليمات تقول «ان اخوتنا يكابرون العذاب فلا تستولوا على بضائعهم». فضلا عن ان عربيا واحدا لم يقبل ان يكون حارسا على ممتلكاتهم. فهل هناك دليل اعظم من ذلك على الكرامة الجماعية وعزة النفس التى تثير الاعجاب؟»

ويقول ساتلوف انه مما يؤسف له ان التاريخ لا يحتفظ باسماء العرب الذين احسنوا إلى اليهود. ولكن من حسن الحظ ان بعض اليهود المستفيدين من شهامة العرب يذكرون اسماء بعض العرب الذين هبوا لنجدتهم من المخاطر المحدقة بهم.

الفصل الثامن

العاهل المغربي محمد الخامس يحمي رعاياه من اليهود

يعتبر محمد الخامس سلطان مراكش - وهو الابن الثالث للسلطان مولاى يوسف - سليل العائلة العلوية التى حكمت مراكش منذ عام ١٦٣٩ - اشهر من شمل اليهود برعايته. وقع اختيار فرنسا على محمد المولود عام ١٩١٠ ليخلف والده حين كان فى السابعة عشرة اعتقادا خاطئا منها بأنه سوف يكون طوع بنائها.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأ السلطان محمد الخامس فى اظهار رغبته فى الاستقلال لدرجة ان مساندته للقضية الوطنية المراكشية اضحت شوكة تقض مضجع الاستعمار الفرنسى. ولهذا قامت فرنسا بنفيه إلى كل من كورسيكا ومدغشقر فى اوائل عقد الخمسينات غير ان سياسة البطش الفرنسية ساهمت فى اذكاء مشاعر المراكشيين القومية.. وفى نوفمبر ١٩٥٥ تخلى الفرنسيون عن هذه السياسة واعادوا العاهل محمد الخامس إلى سدة الحكم فى مراكش التى اسقبلته استقبال الفاتحين والابطال. وفى فبراير عام ١٩٥٦ وقع السلطان محمد الخامس اتفاقية مع فرنسا إعترفت فيها باستقلال مراكش.

ولكن وضع السلطان محمد الخامس فى فترة الحرب العالمية الثانية كان قلقا ومهتزا فهو يملك ولا يحكم. وبخلاف المنطقة

الاسبانية الصغيرة فى الشمال كانت القوات الفرنسية تسيطر على ارجاء البلاد. كما كانت التوصيات التى يتقدم بها الحاكم الفرنسى المقيم فى مراكش بمثابة اوامر يجب على محمد الخامس تنفيذها. ورغم ذلك كان فى مقدور السلطان محمد الخامس ممارسة شىء من الضغط على السلطات الفرنسية بوصفه بطلا قوميا فى نظر شعبه. واستغل هذا السلطان ولاء شعبه له لإنتزاع بعض المكاسب القومية من فرنسا وعلى الرغم من ان النخب العربية كانت متعاطفة مع الالمان فان محمد الخامس لم يشاركها هذا التعاطف. وهاله ان حكومة فيشى استنت قوانينها المعادية للسامية من منطلق عنصرى وعرقى.

حيث ان عقيدته الإسلامية رفضت تحديد هوية البشر على اساس عنصرى فالدين الإسلامى يرحب بدخول جميع الاعراق فيه ويتساويها مع المسلمين فى الحقوق والواجبات. اضف إلى ذلك انه اعتبر اليهود رعاياه الاوفياء.

وفى ٣١ أكتوبر ١٩٤٠ وبعد مرور وقت قصير على اصدار حكومة فيشى مرسومها المناهض للسامية. وجد محمد الخامس نفسه مضطرا إلى الموافقة على هذا المرسوم فوقعه على مضض وقبل تطبيقه على بلاده. ولكنه استطاع نظير هذا ان ينتزع من الفرنسيين تنازلين مهمين اولهما اعتراف فرنسا بضرورة تحديد هوية اليهودى المراكشى على اساس دينى وليس على اساس عرقى وثانيهما ان ترفع حكومة فيشى حظرها على اشتغال اليهود بالوظائف العامة وان ترفع القيود المفروضة على تعليم الطلبة اليهود فى المدارس ودور العلم. وتتمثل هذه القيود فى تحديد نسبة التلاميذ الملتحقين بالمدارس اليهودية الدينية وكذلك المدارس التابعة للجمعيات الخيرية. وكان هذا الاستثناء الثانى مهماً لليهود من الناحية العملية حيث انه ادى إلى عدم تدخل حكومة فيشى فى كثير من جوانب الحياة فى مجتمع اليهود المراكشيين. وهذا عكس ما حدث فى الجزائر حيث استطاعت حكومة فيشى ان تفرض

كثيرا من القيود الخانقة على المدارس اليهودية. بل ان دور العلم اليهودية فى مراكش حصلت على دعم يصل إلى ٨٠٪ من تكاليفها من ميزانية الدولة العامة.

والجدير بالذكر ان التنازل الاول كانت له اهمية رمزية تفوق اهميته العملية. ويمكن القول ان عدد اليهود الذين تحولوا إلى الدين الإسلامى لتجنب العقوبات والقيود التى فرضتها حكومة فيشى على ممتلكاتها ووظائفهم كان ضئيلا للغاية. وايضا كان رفض هذا السلطان للتمييز العرقى الذى استندت اليه حكومة فيشى فى سن قوانينها مدعاة لرضا كثير من اليهود.

قام السلطان محمد الخامس فى السر بتقديم دعم ادبى ومعنوى كبير ليهود مراكش .. فعندما امرت السلطات الفرنسية بحصر جميع الممتلكات اليهودية فى البلاد خشى اليهود ان يكون هذا مقدمة لمصادرتها. واراد السلطان محمد الخامس ان يطمئنهم فرتب فى السر لقاء مع زعماء اليهود الذين تسللوا إلى قصره مختبئين فى عربة مغطاة حتى لا يلفتوا انظار الفرنسيين المتلصصين اليهم. وقد صرح احدهم بأن السلطان وعد بحماية اليهود واكد لهم ان التعداد وحصر ممتلكاتهم لن يكون مقدمة للاستيلاء عليها. وبعد غزو القوات الأنجلو-أمريكية لمراكش اتفق السلطان معها على تدمير كل الوثائق الخاصة بهذا الحصر.

وزاد من تعلق اليهود بالسلطان محمد الخامس انه لم يكتف بالوقوف بجانبهم سرا بل جاهر بمناصرته لهم ففى خطبة العرش التى يلقيها العاهل المراكشى كل عام وفى حضور اعيان مراكش والمسئولين فى حكومة فيشى عبر عن ترحيبه بحضور زعماء الجالية اليهودية. قال: «يجب علىّ ان ابلغكم بأن بنى إسرائيل - كما كان الحال فى الماضى - سوف يبقون تحت حمايتى». تفوه السلطان بهذه الكلمات بصوت عال حتى يسمعه المسئولون فى حكومة فيشى وسمعه صحفى فرنسى يتفوه بعبارة ذات مغزى واضح ودلالة كبيرة تقول: «اننى ارفض التمييز بين رعاياى» فلا غرو اذا رأينا اليهود

يشيدون بالسلطان محمد الخامس ويعتبرونه منقذا لهم ومثالا يحتذى به للعدل والتسامح. ولا غرو ايضا اذا اعتبره اليهود اسطورة ونسجوا حوله قصصا من الخيال عن بطولته وشهامته.. ويأسف ساتلوف لعجز السلطان محمد الخامس عن ترجمة تعاطفه مع اليهود إلى واقع ملموس حيث ان حكومة فيشى استطاعت تنفيذ قوانينها المجحفة باليهود فى مراكش عن طريق عملاء لها فى البلاط الملكى وعلى رأسهم المقرى رئيس الوزراء المعروف بمعاداة السامية. ولكن عجزه عن مقاومة القوانين المعادية للسامية التى استنتها حكومة فيشى لم يمنع اليهود داخل مراكش وخارجها من حبه والاشادة به.

ويلى ذلك فى مرتبة العطف على اليهود حاكم تونس إبان الحرب العالمية الثانية احمد باشا وابن عمه منصف بك المنتسبين إلى اسرة الحسينيين. غير ان الاستعمار الفرنسى غلل ايادى حكام تونس تماما مثلما غلل يدى سلطان مراكش.

وعندما ارسلت حكومة فيشى مبعوثا إلى احمد باشا طالبة منه التوقيع على القوانين المعادية للسامية لم يكن بمقدوره غير الرضوخ والامتثال. وايضا اظهر حكام تونس نفس الرضوخ و الامتثال للاضطهاد الذى مارسته حكومة فيشى مع اليهود. ورغم هذا الرضوخ فقد عبر منصف بك بعد اعتلائه عرش تونس عن قلقه على حياة كل سكان مملكته.

غير ان حكام تونس تمكنوا فى بعض الحالات من مساعدة رعاياها من اليهود اكثر مما استطاعت الحكومة المراكشية. ويرجع هذا إلى ان القانون التونسى المحلى الذى يفرض القيود على اليهود اعطى الحاكم التونسى الحق فى استثناء بعض اليهود من اهل تونس من تطبيق قانون حكومة فيشى عليهم تقديرا للخدمات الجليلة التى قدموها إلى الدولة. وانتهز احمد باشا فرصة وجود هذه الثغرة ليستثنى شخصيتين يهوديتين بارزتين من تطبيق قوانين فيشى المعادية للسامية عليهما. وهذان اليهوديان طبيب عيون

اسمه روجر ناتاف وبول غز الذى شغل فيما بعد وظيفة رئيس مكتب العمل اليهودى فى فترة الاحتلال النازى لتونس. وعندما تولى منصف بك حكم تونس خلفا لاحمد باشا ذهب فى حمايته لليهود إلى ابعد مما ذهب اليه سلفه. فقد عبر عن تضامنه مع اليهود المضطهدين واظهر استقلاله عن حكومة فيشى بان انعم على نحو عشرين يهوديا تونسيا مرموقا ارفع الأوسمة والنياشين بعد مرور ثمانية ايام فقط على توليه عرش البلاد.

وبعد مضى خمسة شهور احتل الألمان الاراضى التونسية . مع احتلال القوات النازية لتونس وجد منصف بك نفسه فى موقف صعب لا يحسد عليه. فهو كتونسى معتز بقوميته اراد للحركة القومية فى بلاده النمو والازدهار وخاصة بعد الهزائم العسكرية النكراء التى منيت بها فرنسا عامى ١٩٤٠ و١٩٤٢.

ولكنه خلافا لكثير من المواطنين التونسيين كان يدرك ان المانيا لا تقل سوءا عن الاستعمار الفرنسى. وهى كحاكم عصرى يقدر اسهام يهود تونس فى تقدمها الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ولهذا يرغب فى حمايتهم من وحشية النازيين. غير انه فى الوقت نفسه لم يرغب فى اثارة حنق الألمان عليه وعلى بلاده.

ولهذا لعب منصف بك دورا مزدوجا فهو من ناحية يرفض فى نوفمبر عام ١٩٤٢ مناشدة الرئيس الامريكى روزفلت له بالوقوف بجانب الحلفاء. وهو على اية حال لم يحاول اظهار اية مقاومة ولو رمزية ضد القوات النازية كما انه من ناحية اخرى اعتبر نفسه مسئولا عن حماية اليهود واتخذ كثيرا من الاجراءات الكفيلة. كذلك و من بينها تعبير محمد شفيق المعروف بعلاقاته الوثيقة بالجالية اليهودية رئيسا للوزارة. كان محمد شفيق رجل اعمال يدأب على مساعدة اليهود وتحذير زعمائهم من المخططات النازية الامر الذى ساعد اليهود على تحاشى القبض عليهم. فضلا عن تدخله للحيلولة دون ترحيلهم فضلا عن انه اخفى بعض اليهود حتى لا يتمكن الالمان من ملاحقتهم أو الوصول اليهم. فرد على

ذلك ان الوزراء تدخلوا باسم الباى لدى القوات النازية حتى لايزج ببعض اليهود فى معسكرات العمل واطلاق سراح الاسرى اليهود. بل ان افراد حاشية باى تونس قاموا بتخبئة اليهود الذين تمكنوا من الهرب من معسكرات الاعتقال النازية. وايضا بذل منصف بك جهدا جهيدا فى اذكاء القومية التونسية كما اقام نصبا تذكاريا لاحد اولياء الله اليهود. ويقول مؤرخ فى هذا الشأن: «ان تصرف منصف بك وحكومته حال دون اغراء التونسيين بالوقوف بجانب الألمان. فضلا عن تعزيز اواصر الوحدة بينهم».

ولهذا نجد ان يهود تونس يذكرون منصف بك بكل خير مثلما يذكر يهود مراكش محمد الخامس بكل خير. «لقد فعل باى تونس الكثير من اجل انقاذ حياة اليهود». هكذا قال موردخاى كوهين.. ويضيف اليهودى شلومو إلى ذلك قوله عن منصف بك: «لقد عامل اليهود معاملة عادلة ولم يسمح بأى تمييز ضدهم». يقول ماتيلد جويز من صفاقى فى مدح الباى: «انه جمع كل وجهاء واعيان المملكة فى قصر باردو ليحذرهم من ان اليهود يعيشون وقتا صعبا وهم تحت رعايتنا ونحن مسئولون عن حماية حياتهم. ولو انى وجدت مخبرا عربيا يتسبب فى سقوط شعرة واحدة من رأس يهودى فان هذا العربى سوف يدفع حياته ثمنا لهذا». والجدير بالذكر ان يهود تونس استقبلوا بحزن شديد خبر وفاة منصف بك عام ١٩٤٨ و سار فى جنازته حشد كبير منهم رغم ان فرنسا الحرة التى خلفت حكومة فيشى كانت قد عزلته من الحكم ونفته بزعم تعاونه مع الألمان.

وحتى بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ظل يهود تونس يحيطون العائلة الحاكمة بالتبجيل والإجلال لعشرات الأعوام.

وعندما قام ساتلوف بزيارة تونس فى مايو ٢٠٠٤ اصطحبه البروفيسور ابيتول لزيارة حاييم مادار الحبر الاعظم الطاعن فى السن الذى كان يعيش فى منزل يقع فى شارع فلسطين بجوار

منزل سيدى شيدلى بك ابن اخر عاهل تونسى بالوراثة تم اقصاؤه عن الحكم. وكان سيدى شيدلى يبلغ اربعة وتسعين عاما.

استقبل شيدلى بك ضيفه ساتلوف بحرارة رغم عدم وجود سابق معرفة به. ورغم انكماش جسم شيدلى بك بسبب تقدمه فى العمر وملازمته الفراش بسبب مرضه فانه احتفظ بحيويته ويقظته والرغبة فى الكلام. حكى شيدلى حكايته فقال ان القوميين التونسيين بقيادة حبيب بورقيبة اعلنوا استقلال تونس عن فرنسا وقاموا بعزل الباى ومصادرة ثروة عائلته المالكة فبادر يهود تونس بتقديم العون لها اعترافا منهم بجميلها عليهم.

ولم يكتفوا بدفع ثمن مسكنه بل دفعوا نفقات تعليم ابنه متجاهلين العداء السياسى السائد ضد النظام المالكى.

ولم يكن منصف بك الزعيم التونسى الوحيد الذى حظى بحب الجالية اليهودية بسبب ما قدمه اليها من خدمات فى فترة الحرب العالمية الثانية بل انه حرص على ان يجتذب إلى حاشيته الصفوة المستنيرة مثل رئيس الوزراء شنيه ورئيس البلاط عزيز جيلولى المفكر المسلم المتحرر الذى كان فيما مضى عمدة تونس العاصمة. ووسط القوى المتصارعة على الارض التونسية التى شملت السلطات الفرنسية والاحتلال الالمانى وقوات الحلفاء الغازية كان شاغل الصفوة الفكرية فى تونس الحفاظ على استقلالها وحماية اهلها من العرب واليهود على حد سواء.

وقد دأبت هذه الصفوة على مساعدة اليهود كأفراد فى غالب الاحيان وكجماعة فى بعض الاحيان. ولكنها عجزت عن ذلك احيانا. نعود هنا إلى حكاية عائلة شملا اليهودية التى اوردها ساتلوف فى مقدمة كتابه فيقول انه عندما توسلت كلير و ليلى شملا إلى جيلولى بالتدخل لدى الالمان لانقاذ زوجيهما اعترف هذا العربى ذو المنصب الرفيع بعجزه عن الوساطة لصالحهما. ولكن محاولة هذه الصفوة التونسية المستنيرة كانت تنجح احيانا فى إطلاق سراح الرهائن والاسرى اليهود تحذير زعماء اليهود من

اعتقالهم الوشيك أو فى التلكؤ فى تنفيذ القوانين المعادية للسامية. ولهذا نرى يهود تونس يذكرون تشنيك وجيلولى بالخير ولا ينسون حسن صنيعهما فى ضائقتهم.

ومن ابرز قصص الشهامة العربية فى معاملة اليهود اثناء محنتهم والتى طواها النسيان قصة سى على ساكات سليل أهل قريش والمولود فى عقد السبعينات من القرن التاسع عشر. نذر سى على منذ باكورة حياته نفسه لخدمة الناس. ورغم عمله المتواضع فى مدن الاقاليم فى بداية حياته فقد بزغ نجمه واصبح عمدة تونس العاصمة. وفى نهاية المطاف تم تعيينه وزيرا فى بلاط الامير حيث اسندت اليه عدة مسئوليات هى العدل والشئون الداخلية. كان سى على نموذجا فريدا لليبرالية والاستنارة العربية فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. وتركت اصلاحاته السياسية والاجتماعية والثقافية بصماتها الواضحة فى المجتمع العربى. وساعده على هذا استقدامه للعمالة الايطالية والفرنسية والمالطية وغيرها من البلاد الاوربية. غير ان هذه الاصلاحات لم تضرب بجذورها فى عمق المجتمع التونسى حيث انها كانت تقليدا سطحيا للاسلوب الاوربى فى الحياة. ومع ذلك فان المصلحين ودعاة الديمقراطية فى تونس لايزالون يعتبرون هذه الفترة فترة ازدهار وتقدم وانفتاح على العالم.

وبسبب انفتاحه على العالم وترحيبه بالرأى الاخر والتعددية الفكرية اثنت عليه وافر الثناء عائلته وزوجته ليليا باكوش «وهى ابنة جنرال تونسى مرموق» لانه غرس افكاره المتحررة فى عقول ابنائه الخمسة.

وبعد حياة طويلة وحافلة بالنشاط والعطاء فى دوائر الحكم اعتزل الحياة العامة وعاش فى مزرعة مساحتها نحو ٧٤٠ فدانا كان قد اشتراها فى منتصف عقد العشرينات من القرن العشرين. وهناك امضى اكثر من عشرين عاما فى هذه المزرعة نائيا بنفسه عن الحركات القومية المتأججة ودوامات السياسة العنيفة فى

تونس والتى لم يعرفها جيله الذى لم ير ادنى تعارض بين الفكر القومى والولاء للعرش. وهكذا طواه النسيان وسقط من ذاكرة التاريخ. وفى عام ١٩٥٤ توفى سى على قبل الاطاحة بالعائلة المالكة وتحويل تونس إلى جمهورية.

كانت مزرعة سى على ساكات تقع فى بير حاليما عند سفح جبل زغوان الشاهق الذى يصل ارتفاعه إلى ٤٢٤٨ قدما ويطل على وادى يحمل نفس اسم الجبل ويشتهر هذا الوادى الخصيب بانه سلة الغلال والبقول الواقعة فى جنوب تونس.. فضلا عن ذلك اشتهر الوادى بانه مصدر المياه العذبة الواصلة إلى قرطاجة القديمة التى نافست روما تاريخيا فى السيطرة على البحر الابيض المتوسط. ولاتزال بقايا مجرى القناة الممتدة لاربعين ميلا تطل على الطريق إلى تونس العاصمة حتى يومنا الراهن. وعندما اشترى سى على مزرعته كانت قطوفها دانية وكانت حقول القمح تشغل مساحة كبيرة من الارض إلى جانب تربية الاغنام واشجار الزيتون وشجر اللوز. وكانت نافذة غرفة نوم سى على تطل على حديقة فسيحة غناء. اما القصر فقد تم تشييده على الطراز المعمارى الإسبانى.

يقول ساتلوف انه زار مزرعة سى على فى مايو ٢٠٠٤ بصحبة كمال ساكات الابن الاكبر لمهدى ابن سى على الذى تولى مسئولية العناية بالمزرعة. ويضيف ساتلوف انه ظل يبحث عن أقرباء لسى على لمدة شهور دون جدوى. ولكن الحظ حالفه عندما قدمه استاذ تونسى إلى كمال فقد كان هذا الاستاذ شريكا لكمال فى ملكية مقهى فى المرسى وهى ضاحية راقية من ضواحى تونس العاصمة.. و لاحظ ساتلوف التدهور الذى اصاب المزرعة التى كانت فى يوم من الايام جنة الله على الارض.

وقد روى البعض قصة سى على على النحو التالى: احتدم القتال بين الحلفاء والمحور فى وادى زغوان فانتهزت مجموعة مكونة من نحو ستين يهوديا ملحقين بمعسكر عمل نازى فرصة

سقوط القنابل من حولهم ليهربوا من المعسكر، واستنجدوا بصاحب المزرعة سى على فاستجاب هذا الرجل الشهم لهم وقام بايوائهم وقدم اليهم الطعام وظل يشملهم برعايته حتى وقت استيلاء قوات الحلفاء على وادى زاغوان - فى طريق زحفهم نحو تونس العاصمة وبنزرت. وهكذا انقذ هذا العربى الشهم الستين يهوديا من الموت. واراد ساتلوف ان يعرف المزيد عن قصة هذه الشهامة العربية الضائعة فقام بزيارة مزرعة سى على فى بير حاليما حيث نزل ضيفا على كمال الذى اكرم وفادته ورافق كمال ضيفه للفرجة على المزرعة وحدثه عن أريحية جده وحبه لفعل الخير وكرمه وشهامته مع العمال اليهود الهاربين من معسكر العمل النازى.

شرح كمال لضيفه ان المزرعة تقع على بعد عدة مئات من الياردات فى مطار صغير انشأته قوات المحور فى اوائل عام ١٩٤٣. ومن الواضح ان النازيين احضروا العمال اليهود من تونس العاصمة إلى زغوان لبناء هذا المطار الحصين ونقل الانقاض الناجمة من سقوط قنابل الحلفاء ويقول ساتلوف ان معسكر العمل فى زغوان كان من اسوأ معسكرات العمل النازية على الاطلاق. وخاصة فى الايام الاولى من الاحتلال واكتظت هناجر المطار الصغير المكشوفة فى زمهرير البرد والمطر بالعمال اليهود. وعندما ضيقت القوات الحليفة الخناق على تونس العاصمة اصبح وادى زغوان ميدانا للقتال. ولاشك ان اتساع المزرعة وكثرة ما فيها من جراجات ومخازن وحظائر ساعد على اختباء اليهود.

وقد طلب كمال من ساتلوف ألا يذكر اى شئ عن حماية جده لليهود امام عمال المزرعة والخدم.

ويتضح من حديث كمال مع ساتلوف فى مزرعة سى على الواقعة فى بير حاليما ومن حديث على - اخيه الاصغر- الذى سبق ان جرى قبل ذلك بثمانية عشر شهرا عندما التقى المؤلف به فى مقهى على نهر السين ان الجد اخفى شهامته مع اليهود عن

اسـرته. فلم يكن احـد مـن افـرادهـا يعلم عنهـا شـيـئـا رغم ورود اشـارات اليهـا فـى كتابين على اقل تقـدير. يقـول الاخـوان احـدا من اليـهـود الذين انقـذهـم سـى عـلـى من براثن النـازيين لم يحـضـر إلى الاسـرة للتعبيـر عن امتنانـه بهذا الصنيع. ويبدو ان العـائلة كانت تعـتـقـد ان الـذين اسـتـجـاروا بـربهـا كـانـوا من الالمان النـازيين بعـد انتصار الحلفاء عليهم. والجـدير بالذكر انه بعد نجاح الحلفـاء فى دحـر القـوات الألمانيـة البـالـغ عـددهـا اكـثـر من مـائتـى الـف جندى واجبـارهـم على الانسـحـاب من شـبـه جـزيـرة كاب بون إلى ايطاليا بقى عدد منهم على الارض التونسية. ويبدو ان بعض هؤلاء الباقين لجأ إلى قصر سى على فلم يردهم خائبين وقام بايوائهم وتشغيلهم فى مزرعته حتى لا يقعوا فى اسر الحلفاء.. ولكن ليس من الواضح المدة التى قضاها هؤلاء الجنود الالمان فى مزرعة سى على.

ويطرح ساتلوف سؤالا: هل كانت هناك مجموعتان لاجئتان إلى مـزرعة سـى عـلى احداهمـا يهودية والاخـرى ألمانيـة؟ ام ان المقصود بالحديث عن لجوء مـجـمـوعـة المانية يراد به التمويه والتغطيـة على شهامة سى على مع اليهود.

ويؤكد سـاتلوف انه لا يشك مطلقـا فى الرواية التى تتحدث عن حـمـاية سـى عـلى لليـهـود لانهـا وردت على لسان اثـنـين من المؤرخين اليهود اللذين تناولا تونس فى فترة الحرب العالمية الثانيـة منذ أكثر من خـمـسـين عـامـا. وحـيث انه ليس لهـذين المؤرخـين اليـهـوديين ايةمصلحة فى اختلاق قصـة انقاذ سـى على لليهود فليس هناك ما يدعو إلى الشك فى صحة روايتهما. ويستطرد سـاتلوف قـائلا انه بفرض ان هـاتين الـروايتين صـحيحتان فـانهمـا يؤكدان انسانية سـى على الذى لم يـبـخل على اى مـحـتـاج بالمسـاعـدة سـواء كـان هذا المحتاج يهوديا أو ألمانياً مهزوماً.

الفصل التاسع

قصة أنى

يقول روبرت ساتلوف انه منذ بداية بحثه وهو على اقتناع بوجود قصص ضائعة عن عرب انقذوا يهودا من الهلاك. غير انه شعر كمن يبحث عن ابرة فى كومة من القش. ولهذا لجأ إلى الانترنت لعله يميط اللثام عن هذه النقطة. واتصل فى نوفمبر عام ٢٠٠٢ بالموقع الالكترونى harissa.com الذى يناقش كل جوانب حياة اليهود فى تونس. وقبل حلول عيد الشكر بيومين تلقى استجابة من امرأة يهودية اسمها أنى بوكريس كانت تعيش فى مدينة لوس انجلوس الامريكية. وفى رسالتها الاولى ردت عليه آنى بقولها:

«لقد انقذ العرب كثيرا من اليهود كما ألحقوا الاذى بيهود آخرين. و لست اعلم هذه الحكايات جيدا. ولكنى اذكر تماما قصة واحدة». ثم روت له الخطوط العريضة لقصة مدهشة عن طفولتها فى مدينة ساحلية صغيرة تعرف باسم المهدية. وقالت ان عربيا قام فى منتصف الليل اثناء الحرب بإخفاء عائلتها لانقاذ أمها الجميلة من اعتداء ضابط ألمانى الجنسى عليها. ولاحظ ساتلوف ان قصة أنى مليئة بالثغرات التى عجزت هذه المرأة عن ملئها. فهى لم تستطع تحديد علاقة هذا العربى الشهم بالضباط الألمان فضلا عن انها عجزت عن الاجابة عن مدى تكرار حوادث

اغتصاب الجنود الألمان للنساء اليهوديات فى فترة الاحتلال النازى لتونس.

بالاضافة إلى عجزها عن معرفة متى تمكنت عائلتها من الهرب إلى بر الأمان.

ولا غرو فقد كانت آنى آنذاك فى الحادية عشرة من عمرها فقط. واطلع على هذه الحكاية اثنان من المؤرخين اليهود التونسيين الثقات احدهما يعمل فى باريس والآخر فى اورشليم دون اية اشارة إلى اسم آنى أو عائلتها. ورفض هذان المؤرخان تصديق هذه الرواية وقالا انها رواية مختلقة وعارية تماما عن الصحة. وذكر واحد من هذين المؤرخين ان الجنود الالمان لم يرتكبوا اية حوادث اغتصاب فى تونس وعلق الاخر ان هذه القصة من نسج الخيال. ولكن هذا لم يفت فى عضد ساتلوف الذى قرر ان يقابل آنى بنفسه ويستفسر منها مباشرة عن تفاصيل ما حدث. ولكن ظروفه حالت آنذاك دون مقابلتها فضلا عن انها انتقلت من لوس انجلوس لتعيش فى مجمع سكنى فى صحراء النخيل التى تبعد ساعتى سفر فى ضواحى هذه المدينة. ورغم ذلك فقد استمرت الرسائل الواردة بالبريد الالكترونى تصل اليه من حين لآخر.

واخيرا قرر ساتلوف استئجار شخص لمقابلة أنى ليطرح عليها الاسئلة التى يرغب مؤلفنا فى طرحها ويقوم فى نفس الوقت بتسجيل اجاباتها. وكان من حسن حظ المؤلف انه عثر على وسيط يدعى «زيبوراه جلاس» له خبرة فى تسجيل قصص اليهود الناجين من الهولوكست. وفى ٨ أكتوبر ٢٠٠٣ توجه زيبورا بسيارته إلى صحراء النخيل حيث امضى اليوم بأكمله فى تسجيل ردود آنى على اسئلته. ومن مفارقات الاقدار ان آنى توفيت بعد رواية قصتها بالتفصيل بعد مضى ثمانية اسابيع.

واستغرق تدوين تسجيلات آنى على الورق ٨٣ صفحة تناولت تفاصيل طفولتها ومواطنها وحياتها العائلية. اضف إلى ذلك انها روت بالتفصيل قصة انقاذ احد الاتقياء العرب لأمها من اعتداء

ضابط ألمانى شهوانى عليها. وفيما يلى قصة آنى كما جاءت على لسانها:

ولدت آنى فى ١٧ سبتمبر ١٩٣١ فى بلدة المهدية الواقعة على الساحل الشرقى لتونس. و كانت الطفلة الثانية لاب انجب ثلاثة اطفال اسمه جاكوب بوكريس من زوجته اوديت بوكارا التى كان والدها يعمل قبل الحرب مندوبا لشركة انتاج مواقد الغاز. وكانت آنى تقطن المنزل رقم ٥٨ فى شارع على بك.

وهو شارع تخصص فى بيع الادوات المنزلية. وكان هذا المنزل مريحا كما كانت حياة آنى العائلية متماسكة. تقول آنى ان اسرتها كانت تواظب على الاحتفال بأيام السبوت المقدسة وان الحديث فى بيتها كان يدور باللغتين الفرنسية والايطالية إلى جانب مخاطبة الخادمة باللغة العربية. وذكرت انى انها كانت فى طفولتها تقضى اسعد اوقاتها فى اللعب على الشاطئ مع قريناتها واقرانها من الاطفال اليهود والعرب على السواء غير مبالية بالغارات الجوية التى شنها الحلفاء على ميناء المهدية. غير ان ورما ضخما اعترى ظهرها، الامر الذى سبب لها ولوالديها انزعاجا جعلهما ينقلانها للعلاج فى مدينة سوس ثم فى مدينة تونس العاصمة مما جعلها تقول: «كانت ذكرياتى عن طفولتى سعيدة حتى عام ١٩٤٢».

تبدأ قصة آنى بوصول القوات الألمانية إلى ميناء المهدية وفور وصولها اصدرت القيادة الالمانية امرا باجلاء مساكن اليهود وتخصيصها لايواء الجنود الألمان. وجاء احد الجنود الالمان إلى منزل بوكريس يرافقه رجل فرنسى محلى كى يقوم بدور المترجم ويخبر عائلة بوكريس ان الألمان يمهلونها ساعة واحدة لمغادرة مسكنها. وتذكر أنى ما حدث جيدا لانها كان موجودة فى البيت عند مجيء الجندى الالمانى يوم خميس وجاء الطرق على الباب مفاجئا ودون سابق انذار. وعلى اية حال كانت عائلة بوكريس تتوقع حدوث شيء من هذا القبيل. ولهذا قامت بتخزين التموين وجميع نفائسها فى غرفة صغيرة وتولى الجندى الألمانى تفتيش

المكان وسرعان ما عثر على هذا المخبأ فصادر جميع محتوياته ونقلها على عربة يجرها حصان. وبكت أنى البالغة من العمر احد عشر عاما بحرقة لضياع مجموعة الطوابع البريدية التى جمعتها.

وفى اليوم التالى قام الجيش الألمانى بطرد أنى وعائلتها من مسكنها الذى تحول إلى ثكنة عسكرية لايواء الجنود الألمان. وامام هذا الطرد المفاجىء لجأ والد أنى وبقية عائلته إلى العيش فى مصنع لانتاج زيت الزيتون على بعد ميل ونصف الميل من قلب المدينة ثم لحق بهم بقية الاقارب إلى جانب جيران واصدقاء عائلة بوكريس من عائلة أوزان . ورغم ذلك فان احوال هذه العائلة لم تتدهور كثيرا حيث ان السوق ظل مفتوحا الامر الذى مكن اليهود من الحصول على الطعام الذى تسمح به الشريعة الموسوية. وتذكر أنى فى هذا الصدد ان عائلتها احتفلت بالسبوت فى امسيات يوم الجمع. وفى ساعة متأخرة من احدى الليالى بعد انقضاء عدة اسابيع على اقامة عائلة بوكريس فى مصنع الزيت سمعوا طرقا على الباب. وكان الطارق فى هذه المرة عربى اسمه خالد عبدالوهاب وهو ابن رجل ثرى يملك الضياع وأديب مرموق اسمه حسن حسنى عبدالوهاب الذى اطلقت تونس فى العاصمة اسمه على بعض شوارعها تكريما له. كما خصصت دار الكتب والوثائق القومية فى تونس قاعة خاصة به. وتقول أنى ان الاديب المرموق حسن حسنى كان صديقا حميما لوالدها. وان الطارق على الباب كان ابنه خالد وهو شاب على قدر عظيم من الوسامة.

جاء خالد إلى عائلة بوكريس ليبلغها ان الخطر الداهم يحدق بها وطلب منها الإسراع بمغادرة مصنع الزيت الذى يختبئ فيه واصطحابها إلى مكان آمن وايضا طلب من جيران واصدقاء عائلة بوكريس ان يتبعوه إلى هذا المكان الآمن. وحزم الجميع امتعتهم القليلة. وانتهز خالد هبوط الظلام فأقتادهم جميعا إلى مزرعة عائلته الواقعة فى بلدة تبلسة التى تبعد نحو مائتى ميل غرب المهدية. وما ان انبلج الفجر حتى كان جميع الذين يعيشون فى

مصنع الزيت قد اخلوا المكان.

وتذكر أنى مزرعة عائلة الوجيه التونسى عبدالوهاب فتقول انها امتلأت باشجار اللوز والزيتون والتفاح كما انها احتوت على حمام سباحة اقيم على الطراز الأمريكى. وهناك عاش اللاجئون رغم ازدحامهم عيشة مريحة وآمنة. وكانت امرأة ريفية تحضر إلى المزرعة كل يوم لتخبز لهم الخبز الطازج.

وبالقرب من المزرعة كان هناك معسكر تابع إلى الصليب الاحمر الألمانى مخصص لعلاج الجنود الألمان المصابين فى القتال وكان كثير من العاملين فى هذا المعسكر على علم باختباء اليهود فى المزرعة ولكنهم آثروا الصمت والكتمان. بل ان بعضهم كان يحضر الضمادات والطعام إلى المختبئين فى المزرعة. وتذكر أنى ان احد الألمان الذى كانت امه يهودية اعتاد على زيارتهم كل يوم. والجدير بالذكر ان أنى وعائلتها وجيرانها البالغ عددهم نحو اثنى عشر شخصا امضوا فترة الاحتلال النازى لمدينة المهدية مختبئين فى مزرعة عبدالوهاب. وتذكر أنى انها لم تغادر المزرعة إلا مرة واحدة فى الاسبوع لحضور اجتماع الجالية اليهودية فى مدينة المهدية المنعقد فى مزرعة يملكها يهودى على بعد اربعة اميال من هذه المدينة. وهناك كان الحبر المحلى يرأس طقوس ذبح الدجاج على الطريقة الموسوية للاحتفال بالسبت فى اليوم التالى. وكان خالد يزورهم كل يوم تقريبا للاطمئنان عليهم، وتعترف أنى بانها كانت تشعر بالخوف رغم الأمان الذى عاشت فيه.

مكث هؤلاء اليهود اللاجئون فى المزرعة لمدة اربعة شهور تقريبا حتى ابريل ١٩٤٣ عندما وصلت القوات البريطانية إلى مدينة المهدية،. الامر الذى طمأن اليهود اللاجئين بانهم سوف يرجعون فى يوم ما إلى ديارهم الاصلية. وعندما عادت عائلة بوكريس إلى بيتها الذى استولى عليه الألمان وجدوه فى منتهى القذارة ويفوح بالعفن ولهذا فضلت هذه العائلة الانتقال إلى منزل عمها لقضاء عيد الفصح هناك.

كان خالد عبدالوهاب يتقرب إلى افراد القوات الألمانية حتى يعرف مخططاتها. وسبب كثرة اختلاطه بالألمان عرف خالد انهم اقاموا ماخورا لمضاجعة الفتيات والنساء فيه ومعظمهن من اليهوديات وتذكر أنى ان اليأس من الحياة دفع فتاتين يهوديتين إلى الاقدام على الانتحار. والجدير بالذكر ان الألمان استأجروا قابلة مسلمة لتنظيف هذا الماخور وان هذه القابلة اخبرت أنى بالممارسات التى كانت تجرى فيه.

ويقول ساتلوف ان خالد حاول جاهدا ان يغرى الجنود الألمان بالافراط فى الشرب حتى يغلبهم النعاس ويخلدوا إلى النوم فلا يقربوا اليهوديات. ولم يمض وقت طويل على تودد خالد للجنود الألمان حتى عرف من احدهم انه متيم بعشق امرأة يهودية فاتنة وانه ينوى احضارها إلى الماخور فى اليوم التالى لمضاجعتها. ووصف له هذا الضابط الألمان الشهوانى تقاطيع وجهها و محل اقامتها وشعرها الاشقر وعينيها الزرقاوين فتأكد انها اوديت ام أنى وزوجة بائع مواقد الغاز. وفى تلك الليلة الموعودة قدم خالد الكثير من الخمر إلى الضابط الألمانى حتى غلبه النوم. واستغل الشاب العربى سيارته وانطلق بها إلى مصنع الزيت ليحذر عائلة أنى من الخطر الذى يتهددها وقام بترحيل جميع افرادها إلى مزرعته. وشعرت هذه العائلة بالامتنان وكان من الممكن ان يدفع هذا الشاب حياته ثمنا لشهامته لو أن الضابط الألمانى اكتشف الحيلة التى لجأ إليها لانقاذ المرأة اليهودية. فلا غرو اذا رأينا هذه العائلة اليهودية تستقبله كضيف معزز و مكرم فى الاحتفال بيوم السبت المقدس وبعد مضى سنوات تزوجت أنى وانتقلت إلى مدينة سبتيلا الواقعة فى قلب تونس.

ولكن علاقة عائلة بوكريس بهذا العربى الشهم لم تتوقف فهو على حد قول اليهودى ياد فاشيم من «اتقياء الأمم» ولكن ساتلوف يتحفظ فى وصف خالد بالتقوى فهذه القصة التى مضى عليها نحو ستين عاما غير مؤكدة. كما ان المؤرخين الجادين لا يعتدون

كثيرا بمصداقية مثل هذه الحكاية التى مضى عليها كل هذا الزمن الطويل.

ولكن شكوك ساتلوف بدأت تتبدد عندما تلقى مجموعة من الرسائل الالكترونية من استاذة جامعية يهودية فى تل ابيب اسمها شيرا سمحونى «أو شانتال سمحونى» التى كانت فيما مضى تعيش فى مدينة تعج بالعرب واليهود اسمها عريانة التى اصبحت فيما بعد احدى ضواحى تونس العاصمة. وكان والدها جورج سارفاتى يشغل وظيفة نائب عمدة عريانة كما كان فى فترة الحرب العالمية الثانية يمثل الجالية اليهودية لدى السلطات الفرنسية والالمانية. وفى رسالتها الالكترونية اكدت شيرا لساتلوف انها تؤازره فى مشروعه البحثى وانها كانت تعرف أنى معرفة شخصية وانها تعرف قصتها. ولهذا آلت شيرا على نفسها ان تجهد نفسها للعثور على دليل يؤكد صحة شهادة أنى.

اكدت شيرا ان يهوديات تونس كن يخشين باستمرار من اغتصاب الجنود الالمان لهن. وارسلت شيرا إلى ساتلوف عن طريق البريد الالكترونى انها تحدثت بهذا الشأن إلى امرأة من سوسة اسمها جيزيل انتقلت عائلتها إلى مدينة مدنين ابان الحرب العالمية الثانية واوضحت جيزيل ان الجنود الألمان لم يكفوا عن البحث عن الفتيات اليهوديات لاغتصابهن. كانت جيزيل فى الرابعة عشرة من عمرها عندماجاءت القوات الالمانية فخشيت عليها عائلتها من اغتصاب الألمان لها لدرجة انها كانت تخبئها فى بئر فى كل مرة تجوب فيه وحدة عسكرية المانية شوارع مدينة مدنين.

وايضا ارسلت شيرا رسالة بالبريد الالكترونى عن ارملة يهودية تونسية فى السابعة والثمانين من عمرها اسمها جابرييل بوكوبزا تعيش فى باريس تزوجت من رجل كان يعيش فى المهدية. وتذكر هذه العجوز ان كثيرا من العائلات اليهودية التى تعيش فى المدن التونسية انفرط عقدها إبان الاحتلال الالمانى حيث درجت النساء اليهوديات على اصطحاب اطفالهن والالتجاء إلى اماكن آمنة فى

الريف فى حين ظل ازواجهن فى اماكنهم لاداء اعمال السخرة فى معسكرات العمل. وقد شرحت جابرييل بوكوبزا لشيرا ان الألمان اقاموا ماخورا فى مدينة المهدية واسندوا ادارته إلى يهودية متقدمة فى السن. وربما كانت هذه المرأة اليهودية المتزوجة من رجل مسلم هى نفس القابلة التى سبق لأنى الاشارة إليها.

وبعد عدة شهور تلقى ساتلوف من شيرا رسالة تؤكد ان ثلاثة جنود ألمان تناوبوا الاعتداء على فتاة و انها رغم زواجها فيما بعد وانجابها لاربعة اطفال فانها لم تشف تماما من صدمة الاغتصاب ويقول ساتلوف ان مثل هذه القصة من شأنها ان تعزز صدق حكاية أنى.

وفى مايو ٢٠٠٤ سافر ساتلوف بالطائرة من الرباط إلى تونس من اجل اثبات أو تفنيد قصة أنى.. وحاول لعدة شهور ان يعرف عن طريق اصدقائه وزملائه المزيد من الاخبار عن خالد عبدالوهاب وعائلته. ولكنه اخفق فى ذلك. ولهذا بحث عن طرق اخرى للتأكد من صحة ما قالته انى لصديقتها زيبوراه. وكان من حسن حظ ساتلوف ان الحظ كان حليفه هذه المرة.

وفى الحديث المسجل الذى ادلت به آنى لمندوب ساتلوف فى امريكا ذكرت هذه الفتاة كثيرا من التفاصيل عن ظروف نشأتها فى المهدية كما ذكرت بطريقة عابرة اسماء اصدقائها فى فترة الطفولة ونوهت بوجه خاص بأعجابها بشقيقين من عائلة خليفة هما سها وصالحة خليفة اللتان تتلمذتا مع أنى فى نفس المدرسة. وشاركتهما وجبات الطعام واللعب فى البيت.. وعندما وصل ساتلوف إلى تونس استعان بدليل التليفونات فعثر على شخصين يعيشان فى المهدية باسم خليفة. وجرب ساتلوف حظه فى ادارة قرص التليفون وفرح كثيرا عندما ردت عليه سيدة اسمها نجلاء خليفة التى رحبت به ترحيبا دافئا. وكانت هذه السيدة المتحدثة نجلاء خليفة زوجة حسين ابن عم كل من سها وصالحة. ولهذا قرر ساتلوف السفر بسيارته من تونس العاصمة إلى المهدية فى صبيحة

اليوم التالى لزيارة نجلاء وزوجها حسن.

تقع المهدية فى الجزء الجنوبى من خليج الحامة اسفل الساحل الذى يقع فيه ميناء سوسة المهم. والجدير بالذكر ان مدينة المهدية كانت فى القرن العاشر حاضرة الدولة الفاطمية. ولاتزال هذه المدينة تحتفظ بسور يحيط بمكان يطلق عليه اسم بوجراس وصفه البعض بأنه تبة من تكعيبات الكروم وكان مدخل المهدية من خلال بوابة مقدسة لها اثر عظيم فى نفس من يدخلها. ويقع هذا المدخل على الجانب الاخر البعيد من الشارع الذى كان فى يوم من الايام يحمل اسم على بك.

وفى هذا الشارع حاول ساتلوف العثور على منزل أنى ولكنه وجد ان اسم الشارع وارقام المنازل تغيرت. ومن ثم عجز عن الاستدلال على المنزل المنشود رقم ٥٨ واتضح لساتلوف ان جزءا كبيرا من المدينة القديمة امتد إلى الغرب بمحازاة شبه جزيرة صغيرة يقع على طرفها الشرقى فنار يعرف باسم الرأس الافريقى. وتوجد فى نهاية هذا الرأس مدافن منحوتة فى الصخور التى ترتطم بها موجات البحر. وعلقت نجلاء على منظر المدافن الرائع بقولها ان الاموات فى هذا المكان محظوظون لان اجسادهم وارواحهم تسبح فى سرمدية النعيم.

استضافه كل من حسين وزوجته نجلاء ساتلوف فى شقتهما الصغيرة الجميلة المطلة على البحر والواقعة فى الجانب الشمالى من المدينة. واندهش ساتلوف عندما علم من مضيفيه ان سها وصالحة لاتزالان على قيد الحياة. وانهما لاتزالان تحتفظان بعقل يقظ. وقال المضيفان ان سكان مدينة المهدية يشعرون بالفخر لان مدينتهما شاهدت تعايش العرب مع اليهود وعملهما معا لعدة قرون. واضاف المضيفان انهما لا يتذكران عائلة بوكريس بوضوح إلا انهما على يقين من ان عمتهما لاتزالان تحتفظان بذكرى الحرب حية. ولكنهما اعتذرا عن عدم قدرتهما على تعريفه بعمتيهما بسبب نشوب نزاع عائلى استمر عددا من السنوات نتيجة

التناحر والتنافس والغيرة الامر الذى انتهى بهماإلى ساحات المحاكم.

ونصحاه بالعثور على وسيط آخر تربطه المودة بعمتيهما أو بالتوجه بنفسه مباشرة إلى هاتين العمتين والطرق على ابوابهما وطلبا من ساتلوف سرعة التحرك نظرا لوقوع حالة وفاة لقريب بعيد للعائلة فى وقت باكر من ذلك اليوم وان العمتين قد تنشغلان عنه بالقيام بواجب العزاء.

ولهذا اسرع ساتلوف بالذهاب إلى بيت العمتين وعندما طرق الباب الخشبى المطلى باللون الازرق جاءت خادمة وفتحت له الباب فطلب منها ساتلوف التحدث إلى مدام حمزة وهو اسم صالحة الجديد بعد زواجها من حمزة. وكان ساتلوف محظوظا للغاية حيث ان صالحة كانت آنذاك تتأهب للخروج بعد ان ارتدت ملابس الحداد. كانت فى طريقها إلى مقابلة سها الساكنة بالقرب منها حتى يذهبا معا للعزاء. وبعد ان قدم ساتلوف نفسه إلى سيدة البيت فاجأها بسؤال عما اذا كانت تتذكر فتاة يهودية صغيرة فى السن اسمها أنى بوكريس التى درجت على اللعب معها منذ ستة عقود. بوغتت صالحة بهذا السؤال وزاد من المباغتة ان الزائر استاذ جامعى امريكى حضر إلى منزلها بدون إحم أو دستور وبدون دعوة أو استئذان.

ولكن صالحة ما لبثت ان استرجعت توازنها. ونظرا لانها كانت على أهبة الخروج رافقت الزائر الاجنبى إلى الشارع. ولابد ان منظر السيارة المرسيدس الفارهة وبداخلها الشوفير والرابضة امام باب البيت جعلها تأخذ هذا الزائر العجيب مأخذ الجد فخيرته بين العودة إلى زيارتها فى اليوم التالى أو مرافقتها فى الطريق إلى اختها. وخوفا من ان تغير رأيها وتمل من الكلام فضل ساتلوف مرافقتها فى اتجاه الشرق على الطريق الرئيسى بينما سارت الخادمة خلفهما وعلى نحو مائة وخمسين ياردة وجدت صالحة اختها الاكبر منها سها فى انتظارها.

بدأ الحماس يدب فى صوت صالحة التى هاجت ذكرياتها فاقترحت على ضيفها الدخول فى بيت سها حيث يمكن تبادل الحديث بعيدا عن جلبة الشارع وضوضاء السيارات ومالت صالحة على اختها سها لتخبرها ان الضيف جاء للسؤال عن أنى بوكريس وشيئا فشيئا بدأت سها تسترجع ذكرياتها. واخذت تتساءل كانسان يحدث نفسه.. أنى بوكريس . ثم سألت قائلة «التى كانت اختها تدعى إينا»؟ فرد عليها ساتلوف «نعم» و«التى كان ابوها جاكوب واوديت»؟ «نعم» ثم عادت صالحة إلى التساؤل «ألم يكن جاكوب يعمل فى محطة الغاز بعد انتهاء الحرب؟» «نعم». وبعد مضى دقائق قليلة اضافت سها وصالحة انهما لا يذكران أنى وعائلتها فحسب بل انهما تذكران ايضا مدى الصداقة التى ربطت بين عائلتى بوكريس وخليفة وان جد أنى كان يعمل سكرتيرا لدى جدها.

واراد ساتلوف استخلاص ما يمكن من معلومات خاصة بحياة آنى فاخبر كلا من سها وصالحة بأن أنى افضت اليه بمعلومات عن تجربتها وتجارب عائلتها فى فترة الاحتلال النازى لتونس. وسألهما اذاكانا يذكران اى شئ بهذا الصدد. فاجابت الاخت الاكبر سها انها تذكر ان أنى وعائلتها قضت بضعة شهور فى مزرعة فى تبلسة. ولكن اسم صاحب المزرعة سقط من ذاكرتها. وحتى ينشط ذاكرتهما نطق ساتلوف باسم عائلة عبدالوهاب. وعلى الفور تذكرت سها اسمه بالكامل قائلة: «نعم خالد عبدالوهاب» هو الذى اخفاهم». ولكن الاختين كانت تجهلان السبب الذى حدا بخالد عبدالوهاب ان ينقذ أنى من براثن الألمان. ولم يكن فى ذلك ثمة غرابة حيث ان أنى ذكرت ان عائلتها كتمت هذا السر فى صدرها. وعندما بدأ ساتلوف يخوض فى حوادث اعتداءات الجنود الألمان الجنسية على الفتيات والنساء اليهوديات بدأ الحرج واضحا على الاختين العربيتين فقد ضايقتهما اثارة هذا الموضوع الحساس.

وانتهت المقابلة بان تأكد ساتلوف ان قصة أنى فى مجملها صحيحة وانها بالفعل اختبأت مع عائلتها فى فترة الاحتلال النازى فى مزرعة خالد عبدالوهاب.

وحفز استيقان ساتلوف من صحة الخطوط العريضة لقصة أنى مؤلفنا إلى السفر إلى تبلسة فوجدها مجرد قرية . وفى تبلسة طلب ساتلوف من سائقه الخاص الوقوف امام ورشة ميكانيكى حيث شاهد مجموعة من الرجال يتجاذبون اطراف الحديث فى مؤخرة الورشة . وطلب ساتلوف من صاحب الورشة ان يدله على مزرعة خالد عبدالوهاب. ولكن الجميع التزموا الصمت عندما رأوا الليموزين المرسيدس منتظرة ظنا منهم انه مسئول حكومى كبير أو مفتش ضرائب. فبادر بادخال الطمأنينة إلى أنفسهم شارحا لهم فى مزيج من العربية والفرنسية انه استاذ جامعى امريكى جاء لإماطة اللثام عن امر حدث فى هذه المزرعة فى فترة الحرب العالمية الثانية عندئذ انفكت عقدة لسانهم.

كانت المزرعة الضخمة على حالها كما وصفتها أنى فهى تمتد لعدة مئات الافدنة إلى جنوب الطريق الرئيسى. وكانت مليئة باشجار اللوز والتفاح والزيتون. وايضا رأى ساتلوف الجرن وحمام السباحة اللذين تحدثت عنهما أنى. وبدا ان المزرعة ظلت مهجورة لفترة من الزمن بسبب وفاة صاحبها خالد منذ بضعة سنوات دون ان ينجب ذرية كما كان يعتقد ودون ان يتولى احد رعايتها والعناية بها.

عندئذ تذكر ساتلوف ان عربيا شهما يدعى خالد عبدالوهاب عرض نفسه للتهلكة كى ينقذ امرأة يهودية وعائلتها من اعتداء الجنود الألمان عليها. واكدت له مقابلته مع كل من سها وصالحة ان قصة أنى صحيحة.. وزاد من تأكيد صحتها الزيارة التى قام بها بنفسه لمزرعة خالد عبدالوهاب فى تبلسة.

وبعد انقضاء خمسة عشر شهرا تلقى ساتلوف المزيد من التأكيدات على صحة قصة أنى فقد قابل يهوديا تونسيا يدعى

ليونيل اوزان فى حفلة كوكتيل اقيمت فى مدينة نيويورك . وعرف ساتلوف ان عائلة ليونيل جاءت من مدينة المهدية وايضا عرف فيما بعد ان عائلة ليونيل اختبأت مع عائلة أنى فى مصنع الزيت وعرف ساتلوف ان جدة ليونيل واسمها ليفيا بوخوبزا اوزان البالغة من العمر اثنين وتسعين عاما لاتزال تعيش فى باريس. وركز ساتلوف كل اهتمامه على العثور على دليل جديد على صحة قصة أنى ولهذا طلب من لونيل سؤال جدته اذا كانت لاتزال تذكر قصتها وقصة انتحار الفتاة اليهودية التى اغتصبها الجنود الألمان بالتناوب فى مدينة المهدية غير ان قصة الانتحار سقطت من ذاكرة الجدة فلم تعد تذكر عنها شيئا. ولكن هذا لم يفت فى عضد ساتلوف الذى اتجه إلى سؤال اقارب ليونيل الاخرين فعرف منهم انهم كانوا على صلة بعائلة أنى وان ستة منهم كانوا يختبئون مع عائلة أنى بوكريس من الألمان فى مصنع انتاج الزيت. كما شهدوا بأن احد وجهاء العرب جاءهم فى منتصف الليل لانقاذهم ولكنهم عجزوا عن تذكر اسمه فى حين انهم ذكروا المزرعة التى احتموا بها. وايضا قالت ليفيا ان زوجها موشيه اوزان وهو صاحب مصنع سردين فى المهدية كان يعرف هذا العربى. ثم اضافت ليفيا ان عمتى ليونيل إدميه والدا زاملتا ابنتى خليفة فى المدرسة وانهما يذكران هاتين الابنتين بكل حب ومودة. واستغرب ليونيل استغرابا شديدا عندما عرف ان شابا عربيا شهما تولى انقاذ عائلته من الخطر الذى يتهددها ورغم تأكيد ساتلوف من صحة قصة أنى وعائلتها فقد ظلت شخصية الشاب العربى المنقذ خالد عبدالوهاب غائمة رغم مضى عامين من البحث والاستقصاء والتجأ ساتلوف إلى احد اصدقائه الاكاديميين التونسيين هو الدكتور حسونة هزابى مدير دار الكتب التونسية. ولكن هذا الرجل لم يعرف عن مصير خالد عبدالوهاب شيئا رغم ان احدى قائمات دار الكتب التونسية كانت تحمل اسم والده الاديب التونسى القومى الكبير حسن حسنى عبدالوهاب تكريما لذكراه. ولم يجد ساتلوف مناصا

من الاستعانة بكبار المسئولين فى الحكومة التونسية وفى السفارة الامريكية فى تونس فدلوه على عدد من افراد عائلة خالد دون ان يقدموا اليه اية معلومات عن خالد نفسه.

غير ان الحظ ما لبث ان ابتسم لساتلوف فى شهر سبتمبر ٢٠٠٥ عندما تلقى رسالة بالبريد الالكترونى من امرأة تونسية غير عادية اسمها حياة لاوونى كانت من اعز اصدقائه فى تونس. كانت حياة تعمل مدرسة كما كانت تقوم بتنظيم حسابات شركة الشحن البحرى التى يمتلكها زوجها الذى انتقل إلى جوار ربه فى باكورة حياته مما اضطر ارملته إلى ادارة شركته و معرفة كل كبيرة وصغيرة فيها.

واستطاعت هذه المرأة ان تكسب ثقة عمال الشركة والمتعاملين معها وزبائنها لدرجة انها حولت شركة زوجها المتوفى إلى امبراطورية ملاحية مسئولة عن شحن خمس شحنات تونس الدولية. وبسبب نجاحها المذهل فى ادارة شئون الشحن البحرى كلفتها الحكومة التونسية بادارة الهيئة القومية التونسية للنقل. فضلا عن تكليفها بالاشراف على نظام التاكسيات فى تونس.

يقول ساتلوف ان هذه المرأة العربية غير العادية قدمت اليه مساعدات عظيمة لاتمام ابحاثه حيث انها وضعت رهن اشارته اية تاكسيات قد يحتاج اليها فى تنقلاته. وفى رسالتها بالبريد الالكترونى المشار اليها اخبرته بأن العمال الذين استخدمهم خالد عبدالوهاب فى مزرعته فى تبلسة كانوا مخطئين عندما قالوا ان خالد توفى دون انجاب ذرية فقد اكتشفت حياة ان له ابنة.

وبعد مضى ستة اسابيع ارسلت حياة احد اصدقائها إلى ساتلوف ليرافقه إلى فندق فى قلب تونس العاصمة. وكان هذا الصديق يدعى احمد سماوى الذى دل حياة على اسرة خالد. انخرط احمد سماوى فى حياة تونس السياسية بعد الاطاحة بالنظام الملكى التونسى واقامة نظام جمهورى، وشن هجوما شديد الوطأة على النظام الجديد فزج به لمدة عام فى معسكر مقام فى

الصحراء.

ولكنه استطاع بفضل كفاءته غير العادية ان يكسب ثقة المسئولين فاطلقوا سراحه وكلفوه بادارة السكك الحديدية ومصلحة الطيران ووزارة الشئون الاجتماعية والنقل. واعترفت حياة بانها اصطدمت به عندما كان مسئولا عن ادارة النقل ولكنهما سرعان ما تصالحا. كما تبين ان احمد سماوى كان يجلس مع خالد عبدالوهاب فى نفس المكتب عندما كان خالد يعمل موظفا كبيرا لمدة عشر سنوات فى وزارة السياحة.

اصطحب احمد سماوى كلا من ساتلوف وحياة فى سيارته لمقابلة ابنة خالد عبدالوهاب التى كانت تعيش فى احد احياء قرطاجة الراقية. وكانت تدعى فافو وهو اسم الدلع لصفية. واثناء الرحلة اخبرها احمد ان خالدا انجب ابنة اخرى بعد زواجه من ابنة مغنية أوبرا فنزويلية عرفها اثناء اقامته فى إسبانيا.

كانت الساعة نحو التاسعة مساء عندما وصل أحمد ومرافقاه إلى منزل فافو وزوجها فى قرطاجة. ولاحظ ساتلوف ان البيت الانيق يزخر بالكنوز الاثرية الخاصة بتاريخ قرطاجة القديم قام خالد بجمعها على مر الايام. واتضح ان خالد هو الذى شيد هذا البيت ثم اعطاه إلى ابنته.

استقبلت فافو ضيوفها بحرارة ودعتهم إلى شرب الشاى وتناول بعض الحلوى الخاصة بشهر رمضان. وفى البدء ظهر عليها شيء من التحفظ فى الحديث وكانت تمسك عن الكلام احيانا فيقوم احمد بتزويد الحاضرين بالتفاصيل.

ومن هذه التفاصيل تبين ان خالد عبدالوهاب من مواليد ١٩١١ وانه الابن الوحيد للمؤلف والاديب الشهير بين اطفال حسن حسنى عبدالوهاب الخمسة. وكان خالد منذ باكورة حياته منفتحا على العالم ورافضا للتقوقع فى حدود موطنه وثقافته المحلية. فدرس الفن والعمارة والآثار وكان عاشقا للموسيقى وذواقة لاجود انواع الخمور واطيب اصناف الطعام. فهو لم يكتف بالسفر إلى فرنسا

كعادة التونسيين الأثرياء ولكنه سافرإلى امريكا فى اوائل الثلاثينات من القرن العشرين حيث امضى نحو عامين أو ثلاثة فى دراسة الفن والعمارة فى نيويورك. كان خالد - على حد وصف احمد سماوى له - نهما فى الثقافة والطعام على حد سواء . كما كان يتمتع بوسامة غير عادية مثل وسامة الفتيان الاول على الشاشة الفضية.

وذكرت فافو ان اباها كان يشغل وظيفة مستشار فى وزارة السياحة لعدة سنوات. ولكن يبدو ان اهتمامه بآثار تونس فاق اهتمامه بالسياحة. واضافت انه كان مدير مكتب وزير السياحة لبعض الوقت، وانه كان يعشق خيرات مزرعته فى تبلسة من فاكهة ولوز وازهار ويقول ساتلوف ان فافو ورثت عن ابيها وسامته ولكن لمحة حزن كانت تسكن عينيها .

وعندما اخبر ساتلوف فافو بتفاصيل شهامته فى انقاذ عائلات يهودية من براثن الألمان بايوائها سرا فى مزرعته فى تبلسة ظهرت عليها إمارات الدهشة العظيمة لانها كانت تجهل تماما هذا الجانب من حياة ابيها. ولكنها سرعان ما تغلبت على دهشتها وعلقت بقولها ان هذا ليس شيئا غريبا عليه.

يقول ساتلوف ان خالد عبدالوهاب توفى عام ١٩٩٧ فى سن السادسة والثمانين دون ان ينجب ولدا. ولكنه بسبب شهامته ينطبق عليه قول اليهودى ياد فاشيم بانه «تقى بين الأمم» يعتبره ساتلوف اول الاتقياء العرب.

الفصل العاشر

العرب ينقذون اليهود
من المحرقة فى قلب أوربا

يقول ساتلوف فى الفصل قبل الأخير من كتابه عن اليهود فى شمال افريقيا ان بعض العرب المهاجرين إلى اوربا قاموا بانقاذ بعض اليهود فى فرنسا من الهولوكست، وان هذه الصفحات المجهولة عن الشهامة العربية ظلت فى طى النسيان رغم قرب شمال افريقيا من اوربا. فالمغرب لا يبعد عن جبل طارق باكثر من ثمانية اميال عن اسبانيا، كما ان تونس - وهى ابعد نقطة على ساحل افريقيا الشمالى - لا تبعد عن جزيرة لابيدوسا الايطالية باكثر من تسعين ميلا. فضلا عن ان الباخرة تقطع المسافة بين ميناء مارسليا والجزائر فى ليلة واحدة. ومع ذلك نجح البحر الابيض المتوسط فى الحيلولة دون وصول قصص الشهامة العربية إلى البلاد الغربية. وكل ما عرفته اوربا عن العرب هو خيانتهم وغدرهم باليهود وعمالتهم للنظام النازى مثل الحاج امين الحسينى مفتى فلسطين.

ويطرح ساتلوف السؤال التالى: هل كان هناك عرب فى اوربا تصرفوا بنفس شهامة عرب شمال افريقيا مع اليهود؟ والجدير بالذكر ان الجيش الفرنسى ضم فى صفوفه فى فترة الحرب العالمية الاولى نحو نصف مليون مسلم عاشوا مع عائلاتهم على الاراضى الفرنسية وما ان لاحت نذر الحرب العالمية الثانية حتى

بادر الفرنسيون بتجنيد مجموعة كبيرة من العرب يصل عددهم إلى ما يقرب من ٣٥٠ ألف مجند. وعندما انهارت فرنسا امام ألمانيا النازية وقع كثيرون منهم اسرى فى يد القوات الالمانية التى وضعت معظمهم فى معسكرات خاصة بمعزل عن الاسرى من الجنود الاوربيين. وحاول النازيون كسب هؤلاء الاسرى العرب إلى جانبهم عن طريق تزويدهم بالطعام الحلال الذى يتفق مع الشريعة الإسلامية وبناء مساجد لهم داخل معسكرات اعتقالهم فضلا عن امدادهم بالأخبار ووسائل التسلية. ولم يمض وقت طويل حتى ادرك النازيون ان افضل سبيل لضمان ولائهم هو اطلاق سراحهم واعادة معظمهم إلى بلادهم الاصلية فى شمال افريقيا ايام حكومة فيشى. ومع ذلك فان الآلاف منهم ظلوا يعيشون فى فرنسا. والجدير بالذكر ان آلاف اليهود العرب كانوا آنذاك ضمن الجالية اليهودية التى تقطن فرنسا. وفى عام ١٩٤٠ كان قد مضى على صدور مرسوم كريمييه الفرنسى المناهض للسامية سبعون عاما. ويمكن القول انه كان من الطبيعى ان يكثر انتقال الجزائريين بين الجزائر وفرنسا عن طريق البحر الابيض المتوسط. وبمرور الاعوام اخذ آلاف المغاربة والتونسيين يسافرون إلى الاراضى الفرنسية إما طلبا للعلم أو العمل.

اضيف إلى ذلك ان نحو ألفى يهودى مهاجر من البلاد العربية «ممن لا يحملون الجنسية الفرنسية» وجدوا انفسهم واقعين فى مصيدة حيث انه لم يكن بمقدورهم مغادرة اوربا لانه لم يكن لهم جذور أو صداقات أو موارد أو حماية فى اماكن اخرى. فلا غرو اذا رأينا النازيين يزجون بهم فى معسكرات الاعتقال. ويقدر ساتلوف عدد الهالكين منهم فى غرف الغاز وفى هذه المعسكرات بألفى ومائتى يهودى عربى. ويرى ساتلوف انه لابد ان تكون هناك صلات بين اليهود العرب والعرب القادمين من شمال افريقيا إلى فرنسا . فاليهودى العربى المهاجر إلى فرنسا كان اقرب إلى قلب العربى الذى يعيش على الارض الفرنسية من الفرنسى القح. فهما

ينتميان إلى نفس البيئة الثقافية والحضارية. كما ان العربى اعتاد على نمط حياة اليهودى الشرقى «السفارديم» فى حين كانت حياة الفرنسى المحلى غريبة عنه تماما. ولهذا يقول ساتلوف انه ليس من المستغرب ان نرى بعض العرب يمدون يد المساعدة لبعض اليهود الواقعين تحت نير اضطهاد حكومة فيشى لهم تماما مثلما حدث فى شمال افريقيا. ويأسف ساتلوف لان التاريخ لا يذكر اسم اى عربى قدم العون إلى يهود اوربا باستثناء سى قدور بنغابريت رئيس المسجد الاعظم فى باريس. وهو مسجد يقع على الضفة اليسرى لنهر السين بالقرب من مخازن الكتب التابعة لجامعة السوربون وهى لا تبعد اكثر من نصف ميل من الكنيسة الشهيرة كاتدرائية نوتردام. وقد تم تشييد هذا المسجد فى عقد العشرينيات من القرن العشرين كهدية مقدمة من الحكومة الفرنسية تكريما لنحو مائة ألف جندى مسلم ضحوا بحياتهم دفاعا عن فرنسا فى الحرب العالمية الاولى ويمثل هذا العدد خمس عدد الجنود المسلمين الملتحقين بخدمة الجيش الفرنسى. ولم يكن هدف فرنسا من تشييد هذا المسجد دينيا فحسب بل كان سياسيا ايضا، حيث ان فرنسا كانت شديدة الحرص على توثيق علاقة المهاجرين العرب بباريس عن طريق السلطة الدينية الإسلامية التى تمثلهم.

كان سى قدور بنغابريت «وهو اختصار لاسم سيدى عبدالقادر بن غابريت» زعيما دينيا ومرشدا روحيا مرموقا. وكانت تربطه بالدوائر السياسية الفرنسية اوثق الروابط. ولد سى قدور عام ١٨٦٨ فى مدينة سيدى بن عباس الجزائرية و تخصص فى دراسة الشريعة الإسلامية. وكان من المتوقع ان يتبوأ ارفع المناصب الدينية. ولكنه غير اتجاهه فى منتصف عقد العشرينيات من القرن العشرين. فقد عمل كمترجم فى المفوضية الفرنسية فى ميناء طنجة الدولى. واستطاع هذا الرجل فى خلال العقدين التاليين ان يكسب رضاء السلطات الفرنسية وبلاط سلطان المغرب

عليه لدرجة انه تم تعيينه عام ١٩٠٣ مديرا للقنصلية الفرنسية فى فاس واستطاع بلباقته اقناع السلطان الجديد بقبول وجود بعثة فرنسية هناك عام ١٩٠٨. كما انه ساعد فى اجراء المفاوضات حول ترسيم الحدود بين الجزائر والمغرب بموجب اتفاقية وقعت فى باريس عام ١٩١٠ كما انه ساعد على توقيع اتفاقية بين فرنسا والمانيا عام ١٩١١. علما بانه عمل فى خدمة السلطان المغربى كرئيس البروتوكول لبعض الوقت.

كان قدور شديد الولاء لفرنسا وقد شهد له المسئولون الفرنسيون بتقديم خدمات جليلة إلى المصالح الفرنسية، ورغم ولائه العظيم لفرنسا فانه استطاع ان يصبح زعيما مرموقا فى المؤسسات الإسلامية وكانت الحرب العالمية الاولى نقطة تحول فى حياته. ففى اوائل عام ١٩١٧ اصبح رئيس منظمة دولية موقرة تشرف على الاوقاف الإسلامية والاماكن المقدسة فى الجزائر. وفى اواخر عام ١٩١٧ شغل قدور منصب قنصل عام شرفى لفرنسا كما انه اضطلع بمهمات دينية فى كل من شمال افريقيا واوربا لخدمة المجندين الفرنسيين التابعين للجيش الفرنسى. وقد امضى سنتين فى خدمة وزارة الخارجية الفرنسية كموجه للديبلوماسية الفرنسية فى الفترة اللاحقة على الحرب بشأن مصير سوريا. ثم بدأ فى عام ١٩٢٠ مشروعا استهلك كل وقته وطاقته وظل شغله الشاغل حتى وفاته. وفى العام المشار اليه (١٩٢٠) كلفه البرلمان الفرنسى بانشاء مسجد فى باريس استغرق تشييده ستة أعوام كاملة وقد حضر حفل افتتاح المسجد سلطان مراكش ورئيس جمهورية فرنسا. وفى هذا الاحتفال اعلن قدور ان حضور الرئيس الفرنسى حفل افتتاح المسجد جاء تتويجا لتوثيق العلاقة بين فرنسا والإسلام فى اتحاد ابدى لا تنفصم عراه. واستمر قدور فى ادارة المسجد حتى وفاته عام ١٩٥٤ إلى جانب اضطلاعه بمهامه الرسمية فى تمثيل الحكومة الفرنسية. ودفن الرجل داخل المسجد ويبدو ان وفاته جاءت فى الوقت المناسب

حيث ان شهر العسل الذى ساد العلاقات الودية بين المسلمين والفرنسيين لمدة ثلاثة عقود متتالية انتهى وانتهت معه الوحدة الابدية التى جمعت بينهم. وتصادف انه توفى فى نفس العام الذى بدأت فيه الجزائر تناضل بقوة من اجل الحصول على استقلالها من فرنسا. وايضا لم يمض على وفاته فى عام ١٩٥٤ عامان حتى حصلت مراكش وتونس على استقلالهما من فرنسا. وبات من الواضح ان طريقة قدور فى الحصول على حلول وسط بين العالم الاسلامى وفرنسا لم تعد مجدية الامر الذى يذكرنا بفشل السياسة الليبرالية التى اتبعتها كوكبة من الزعماء العرب وشمال افريقيا امثال سى على سكات ومحمد شفيق.

ويعتبر ساتلوف قدور بنغابريت واحدا من العرب الذين انقذوا اليهود من الاضطهاد النازى. فهناك حكايات كثيرة عن الدور الذى لعبه المسجد فى باريس فى انقاذ اليهود جاءت على لسان طيار يهودى من شمال افريقيا يدعى ألبرت اسولين زج به الألمان فى احد معسكرات الاعتقال. يقول اسولين فى هذا الشأن انه نجح فى الهرب من هذا المعسكر برفقة سجين جزائرى يدعى سى رباح واجتياز الضواحى والوصول إلى الحدود الفرنسية الالمانية. وتوجها شطر باريس. وما ان وصلا إلى باريس حتى لاذا بالمسجد الذى وفر لهما الحماية المنشودة. ويرجع الفضل فى ذلك إلى ان رباح كان له معارف كثيرون فى الجالية الجزائرية. وفى نهاية المطاف اكمل اسولين رحلته وانضم إلى صفوف جيش فرنسا الحرة الذى حارب الاحتلال النازى لفرنسا. ويسلط اسولين الضوء على الدور الذى لعبه مسجد باريس فى حماية اليهود وتوفير ملاذ آمن لهم من النظام النازى وحكومة فيشى الموالية له إلى جانب حماية المحاربين الاخرين ضد الفاشية. وفى عام ١٩٨٣ نشر اسولين مقالا فى مجلة يصدرها قدامى المحاربين الفرنسيين باسم «أخبار المحاربين» قال فيه ان مالا يقل عن ١٧٣٢ من رجال المقاومة وجدوا ملاذا آمنا فى سراديب المسجد الموجودة تحت الارض وكان

هؤلاء المختبئون يضمون مسيحيين ويهودا إلى جانب بعض المسلمين الفارين.

ويذهب اسولين إلى ان اغلبيتهم كانوا من اليهود والمسلمين الهاربين. وطبقا لرواية اسولين عرض كبير أئمة المسجد محمد بتزاووا حياته للخطر بسبب اخفاء هؤلاء اليهود وتزويد الكثيرين منهم ببطاقات هوية إسلامية لحمايتهم من فتك النازيين بهم أو ترحيلهم. ويذكر اسولين ان الجنود الألمان شموا رائحة دخان السجائر داخل المسجد. وحيث انهم كانوا يعلمون علم اليقين ان التدخين ممنوع فى المساجد ودور العبادة فقد شكوا فى وجود بعض المختبئين فى المسجد مما جعلهم يجدون فى البحث عنهم. غير ان هؤلاء اليهود تمكنوا من الهرب عن طريق انفاق الصرف الصحى التى تصل المسجد ببعض المبانى المجاورة. ولهذا يعتبره ساتلوف على رأس الاتقياء العرب.

ويعبر ساتلوف عن أسفه لان احدا لم يتقدم لتأكيد اقوال اسولين رغم مرور ستين عاما على نهاية الحرب العالمية الثانية. ولم يتقدم يهودى أو غير يهودى واحد للشهادة بانه وجد ملاذا آمنا فى هذا المسجد.

ويذكر اسولين انه اعتمد فى تحديده لعدد اللاجئين إلى المسجد على ملف عثر عليه بداخله يحتوى على بطاقات التموين. ولكن الذى يضعف شهادته ـ كما يقول ساتلوف ـ ان احدا غيره لم يؤكدها. ولكن ساتلوف يعود فيذكر ان عدم تأكيد اى شاهد اخر بصحة هذه المعلومة لا يعنى بطلانها، ولا ينفى مطلقا ان المسجد وأئمته قدموا المعونة لليهود فى فترة الحرب العالمية الثانية.

ويضيف ساتلوف ان مخرج الافلام الوثائقية الفرنسية المنحدر من قبائل البربر الجزائرية ديرى بيركانى كان يصدق كل ما اورده اسولين فى هذا الشأن. وقد بلغ تأثر بيركانى بقصة مسجد باريس الذى تحول إلى ملاذ آمن لليهود مبلغا جعله يحول هذه القصة عام ١٩٩١ إلى فيلم بعنوان «مسجد باريس: المقاومة المنسية». وهو فيلم

مدته نصف ساعة اذيع عبر التليفزيون الفرنسى عقب اذاعة قصة امرأة فرنسية شابة انخرط جدها الجزائرى فى صفوف المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى. فاردته قوات الاحتلال النازى قتيلا فى شارع قريب من المسجد. واطلت حفيدته داخل هذا المسجد لعلها تعرف السبب فى مقتل جدها: فاكتشفت وجود جماعة مسلمة بادر المسئولون عن المسجد بايوائهم فيه وحماية الهاربين من معسكرات الاعتقال النازية فى شمال افريقيا. وقد وجد جنود المظلات الامريكان والانجليز الذين تمكنوا من الهرب من معسكرات الاعتقال الرعاية الطبية والملاذ الآمن فى مستشفى اسلامى - فرنسى قريب من موقع المسجد.

ويصور الفيلم الوثائق الفرنسى الذى اخرجه ديرى بيركانى شخصية اسولين الذى يظهر على شاشة التليفزيون ليروى لنا قصة هروبه من معسكر الاعتقال النازى وألتجائه إلى المسجد كما يصور الانفاق المحفورة تحت المسجد والتى تغص بمئات اللاجئين من اليهود. و طبقا لما جاء فى هذا الفيلم كان قدور يحتفظ بزر خاص يضغط عليه فى حالات الطوارئ لتنبيه اليهود المختبئين فى المسجد لوجود خطر عليهم.. فيسرعون بالتكدس فى اقدس مكان فى المسجد لم يكن مسموحا لغير المسلمين بالدخول فيه. وبالاضافة إلى ذلك يصور الفيلم طبيبا مسلما اسمه احمد سميا يعمل فى وزارة الصحة وهو يدلى بشهادته عن قيام قدور باخفاء طفل يهودى صغير فى نحو السابعة أو الثامنة من عمره فى منزله الخاص.

يقول الشاهد احمد سميا فى هذا الشأن: «لقد شعر سى قدور ان من الواجب عليه ان يفعل شيئا من اجل انقاذ هذا الطفل اليهودى اليتيم». وقد حل قدور مشكلة هذا الطفل بان زوده بشهادة صادرة من المسجد بانه مسلم الامر الذى اتاح له فرصة العيش والتنقل بكامل حريته.

يقول ساتلوف ان هذه القصة وجدت نوعا من الدعم والتأييد

فى يونيو عام ٢٠٠٥ عند وفاة سالم «أوسيمون» حلالى المغنى العالمى الشهير فى مدينة كان الفرنسية. ولد هذا المغنى عام ١٩٢٠ فى قبيلة من البربر اليهود تعيش فى عنبة «التى كانت تسمى بون فيما مضى» بالقرب من الحدود الجزائرية التونسية. وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره سافرإلى فرنسا حيث احترف الغناء فى الكباريهات. ولم يمض وقت طويل حتى اصبح حلالى اشهر مغنى شرقى فى كل ارجاء فرنسا. ادخل حلالى الموسيقى الاندلسية إلى فرنسا واصبح معبود الجماهير الفرنسية.

والجدير بالذكر ان موسيقاه كانت مزيجا من الموسيقى اليهودية والعربية وموسيقى البربر. وعندما توفى حلالى قرظه نقاد الموسيقى ووصفوه بانه «اجمل صوت عربى فى سنوات ما بعد الحرب». وقد ظل هذا الرجل يغنى على مدى اربعة عقود متصلة.

يقول ساتلوف ان الفضل فى انقاذ حياة حلالى وبالتالى فيما اصابه من نجاح يرجع إلى مسجد باريس. وهذا واضح من كل نعى نشر عنه سواء كان هذا النعى منشورا فى فرنسا أو شمال افريقيا. فلولا اريحية قدور وسعة حيلته لحكم النازيون على حلالى بالترحيل والهلاك.

وقد نشر الكاتب الفرنسى فيدام ابدى مقالا فى صحيفة ليبراسيون الباريسية جاء فيه ان حلالى وجد نفسه وحيدا ومحبطا عام ١٩٤٠ عندما التحق اعز اصدقائه بخدمة محطة اذاعة برلين التى كانت اقوى بوق دعاية للنظام النازى. وعندما اخذت حكومة فيشى تطارد اليهود لجأ حلالى إلى مسجد باريس للاحتماء فيه. وانقذه قدور من الخطر المحدق به بان استخرج له شهادة من المسجد بانه مسلم. وحتى يصدق الناس ان أحد اسلاف حلالى مسلم قام قدور بحفر اسم جد حلالى على قبر مهجور فى مدافن المسلمين فى منطقة بوبجنى.

ورغم ان بيركانى مخرج الفيلم الوثائقى يشير اشارة عابرة إلى قصة حلالى إلا انها كانت معروفة لدى القاصى والدانى. والجدير

بالذكر ان السلطات الألمانية كانت ترجع إلى ملفات مسجد باريس للتأكد من صحة زعم البعض بانهم مسلمون بالفعل.

ويرى بعض اليهود الذين يعيشون فى فرنسا انه يستحيل التأكد من عدد الذين ادعوا الاسلام لتجنب المكاره والترحيل. وزاد من صعوبة التيقن من اسلامهم ان اليهود - مثل المسلمين - تجرى لهم عملية الختان. والجدير بالذكر ان حكومة فيشى اعتمدت على الختان فى تمييز اليهود عن الفرنسيين المسيحيين. كما ساعد يهود شمال افريقيا فى ادعاء الاسلام اشتراكهم فى كثير من الحالات فى تفسير الاسماء والالقاب العربية. ومع ذلك فقد حاول بعض غلاة الألمان والمسئولين فى حكومة فيشى تتبع اشجار بعض العائلات اليهودية على مدى جيلين. ولكن تعذر ذلك لعدم وجود هذه السجلات اصلا أو وجودها فى بلدان وقرى نائية ومغمورة يحتفظ بها أئمة المساجد المحلية أو شيوخ البلد. ولهذا وجد الألمان انفسهم فى حيرة من امرهم مما اضطرهم إلى الاعتماد تماما على المعلومات المسجلة فى مسجد باريس. وكانت حياة اليهودى المتحول إلى الإسلام تعتمد اعتمادامطلقا على رد ادارة مسجد باريس فاذا قالت ان هذا اليهودى أو ذاك لا يدين بالإسلام فإنه يلقى نفس المصير الذى يلقاه اليهود طبقا للقوانين النازية وقوانين حكومة فيشى.

وحتى يستجلى الأمر بنفسه سافر ساتلوف إلى باريس فى اكتوبر عام ٢٠٠٥ للاستفسار عن الإمام الحالى لمسجد باريس وهو دليل بوباكير الذى يشغل مركزا شديد الحساسية. فهو إلى جانب ادارته لمسجد باريس يرأس منظمة تضم جميع المسلمين الفرنسيين يطلق عليها المجلس الاستشارى الفرنسى للمؤمنين بالإسلام. وهو مركز بالغ الحساسية يتطلب من شاغله الحصافة والكياسة والديبلوماسية لانه يمثل مصالح مسلمى فرنسا لدى الحكومة الفرنسية كما انه ينقل رغبات الحكومة الفرنسية إلى اعضاء الجالية الإسلامية فى فرنساوهى جالية كبيرة يبلغ تعدادها ستة

ملايين نسمة «اى نحو ١٠٪ من سكان فرنسا وعشرة اضعاف تعداد يهود فرنسا». وزاد الطينة بلة شدة التوتر والاحتقان السائد بين يهود فرنسا وعربها إلى جانب اشتعال مراجل غضب الجالية العربية بسبب ما تتعرض له من تهميش وغبن اجتماعى.

ولم تكن ظروف التقاء ساتلوف ببوباكير رئيس مسجد باريس مواتية حيث ان اللقاء بينهما تم قبل اندلاع اعمال الشغب التى قام بها المهاجرون العرب فى فرنسا فى اكتوبر ٢٠٠٥ بيوم واحد فقط.

ولد بوباكير فى الجزائر وهو طبيب درس علوم الدين والشريعة الإسلامية فى الأزهر وهو رجل مهذب للغاية متعدد الانشطة ينتقل فى يسر بين عوالم مختلفة مثل السياسة والعلم والفلسفة والدين. وقد حصل هذا الرجل على العديد من الأوسمة والنياشين فضلا عن تأليفه لعدد من الكتب.

وقد حذر استاذ فى جامعة السوربون ساتلوف من عدم جدوى مثل هذه المقابلة بسبب عزوف بوباكير عن اماطة اللثام عن الدور الذى لعبه سلفه قدور فى حماية اليهود اثناء الحرب العالمية الثانية حيث ان الكشف عن حماية اليهود فى مكان يحظى بتقديس المسلمين من شأنه ان يثير حنق الجالية المسلمة فى فرنسا ضده.

ثم ان الجو السياسى الآن صار يختلف تماما عما كان عليه ايام قدور الذى كنا نفخر بسعيه الدءوب إلى توطيد علاقة الجزائر بفرنسا، الامر الذى اصبح الان يثير غضب المنتمين إلى الاتجاهات القومية التى بدأت تظهر بقوة على الساحة السياسية الجزائرية فى عقود الثلاثينيات والاربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وكان من الطبيعى ان يأفل قدور بسبب معارضته لهذه الاتجاهات القومية. ولهذه الاسباب توقع ساتلوف فشل مقابلته مع بوباكير.

على اية حال وصل ساتلوف إلى المسجد فى الموعد المحدد لمقابلة بوباكير وما ان نزل من التاكسى الذى اقله حتى اعترته الدهشة لانه رأى امامه مقهى يمور بالنشاط فى شهر رمضان

شهر الصوم والصلاة. غير ان جرسون المقهى طمأنه إلى انه لم يضل الطريق إلى المسجد الكبير فى باريس. وارشده إلى مدخل الجامع ومكاتبه الادارية الواقعة على الجانب الاخرمن المبنى فى شارع جانبى هادئ حيث وجد صديقه الدبلوماسى الفرنسى بيير ثينارد «الذى كان قد تعرف به فى واشنطن» فى انتظاره.. وإلى هذا الدبلوماسى يرجع الفضل فى ترتيب المقابلة بين ساتلوف وبوباكير. وشرح له صديقه الدبلوماسى الفرنسى ان المسجد يدير هذا المقهى لحسابه كى يستفيد من دخله فى تسيير اموره. فضلا عن ان المسجد اقام دورات مياه يستخدمها الزبائن مقابل بعض المال.

توقع ساتلوف ان تكون مقابلته لبوباكير بلا طائل. ولهذا اندهش كثيرا عندما سمع بوباكير يتحدث بصراحة وفخر عن الدور الذى لعبه مسجد باريس فى انقاذ اليهود من الهولوكست. ولكن بوباكير آثر ان يضع هذا الموضوع فى اطاره التاريخى حتى ينأى بنفسه عن الخوض فى مخاطر السياسة المعاصرة وتعقيداتها التى شاهدت احتدام الصراع الدموى بين المسلمين واليهود. اكد بوباكير سلامة ما ذهب اليه اسولين فى هذا الشأن بقوله: «ان الشهادة الرئيسية على صحة الاحداث التى جرت فى المسجد على لسان طيار فرنسى اسمه اسولين وقع فى الاسر ولكنه استطاع الهرب من الجزائر بصحبة عربى مسلم من الجزائر يدعى رشيد للاحتماء بالمسجد الذى توجد تحته انفاق كما يجرى اسفله نهر يمثل اروع مكان يمكن للمرء الاختباء فيه وهناك اختبأ الرجلان. «والجدير بالذكر ان اسولين فى روايته لقصة اختبائه يطلق على رفيقه الجزائرى اسما يختلف عن اسم رشيد» ورغم اعتراف بوباكير بصحة ما قاله اسولين عن نفسه فانه استبعد ان يكون المسجد قد وفر ملاذا آمنا لمثل هذا العدد الهائل من اليهود الذى ذكره اسولين فى شهادته. يقول بوباكير فى هذا الشأن: «لقد ذكر اسولين فيما بعد ان نحو ١٧٠٠ يهودى اختبأوا هناك. ولكن هذا لا يعدو ان

يكون اسطورة.. وتقول الاوراق الرسمية ان الانفاق المحفورة تحت المسجد كانت فى الاصل مخابئ للحماية من الغارات الجوية.

ولهذا ذهب بوباكير إلى انها كانت ملاذا لجميع اهل باريس وليست ملاذا لليهود بالذات. واذا كان بعض اليهود قد اختبأوا فى هذه الانفاق فانهم جاءوا بوصفهم باريسيين يبحثون عن مخبأ وليس باعتبارهم يهودا ويبحثون عن ملاذ آمن. واضاف بوباكير انه سبق له التجوال فى هذه الانفاق عقب تعيينه مديرا للمسجد فلاحظ وجود اشارة باللغة الفرنسية تصف المكان بانه مخبأ. ورغم انكار بوباكير لقصة اسولين التى تبالغ فى عدد المختبئين فى سراديب المسجد فانه لم يستبعد تماما اختباء بعض اليهود هناك. صحيح ان بوباكير دافع عن الدور الانسانى الذى لعبه مسجد باريس فى تعامله مع اليهود بوجه عام إلا انه امتنع فى البداية عن الادلاء باية تفصيلات حول هذا الدور باستثناء اقراره بان المسجد استضاف الطيار اليهودى اسولين لبضعة ايام فى عام ١٩٤٠ والانطباع الذى خرج به ساتلوف من مقابلة بوباكير هو ان المسجد لعب دورا انسانيا فى مساعدة اليهود دون تحديد نوع هذه المساعدة.

عندئذ سأل ساتلوف بوباكير اذا كان المسجد قد اصدر شهادات هوية اسلامية لبعض اليهود حتى لايقعوا تحت طائلة قوانين فيشى رد عليه بوباكير بالايجاب دون ادنى تردد. واستطرد بوباكير قائلا: «صحيح ان المسجد اصدر بطاقات هوية إسلامية لبعض اليهود. وربما يرجع هذا إلى ان اسماء يهود شمال افريقيا كانت قريبة للغاية من اسماء المسلمين».

واعترف بوباكير ان الألمان مارسوا ضغوطا على المسجد وانهم ارادوا استغلاله للدعاية لانفسهم بين المسلمين. يقول بوباكير فى هذا الشأن: «كانوا يرغبون دائما فى زيارة المسجد وذات مرة خشينا ان يزرنا هتلر بنفسه. حاولنا مقاومتهم ولكن المقاومة لم تكن باستمرار ممكنة.

وجاءنا بعض كبار المسئولين الألمان والتقطوا بعض الصور. وفى عام ١٩٤٣ «بعد غزو قوات الحلفاء لشمال افريقيا» بدأ الألمان يفرضون قيودا اكثر على انشطة المسجد.

وسأل ساتلوف بوباكير اذا كان يعتبر موقف المسجد من اليهود ينم عن الشجاعة فاكد بوباكير انه موقف شجاع بكل تأكيد. ولكنه اضاف انه موقف طبيعى فى نفس الوقت. وبعد ان نوه بوباكير بالدور الذى لعبه مسجد باريس فى الدفاع عن بعض اليهود ذكر انه رغم استفادة بعض اليهود الاوربيين من اوراق الهوية الاسلامية التى اصدرها المسجد لهم فان المسجد كان اساسا يستهدف مساعدة يهود شمال افريقيا، اى ان المسجد كان يرمى فى الاساس إلى مساعدة اليهود القادمين من البلاد العربية وليس مساعدة يهود اوربا. ثم اضاف ان المسجد لم يصدر لليهود اكثر من مائة بطاقة هوية اسلامية غير ان بوباكير انكر حدوث هذه المساعدة بطريقة منظمة مؤكدا انها كانت عملا فرديا محضا يتم فى تكتم وسرية.

وهكذا انكر بوباكير ان المسجد كمؤسسةدينية اتبع سياسة منهجية ومنظمة لحماية اليهود عن طريق تزويدهم باوراق هوية اسلامية مزورة، مؤكدا ان هذه المساعدة كانت تحدث على المستوى الفردى عندما يأتى بعض الافراد المسلمين برفقة بعض اليهود ويطلبون من المسئولين عن المسجد تقديم العون إلى هؤلاء اليهود.

واضاف بوباكير ان سلفه قدور بنغابريت لم يكن يلعب الدور الرئيسى فى اصدار هذه الاوراق بل ان كبير أئمة المسجد سى محمد بنزواو هو الذى اضطلع بالقيام به. صحيح ان قدور كان يشرف على المسجد فى فترة الحرب العالمية الثانية ولكنه ركز نشاطه على الشئون الخارجية والسياسية وعلى علاقة الجالية المسلمة فى فرنسا بالدولة. ويقر بوباكير ان قدور كان على علم كامل بكل ما يدور حوله ولكنه كان يغض الطرف عنه ويترك أئمة المسجد يقدمون المساعدات لليهود. واستطرد بوباكيران بعض

المسلمين انخرطوا فى اعمال المقاومة ضد الاحتلال النازى وحاربوا فى صفوف قوات الحلفاء. كما ان بعض الاطباء المسلمين قدموا خدمات جليلة لليهود ولكن التاريخ اغفلها وجعلها طى النسيان. ومن ثم فليست هناك اية وثائق أو سجلات تذكر هذه المساعدات. بل هناك روايات شفوية تتناقلها الألسنة.

واتضح لساتلوف من حديث بوباكير انه لم يكن اول من زار مسجد باريس للسؤال عن المساعدات التى قدمها المسلمون لليهود فى محنتهم ابان الحرب العالمية الثانية. فقد سبق لممثلى ادارة الاتقياء فى ياد فاشيم والتابعة للمتحف الرسمى لذكرى الهولوكست فى اسرائيل ان زاروا مسجد باريس للوقوف على حقيقة ما حدث. وتضطلع ادارة متحف ياد فاشيم بفحص وتمحيص القصص المختلفة التى تدور حول انقاذ اليهود للتأكد من مصداقيتها قبل تصنيف القائمين بعمليات الانقاذ بانهم اتقياء بين الامم.

وقد اهتمت ادارة ياد فاشيم بالتحرى عن الدور الذى لعبه قدور فى هذا الصدد. وذكر بوباكير انه اطلع زواره الاسرائيليين على حقيقة الموقف وعلى الدور العظيم الذى لعبه هذا المسجد فى انقاذ المستجيرين به ولهذا طلب من ادارة الاتقياء التابعة لمتحف ذكرى الهولوكست فى اسرائيل الاعتراف بدور مسجد باريس الشهم فى انقاذ اليهود ولكن هذه الادارة ردت عليه بقولها ان مهمتها تنحصر فى الاعتراف بالاشخاص وليس المؤسسات التى لعبت دورا فى حماية اليهود. وايضا رفضت ياد فاشيم اقتراح بوباكير ان تضع لافتة تقول: «فى هذا المسجد تم انقاذ اليهود خلال فترة الحرب».

ثم حاول ساتلوف ان ينتزع من بوباكير اعترافا ان سلفه قدور قام بانقاذ حياة مائة يهودى وانه كان يستحق اعتراف ياد فاشيم بانه واحد من الاتقياء بين الامم. عندئذ اتخذ بوباكير من سلفه قدور موقفا مائعا وغائما ذاكرا ان هناك صورا فوتوغرافية قد توحى بازدواجية موقف سلفه وتأرجحه بين ارضاء الفرنسيين والألمان على حد سواء فهذه الصور تصور قدور وهو يرافق

الضباط النازيين اثناء زيارتهم للجنود الألمان المصابين فى ميدان القتال كما تصور استضافة قدور لهؤلاء الضباط الألمان لزيارة باحة المسجد وحتى لا يسلط بوباكير الضوء على الدور المزدوج الذى لعبه سلفه فى اقامة علاقات متوازنة بين قوات الاحتلال النازى وبين عناصر المقاومة الفرنسية المناهضة لهذا الاحتلال نراه يختتم حديثه بقوله: «ليس هناك اى شك فى الدور الذى لعبه المسجد فى انقاذ اليهود ولكن اتحفظ بالنسبة لقدور بنغابريت. فقد اغمض هذا الرجل عينيه حتى لا يرى ما يحدث حوله من عمليات انقاذ اليهود.. إن قدور مدفون هنا وانا أجله واحترم ذكراه. وبطبيعة الحال نحن نحافظ على الاسطورة التى يروج لها اسولين باخفاء ١٧٠٠ يهودى تحت ارض المسجد. ولكن الحقيقة تختلف عن هذا بعض الشيء. وحتى لوكانت الحقيقة مختلفة وحتى ولو كان الذى تم انقاذه مجرد يهودى واحد .. فهذه فى حد ذاتها حقيقة على جانب كبير من الاهمية».

واحس ساتلوف بانتهاء الغرض من مقابلته لبوباكير فتأهب للانصراف. غير ان بوباكير فاجأه بان التقط ملفا ضئيلا من فوق منضدة بجواره واخرج بوباكير ورقة واحدة من هذا الملف. وكانت هذه الورقة صورة منسوخة لوثيقة تحتفظ بها دار الوثائق الفرنسية ويرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٤٠. وهى عبارة عن مذكرة مكتوبة بالآلة الكاتبة رفعها نائب مدير الادارة السياسية إلى وزير الخارجية الفرنسية يبلغه فيها باجراء معين اتخذته السلطات الألمانية فى باريس. وفيما يلى نصها:

«تشك سلطات الاحتلال ان العاملين فى مسجد باريس قاموا بتزوير شهادات تفيد بانتماء بعض الافراد اليهود إلى الدين الإسلامى ولهذا قامت هذه السلطات باستدعاء امام المسجد وتهديده بالويل والثبور وعظائم الامور اذا لم يضع حداً لكل هذه الممارسات. ويبدو بالفعل ان عددا من اليهود لجأوا إلى كل هذه الحيل والمناورات لإخفاء هويتهم الحقيقية».

وايضا عبر بوباكير فى حضرة ساتروف عن أسفه على فوات ايام الود والوفاق التى ربطت المسلمين باليهود. فقد ولت هذه الايام ليحل محلها ما تشهده الآن من صراع دام بين الاسرائيليين والفلسطينيين. ويبدو ان بوباكير اعد مسرحية صغيرة تهدف إلى الاشادة بسماحته الدينية وبعده عن التعصب فقد استدعى احد المؤرخين اليهود الذى حضر على وجه السرعة ليقرأ فى حضرة ساتلوف خطابا يشيد بسماحة بوباكير الدينية وعطفه على اليهود.

ويستطرد ساتلوف ليذكر ان الموقع الألكترونى على شبكة الانترنت الخاص بسيرة حياة قدور بنغاريت يشيد بالدور المهم الذى لعبه هذا الرجل العربى الشهم فى حماية اليهود من شرور النازية فضلا عن انه وفر الحماية للمقاومة الفرنسية ضد النازية. كما ان الموقع الالكترونى الخاص بهذا الرجل يشير إلى اليهودى ابراهام اسولين الذى قال ان مسجد باريس انقذ حياة ١٧٣٢ يهوديا من براثن الألمان دون انكار أو تأكيد لصحة هذا العدد.

وأيا كان موقف بوباكير من سلفه قدور بنغابريت فانه اكد صحة المعلومات التى تفيد بان المسئولين العرب عن المسجد الاكبر فى باريس لعبوا دورا نشطا فى انقاذ بعض اليهود من النظام النازى معرضين انفسهم للخطر العظيم. وطبقا لما يقوله بوباكير فان المسجد انقذ مائة يهودى وليس ١٧٣٢ كما يزعم اسولين.

وقبل انصرافه طلب ساتلوف من بوباكير السماح له بالاطلاع على جميع ملفات وسجلات المسجد الخاصة باصدار شهادات لليهود بانهم مسلمون فوافق على ذلك. ولكن سوء حظ ساتلوف اندلعت اعمال الشغب بين الجالية العربية الساخطة فى ضواحى باريس فى اليوم التالى لهذه الموافقة.

ويختتم ساتلوف كتابه بقوله انه ليس من المهم من قام بانقاذ اليهود: هل هو قدور بنغابريت كشخص أو مسجد باريس كمؤسسة . ولكن المهم ان نعرف ان بعض العرب فى قلب اوربا انقذوا اليهود من الإبادة النازية.

الفصل الحادى عشر والاخير

العرب يبدأون الاعتراف بوجود محرقة يهودية

سبق ان ذكرنا ان هناك قسما فى متحف الهولوكست القومى فى اسرائيل معروف باسم ياد فاشيم يضطلع بمهمة التعرف على الاتقياء بين الأمم، أى بين غير اليهود الذين لعبوا فى انقاذ اليهود من المحرقة معرضين بذلك انفسهم للخطر الداهم، دون ان ينتظروا ثوابا أو شكورا. ويبلغ عدد هؤلاء الاتقياء والشجعان حتى يومنا الراهن ٢١٣١٠ أشخاص يضمون بعض المشاهير من ابطال الحرب العالمية الثانية مثل الدبيلوماسى السويدى راؤول والنبرج ورجل الصناعة الالمانى المعروف اوسكار شندلر. وهؤلاء الاتقياء لا ينتمون إلى جنسية أو ملة واحدة فمنهم مسيحيون من كل ارجاء اوربا ومنهم مسلمون من كل من تركيا والبوسنة وألبانيا. فضلا عن وجود بعض الأتقياء فى بلاد نائية مثل البرازيل لم تعرف ظاهرة الهولوكست النازية امثال لويس مارتنز دى سوزا واتاس واليابان مثل شيون سمبو سوجيهارا والصين مثل فينج شان وبان جون شون.

بحث ساتلوف فى قائمة الأتقياء الذين كرمهم متحف ياد فاشيم فلم يعثر على اسم عربى واحد انقذ يهوديا واحدا من المحرقة. ولم يقتنع ساتلوف بهذه النتيجة السلبية فليس من المعقول ألا نجد عربيا واحدا يفيض قلبه بالمشاعر الانسانية ولا

يحاول ان يحمى يهوديا من الاضطهاد النازى أو الفاشى أو حكومة فيشى. ورغم ما سبق لساتلوف ان ذكره فى النصف الاول من كتابه من ان بعض العرب ساعدوا الاحتلال النازى فى التنكيل باليهود فاننا نراه يؤكد فى النصف الثانى من الكتاب ان بعضهم الاخر تقدم لمساعدتهم فى محنتهم. واضاف ساتلوف ان بعض العرب لم يعرفوا شيئا عن التنكيل باليهود الواقع فى بلادهم وبين ظهرانيهم فى فترة الحرب العالمية الثانية. فقد اعترتهم الدهشة الشديدة عندما اخبرهم المؤلف بذلك. فضلا عن انهم اعربوا عن سخطهم من ان اوربا المسيحية التى ابادت ملايين اليهود ارادت ان تكفر عن ذنبها باقامة دولة اسرائيل وإلحاق البؤس والشقاء والتعاسة بالشعب الفلسطينى عبر اجياله المتوالية. وتمنى بعض العرب ان يأتى هتلر جديد ليحقق ما فشل الفوهرر النازى فى تحقيقه. وهو ابادة اليهود عن بكرة ابيهم. وقد ذهب إلى ذلك احمد رامى ضابط الجيش المغربى الذى انشأ اذاعة الإسلام فى ستوكهولم منذ ربع قرن. ويذكر ساتلوف ايضا ان الصحافة المصرية الرسمية التى تملكها الدولة لا تخلو من الثناء العاطر على هتلر ومن الشماتة فيما لقيه اليهود على يد النازيين.

ويرى ساتلوف ان جهل هؤلاء العرب بما فعله النازيون باليهود دفعهم إلى تقريظ هتلر ومدحه. ويأسى ساتلوف لان الاسلاميين المتعصبين وبعض غلاة الثوار القوميين يعتقدون ان الهولوكست لا يعدو ان يكون فرية كبرى اخترعها اليهود وانصارهم لاستدرار عطف العالم عليهم وتبرير اغتصابهم لفلسطين. ويضيف ساتلوف ان موقف المثقفين العرب من الهولوكست اكثر تهذيبا واعتدالا من موقف العامة. فهم لا ينكرون حدوث الهولوكست ولكنهم يتهمون اليهود بتضخيمه والمبالغة فى اعداد ضحاياه.

ولا ينسى ساتلوف بطبيعة الحال ان يلفت النظر إلى وصف الرئيس الايرانى محمود احمد نجاد للهولوكست بالاسطورة كما اضاف ان الرئيس المصرى الراحل جمال عبدالناصر ادلى منذ

اربعين عاما مضت بحديث لصحيفة المانية قال فيه: «لا يوجد شخص مهما بلغت درجة بساطته ان يصدق اكذوبة الستة ملايين ضحية يهودية الذين هكلوا «فى الهولوكست».

وهى نفس الافكار التى عبر عنها الرئيس الراحل ياسر عرفات الذى عرف عنه ادانة الارهاب والاعتدال فى موقفه من قضية السلام، وهو ايضا نفس الموقف الذى تبناه خلفه محمود عباس من قضية الهولوكست.

ففى عام ١٩٨٢ حصل محمود عباس - وهو فى السابعة والاربعين من عمره - على درجة الدكتوراة من مؤسسة اكاديمية سوفيتية عن رسالته «الجانب الاخر: العلاقات السرية بين النازية وقيادة الحركة الصهيونية» ويتهم محمود عباس فى هذه الرسالة الصهاينة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأنهم بالغوا مبالغة فاضحة فى تقدير عدد ضحايا الهولوكست لخدمة مصالحهم السياسية الخاصة. ويستطرد ساتلوف قائلا ان محمود عباس هون من شأن ضحايا النازية من اليهود بقوله ان المانيا فى الحرب العالمية الثانية فقدت عشرة ملايين والاتحاد السوفيتى عشرين مليونا فضلا عن الضحايا الاخرين فى كل من يوغسلافيا وبولندا وغيرهما. ومعنى هذا ان محمود عباس يرى ان ابادة اليهود ليست نسيجا يختلف عن الابادات الاخرى التى حدثت لغير اليهود. ومن ثم فليست لليهود احقية فى المطالبة بوطن قومى فى فلسطين.

وبعد حصول محمود عباس على درجة الدكتوراة باللغة الروسية تمت ترجمة رسالته إلى اللغة العربية ونشرت فى الأردن. غير ان محمود عباس فى الاونة الاخيرة ذكر انه لم يسبق له انكار محرقة اليهود فى يوم من الايام. وعندما تولى رئاسة وزراء فلسطين عام ٢٠٠٣ سأله صحفى اسرائيلى عن موقفه من الهولوكست فرد بقوله انه تناول المحرقة بالتفصيل ولكنه اراد ان يتجنب الخوض فى مسألة عدد ضحاياها.

وايضا يستنكر ساتلوف الرأى الذى ذهب اليه عبدالعزيز الرنتيسى القيادى فى حركة حماس الذى قارن فى احدى مقالاته بين فضائح النازية وفظائع الصهيونية وذهب إلى ان فظائع الثانية تفوق فظائع الاولى. فضلا عن انه استهجن المقابلة التى ادارتها محطة الجزيرة الفضائية مع الأردنى من اصل فلسطينى الدكتور ابراهيم علوش الذى وصم حكام من أمريكا وإسرائيل بالنازية الجديدة. ولذلك ينحى ساتلوف باللائمة على ابراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام ولسان حال الحكومة المصرية بسبب تصريحاته المعادية للسامية الأمر الذى دعا محكمة فرنسية فى اغسطس ٢٠٠٢ إلى اتهامه بالعنف العنصرى ومعاداة السامية عندما كتب يقول: «ان الخبز الخالى من الخميرة الذى يأكله اليهود فى عيد الفصح معجون بدم العرب». واثار هذا الاتهام حفيظة احد زملاء ساتلوف اسمه دافيد ماكوفسكى فكتب إلى إبراهيم نافع يطلب منه التراجع عن اقواله. ولكن ابراهيم نافع رفض قائلا انه يرى ان المقارنة بين النظام الاستعمارى والنظام النازى صحيحة وان النظام الذى يستهدف القتل وتدمير الاراضى الزراعية والمنازل والاطلاق العشوائى للنار والقبض على اعداد هائلة من الفلسطينيين واعدام سجناء الحرب هو فى واقع الامر شبيه بالممارسات النازية ضد اليهود والمجتمعات غير اليهودية. وايضا يشير ساتلوف إلى الاستفتاء الذى طرحه فيصل القاسم فى برنامجه الذى تبثه محطة الجزيرة الفضائية: ما هو الأسوأ: الصهيونية أو النازية؟ حيث قال ان ٨٤,٦٪ ان الصهيونية تفوق النازية فى سوئها وان ١١,١٪ يرون ان الصهيونية مساوية للنازية فى حين يرى ٢,٧٪ فقط ان النازية اسوأ من الصهيونية.

ويذكر ساتلوف ان صديقة مغربية قريبة منه تتسم بالفكر الليبرالى المتحرر وكارهة للفكر الإسلامى الاصولى زارته فى واشنطن. وتطرق الحديث معها إلى الوضع السياسى فى الشرق الاوسط فاذا بها تقول له ان لإسرائيل الحق فى ان تعيش ولكنها

اردفت قائلة: «اننى لا اكره الاسرائيليين ولكنى اكره الصهاينة». ويقول ساتلوف انه احتار عندما سمعها تقول ذلك لان الصهيونية فى نهاية الامر هى القومية اليهودية وهى الحركة الداعية إلى اقامة دولة مستقلة ذات سيادة للشعب اليهودى.

واستغرب ساتلوف كيف يمكن لامرأة حساسة وذكية مثل صديقته المغربية ان تعترف بحق اسرائيل فى الحياة ثم تستنكر الصهيونية فى نفس الوقت. ويعلق ساتلوف بقوله ان هذا يرجع إلى مفهومها الخاطئ عن الصهيونية التى تعنى فى نظرها إلحاق الشقاء والعذاب المستمر للعرب.

واستخلص ساتلوف من ذلك ان صديقته المغربية ـ شأنها فى ذلك شأن الكثيرين من العرب ـ تعتقد ان الصهيونية فى نظر العرب تماثل النازية فى نظر اليهود.

يقول مؤلفنا انه زار تونس بعد مرور ستين عاما على تحريرها من براثن النازية على يد الحلفاء داعيا التونسيين إلى الاحتفال بيوم تحريرهم. فاذا باحد معارفه ـ وهو استاذ حجة فى كبرى الجامعات التونسية متخصص فى دراسة الاقلية اليهودية التى عاشت فى تونس ـ يبدى استغرابه قائلا له: وعن اى تحرير تتحدث؟، فقد عاد الفرنسيون وهم اسوأ بصورة مطلقة من الألمان ـ إلى احتلالنا!

ويحدثنا ساتلوف عن زيارته لعائلة احد التونسيين المرموقين يدعى محمد شفيق فى منزله الانيق فى قرية سيدى بوسعيد المطلة على البحر الابيض المتوسط. شغل محمد شفيق ـ وهو رجل اعمال بارز ـ منصب رئيس وزراء تونس فى فترة الاحتلال النازى لهذا البلد. يقول مؤلفنا انه يعتبر هذا الرجل واحدا من اتقياء العرب. كان شفيق فى يوم ما يرأس الغرفة التجارية التونسية ويخالط بحكم عمله كثيرا من اليهود ويصادقهم. فضلا عن ان محاميه الخاص كان من اليهود.

وقد سعى شفيق إلى الحفاظ على المصالح القومية التونسية

رغم الاحتلال النازى لبلاده كما انه استغل منصبه الرفيع فى تحذير زعماء اليهود من عزم النازيين على إلقاء القبض عليهم وفى توسطه لدى هؤلاء النازيين لاعفاء ابناء اصدقائه اليهود من الزج بهم فى معسكرات العمل. ورغم ان فرنسا الحرة استبعدته من وظيفته عقب زوال حكومة فيشى فإنه تمكن من العودة إلى سدة الحكم فى تونس واجراء مفاوضات الاستقلال عن فرنسا فى اوائل عقد الخمسينيات من القرن العشرين. ولكن بعد حصول تونس على استقلالها من فرنسا عام ١٩٥٦ نسى التونسيون الدور الوطنى الذى قام به هذا الرجل واتجهوا إلى تمجيد الحبيب بورقيبة واعتباره زعيمهم القومى. يقول ساتلوف انه اخطأ عندما ظن ان عائلة شفيق سوف ترحب بإماطة اللثام عن الدور الانسانى الذى لعبه شفيق فى انقاذ بعض اليهود فقد اتضح له انها لا ترغب فى ذلك. صحيح ان افراد هذه العائلة عاملوه بكرم حاتمى ودماثة خلق. ولكنهم لم يساعدوه فى بحثه فى قليل أو كثير. وبدا من طريقة توديعهم له انهم لا يريدون ان يسمعوا منه أو ان يروه مرة اخرى. ولم يكن هذا الموقف السلبى مقصورا على عائلة شفيق وحدها بل امتد إلى عائلات كثيرة اخرى لم ترغب فى معرفة اى شىء عن الهولوكوست الذى اعده النازيون لليهود فى تونس.

وفى مراكش حاول ساتلوف الحصول على المستندات والوثائق الخاصة بانشاء خطوط السكك الحديدية العابرة للصحراء الغربية بواسطة يهود اوربا الذين قامت حكومة فيشى بترحيلهم من الاراضى الفرنسية إلى منطقة الصحراء الكبرى وإلحاقهم بمعسكرات العمل والاعتقال التى اقامتها هناك.. يقول ساتلوف انه كان مقتنعا بأن اضابير سكة حديد مراكش كانت زاخرة بالمعلومات الخاصة بعمال السكة الحديد وان هذه الملفات كانت تحتوى على اسماء اليهود العاملين فى انشاء هذه الخطوط. ولكن ما ان عرف المواطنون المغاربة ان ساتلوف يريد استجلاء العلاقة بين سخرة اليهود وانشاء خطوط السكك الحديدية فى الصحراء الكبرى حتى

امتنعوا عن الادلاء بأية معلومات أو اظهار الملفات الرسمية.. ولكنهم فعلوا ذلك بدماثة خلق وادب جم.

وايضا لاحظ ساتلوف امتناع المسئولين المصريين عن الكشف عن اى دور بطولى قد يكون احد المصريين قد لعبه فى انقاذ اليهود من الهولوكوست.

يقول ساتلوف فى هذا الشأن انه ذهب فى يونيو ٢٠٠٢ لمقابلة امرأة يهودية متقدمة فى السن اسمها دورا ورتسمان كانت تعيش فى نيويورك فافضت اليه بقصة مثيرة عن ريزا اختها الكبرى التى تعيش فى فيينا.

فى عام ١٩٣٦ بلغت ريزا الخامسة عشرة من عمرها. وذهبت هذه الفتاة اليهودية إلى صالة رقص حيث التقت بطالب مصرى يدرس علم الكيمياء اسمه الاصلى حسن ولكنه آثر ان يطلق على نفسه اسم هادى وربطت بينهما وشائج الحب. وفى مارس ١٩٣٨ قامت القوات النازية باحتلال فرنسا الامر الذى عرض حياة ريزا للخطر. ولهذا قرر العاشقان الزواج.. وتعين على الزوج المصرى ان يتجشم مشقة السفر بصحبة زوجته اليهودية إلى السفارة المصرية فى برلين من اجل توثيق زواجهما والحصول على وثائق سفر رسمية تمكنهما من السفر إلى لندن باعتبارهما يحملان الجنسية المصرية. وفى لندن استطاع هادى الحصول على تأشيرة دخول انجلترا لدورا شقيقة زوجته وبعض افراد عائلتها.. وهكذا استطاع هذا المصرى ان ينقذهم من الهلاك فى معسكرات الموت النازية. واعترفت دورا بان النازيين كانوا حتما سوف يجهزون عليهم لولا تدخل هذا المصرى.

ولهذا فكر ساتلوف فى البحث عن حوادث مماثلة لعب فيها الدبلوماسيون العرب دورا فى انقاذ حياة اليهود. وعبثا حاول ساتلوف العثور على دبلوماسى عربى قام بتزويد بعض اليهود بوثائق سفر مزورة لانقاذهم من اضطهاد النازيين. واخيرا قرر ساتلوف الاطلاع على السجلات التى تحتفظ بها البعثات

الدبلوماسية المصرية فى مختلف البلاد الاوربية قبيل اندلاع ألسنة الحرب العالمية الثانية على ١٩٣٩ . وترسخت لدى ساتلوف قناعة ان فحص سجلات الزواج والمواليد فى هذه القنصليات من شأنه ان يميط اللثام عن اسماء بعض اليهود واليهوديات الذين استطاعوا الهرب من اوربا عن طريق مساعدة بعض الدبلوماسيين العرب لهم. ورغم اتصالاته العديدة بعدد كبير من المصريين العاملين فى البعثات الدبلوماسية فانه فشل فى العثور على اى شئ يفيده فى بحثه.

وفى اكتوبر عام ٢٠٠٣ طالع ساتلوف على شاشة الانترنت نص المناظرة التى عقدتها الجامعة الامريكية بالقاهرة حول الشرق الاوسط والتى اشترك فيها كل من السفير الامريكى فى القاهرة دافيد وولش واحمد كمال ابوالمجد . وعندما احتدم الجدل الدائر بينهما التفت احمد كمال ابوالمجد إلى دافيد وولش مخاطبا اياه بشئ من الانفعال: «انكم لا تستطيعون الاستمرار فى ابتزاز العالم بفظاعة الهولوكست فنحن جميعا ندين سياسة هتلر والهولوكست. ولكن كفانا هذا فقد بلغنا نقطة التشبع. ودعونى اتحدث عن هذه النقطة بصراحة مؤلمة.. ان يهود العالم فى خطر بسبب السياسات غير المسئولة التى تتبعها حكومة إسرائيل بدعم من بعض زعماء الجالية اليهودية غير المدركين لعواقب الامور فى الولايات المتحدة.

وانى اكره ان ارى اليوم الذى ينطلق فيه معربدا ذلك العداء العام النائم ضد السامية فى اوربا بالذات وربما فى الولايات المتحدة نفسها. ولكننا نحن العرب لسنا جزءا من هذا العداء كما اننا لسنا جزءا من الهولوكست فنحن لم نقم باضطهاد اليهود ابدا».

يقول ساتلوف معلقا ان كلام احمد كمال ابوالمجد عن خلو البلاد العربية من الهولوكست شجعه على الكتابة اليه مرتين طالبا منه استخدام مساعيه الحميدة للاطلاع على سجلات القنصليات المصرية فى اوربا فى أواخر عقد الثلاثينات فى القرن العشرين.

ولكنه لم يتلق منه اى رد.

وعندما سافر احمد كمال ابوالمجد إلى واشنطن قابله ساتلوف وطلب منه مساعدته فى الاطلاع على ملفات القنصليات فوعده بالمساعدة ولكن هذه المساعدة على حد قول ساتلوف لم تتحقق شأنها فى ذلك شأن اى رجاء آخر تقدم به إلى المصريين.

اعرب ساتلوف من استغرابه من ان العرب لا يصدقون ان اليهود فى البلاد العربية تعرضوا للاضطهاد النازى ولكن استغرابه كان اعظم عندما وجد ان كثيرا من اليهود انفسهم لايصدقون ان بنى جلدتهم عانوا من الاضطهاد النازى فى شمال افريقيا منذ ستة عقود خلت.

يقول ساتلوف انه منذ جيلين فقط «اى نحو ستين سنة مضت» كان يهود شمال افريقيا يعيشون فى رغد ورفاهية من مراكش حتى طرابلس ويتفوقون فى مجالات مختلفة مثل الطب والقانون والعلم والفلسفة والتجارة التى حذقوها عبر مئات الاعوام. ولكن هؤلاء اليهود اصبحوا مهددين فى كل البلاد العربية فى الوقت الراهن. ففى مراكش بلغ عدد سكانها من اليهود ربع مليون نسمة غادر معظمهم البلاد ولم يبق منهم غير خمسة آلاف يهودى تمركزوا فى الدار البيضاء عاصمة المغرب التجارية وفى تونس التى كانت تأوى ما يقرب من نحو مائة وخمسين ألف يهودى لم يبق منها سوى الف وخمسمائة تركز معظمهم فى مجتمعات مغلقة تعيش فى جزيرة جربا فضلا عن ان احوال اليهود فى كل من الجزائر وليبيا اصبحت اكثر سوءا.

ففى عام ٢٠٠٥ علم ساتلوف من موظف فى السفارة الامريكية بالجزائر ان جميع اليهود هناك رحلوا عنها إلى غير رجعة. وفى مايو عام ٢٠٠٤ نشرت صحيفة «تقرير القدس» الاسرائيلية قصة وفاة رينا دباش عن عمر يتجاوز الثمانين وقد وصفتها هذه الصحيفة بانها «آخر يهودية عاشت فى ليبيا».

وكذلك آثر الهجرة فى الخمسين سنة الماضية السواد الأعظم

من يهود مراكش وتونس بسبب العداء للسامية الناجم عن الصراع العربى الاسرائيلى حيث حط الرحال فى اسرائيل وفى البلاد الاوربية التى تتحدث باللغة الفرنسية أو فى كندا. ولم يبق من يهود البلاد العربية الواقعة فى شمال افريقيا سوى الاثرياء منهم ثراء فاحشا والتى ارتبطت مصالحهم المادية بالعيش فى هذه البلاد أو الفقراء فقرا مدقعا ممن فضلوا شظف العيش فى بلاد يعرفونها على شظف العيش والمصير المجهول فى بلاد لا يعرفونها.. إلى جانب بعض اليهوديات اللاتى تزوجن من مسلمين.

وبنزوح غالبية يهود شمال افريقيا اصبحت المجتمعات اليهودية اقل عددا ومجرد قطرة فى محيط من العرب و المسلمين، الامر الذى زاد من احساسهم بعدم الامان وجعلهم اكثر ولاء وطاعة للحكام عن ذى قبل عندما كانوا يدفعون الجزية للحاكم العربى نظير توفير الحماية لهم. ويعترف ساتلوف ان اضطهاد البلاد العربية لليهود كان يقل كثيرا عن المجازر التى حدثت لهم فى البلاد الاوربية وبولندا وروسيا وأوكرانيا. ولكن ذاكرتهم ظلت تحتفظ بذكرى الضرائب الجائرة المفروضة عليهم والاهانات اليومية التى وجهها العرب اليهم وتصاعد اعمال العنف ضدهم من وقت لاخر.

وبالنظر الى ان حياة اليهود فى شمال افريقيا اعتمدت اعتمادا كاملا على حماية الحاكم لهم فان مصلحتهم اقتضت مساندته بكل ما اوتوا من قوة بغض النظر عن اتجاهات هذا الحاكم السياسية. وكانوا يقفون فى وجه الدعوات الغربية المنادية بترسيخ مبادئ الديمقراطية حيث ان هذا كان من شأنه اضعاف هيمنته. فلا غرو اذا رأينا اليهود يشيدون بحسن معاملة سلطان المغرب لهم. ولكن اليهود الذين آثروا الهجرة من البلاد العربية كانوا اكثر صراحة فى التعبير عن شكواهم من سوء المعاملة. والجدير بالذكر ان آلاف اليهود الذين هاجروا من تونس والمغرب يستبد بهم الحنين إلى زيارة مصافيهما والاماكن اليهودية المقدسة فى هاتين البلدتين ويذهب ساتلوف إلى ان حكومة فيشى لعبت دورا كبيرا فى تصدير

الهولوكست من اوربا التى انشأتها هناك. كما ان الهولوكست وصل إلى تونس عن طريق رجال الوحدة الخاصة النازية وإلى ليبيا عن طريق حكومة موسولينى الفاشية.

ويعبر ساتلوف عن اسفه بسبب اختلاف العلماء اليهود انفسهم حول هذا الموضوع. ففى ابريل عام ٢٠٠٤ طلبت اسرائيل من خبيرين فى لجنة التعويضات عن الهولوكست اعداد تقرير عن عدد الناجين من الهولوكست فى يومنا الراهن ولكن هذين الخبيرين توصلا إلى نتائج شديدة التباين والاختلاف فقد حدد الخبير اليهودى الامريكى جاكوب اوكيليس عدد هؤلاء الناجين من الهولوكست بـ ٦٨٧٩٠٠ شخص فى حين قدر زميله سرجو ديلا بيرجولا الاستاذ بالجامعة العبرية عددهم بمليون واثنين وتسعين الف شخص. ويرجع السبب الاساسى فى هذا الاختلاف الواضح فى التقدير إلى ان الخبير ديلا بيرجولا ضم فى تقديره اليهود الناجين من الهولوكست فى البلاد العربية فى حين ان اوكيليس استبعدهم. وقد كان لهذا الاختلاف الكبير فى التقدير اثره فى توزيع التعويضات على المتضررين من الهولوكست وخاصة لان احصائيات ديلا بيرجولا تدل على ان ما يقرب من نصف عدد الناجين من الهولوكست يعيشون فى اسرائيل فى حين قدرتهم احصائيات اوكيليس بـ ٣٨,٥٪ فقط.

ويقول ساتلوف ان مؤسسة ياد فاشيم المنوط بها تحديد الاتقياء من غير اليهود الذين انقذوا اليهود من المحرقة ظلت حتى عام ٢٠٠٦ عاجزة عن التوصل إلى نتائج محددة فى هذا الشأن. فقد ذكر يائيل ريتشلر فريدمان رئيس قسم المناهج بمؤسسة ياد فاشيم ان كثيرا من زوارها من الاطفال لا يزالون يعتقدون ان اليهود الاشكنازى الغربيين هم الذين تعرضوا للمحرقة دون سواهم وان ضم يهود شمال افريقيا إلى قائمة ضحايا الهولوكست لايزال يواجه عقبات واعتراضات. ومعنى هذا ان اليهود انفسهم لم يحسموا هذا الامر. ولايزالون منقسمين فيما بينهم حول هذا

الموضوع. ويرى ساتلوف ان هناك ما يشيربالخير بالنسبة للاعتراف بيهود شمال افريقيا كضحايا للهولوكست واستعداد اللجنة الدولية للتعويضات لدفع تعويضات لنزلاء نحو مائة معسكر عمل فى كل من مراكش والجزائر وتونس. وبعد جولة من المفاوضات عقدتها اللجنة اليهودية للمطالبة بالتعويضات لصالح ضحايا الهولوكست عام ٢٠٠٦ وافقت المانيا على دفع تعويضات لضحايا معسكرات العمل النازية فى تونس.

ويفخر ساتلوف بأنه استطاع بأبحاثه عن الهولوكست فى شمال افريقيا اقناع الحكومة الالمانية بتعويض ضحاياه فى شمال افريقيا. وفى شهر اغسطس عام ٢٠٠٣ تلقى ساتلوف اثناء وجوده فى المغرب رسالة بالبريد الالكترونى من الدكتور ويسلى فيشر رئيس قسم البحوث الخاصة بمطالبة اليهود بالتعويضات عن الاضرار التى ألحقها الهولوكست بهم يسأله عن المعلومات التى توصل اليها حول معسكرات العمل فى شمال افريقيا. وعندما بحث ساتلوف بالوثائق التى عثر عليها حول هذا الموضوع تلقى تهنئة حارة من المسئولين عن قسم التعويضات ويعبر ساتلوف عن شعوره بالمفارقة الكبيرة من ان بحثه عن العرب الذين لعبوا دورا فى انقاذ اليهود من الهولوكست قاده إلى الكشف عن يهود ضحايا سقطوا من ذاكرة الهولوكست الجماعية ممن يستحقون الانصاف والحصول على تعويضات من مضطهديهم.

يذهب ساتلوف إلى انه استطاع ببحثه ان يهز بعض الشىء افكار العرب للهولوكست كما أنه يتهم النخب العربية المتعلمة بترسيخ اعتقاد العرب بأن الهولوكست مجرد فرية لا اساس لها من الصحة وبأن الصهيونية صنو للنازية لاذكاء كراهية العرب المشبوبة لليهود ولدولة اسرائيل بهدف تحويل انظار الشعوب العربية عن مشاكلها الداخلية المتمثلة فى الفساد والاستبداد. ويرى ساتلوف ان العرب الذين يناضلون من اجل تعريف شعوبهم بحقيقة الهولوكست يريدون ازاحة العوائق التى تحول دون تحقيق المصالحة بين العرب

واسرائيل مثلما فعل الامير حسن بن طلال عم الملك عبدالله الثانى ملك الاردن وسليل النبى محمد عندما قبل الدعوة فى بولندا والتى كانت فى يوم ما تمور باعداد هائلة من اليهود وتفخر باحتوائها على اكثر من اربعة وعشرين معبدا. وهى المدينة التى حولها النازيون فيما بعد إلى قلعة صناعية ومعسكر موت يعرف بمعسكر أوشوتيز للاعتقال. والجدير بالذكر ان المعبد المشار اليه تحول تحت النظام الشيوعى البولندى إلى متجر لبيع السجاد. وبعد زوال الحكم الشيوعى من بولندا شن المواطن الامريكى فريد شوارتز حملة لاعادته إلى سابق نشاطه الدينى واستخدامه كمكان مقدس من قبل اليهود. ونظرا للصداقة التى ربطت ساتلوف بفريد شوارتز فقد اقترح عليه دعوة الامير حسن بن طلال لحضور حفلة الافتتاح.

ولم يستجب فريد لهذا الاقتراح فحسب بل انه طلب من هذا الامير العربى الاشتراك فى تركيب بعض اجزاء باب المعبد الخارجى. وكان لحضور هذا الامير الاردنى بالغ الاثر وايضا جاءت كلمته فى هذا الحفل مؤثرة اذ قال: «بعد النجاة من الموت يأتى الاحياء. وهذه المناسبة تحمل بالنسبة لنا جميعا رسالة مفادها ان الحياة لا تنتهى بالموت».

ولم يكن الامير حسن بن طلال العربى الوحيد الذى جاء إلى معسكر الموت النازى أوشوتيز للاحتفال بذكرى الهولوكست فقد حضر للاحتفال بذكرى محرقة اليهود فى أوشوتيز فى مايو ٢٠٠٣ وفد مشترك يضم ١٢٠ شخصا من عرب اسرائيل و١٣٠ من يهود اسرائيل. وايضا حضر الاحتفال الداعية العربى الاسرائيلى اميل شوفانى وقسيس ارثوذكس يونانى لتبصير العرب بفظائع المحرقة والدعوة إلى مد جسور التفاهم بين العرب واليهود. وقبل مجيئه إلى اوشويتز بعدة شهور عقد شوفانى حلقات نقاش لكل من العرب واليهود هدفها توضيح الفظائع التى سوف يرونها وضرورة مد جسور التفاهم بينهم وقد اصدر العرب المشتركون فى هذا بيانا

قبل سفرهم إلى بولندا بشهرين جاء فيه:

«نحن الموقعين ادناه من المواطنين العرب فى اسرائيل نخشى تدهور العلاقات بين العرب واليهود فى بلادنا.. وانطلاقا من مسئوليتنا الانسانية واعتقادا منا بانه يمكننا تغيير مناخ العلاقات اليهودية العربية فى اسرائيل فاننا نبدأ هذه المبادرة الانسانية. نحن نسعى إلى مشاركة الاخر احساسه بالألم وكلا الشعبين لا يستطيعان نبذ سفك الدماء بدون ان يفهم كل طرف ألم الطرف الآخر والمخاوف التى تدفع كل طرف إلى خط النار والمواجهة والحرب. وبسبب تفهمنا لهذا المبدأ قررنا ان نغوص فى اعماق الماضى ونسبح فى تاريخ اليهود».

وبطبيعة الحال تعرض الوفد العربى حتى قبل ان يشد رحاله إلى معسكر أوشوتيز للاعتقال لهجوم مقذع من الصحافة العربية التى اتهمتهم بأنهم اذناب اليهود. وهدد احد المسئولين فى الكنيسة الارثوذكسية اليونانية فى القدس بتنظيم مسيرة مضادة من اليهود والعرب لزيارة معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى كل من صبرا وشاتيلا فى لبنان التى شاهدت مجزرة الفلسطينيين فى عام ١٩٨٣ على يد الميليشيات اللبنانية التى حظيت بحماية القوات الاسرائيلية لها.

ولكن هذا التهديد لم يفت فى عضد الجماعة التى تزعمها شوفانى فقد قال العربى نهيدات شافعى البالغ من العمر ستة و اربعين عاما والقادم من منطقة الجليل فى اسرائيل معلقا على جدار الموت فى معسكر اوشوتيز حيث اطلق النازيون النار على آلاف اليهود السجناء: «ان وجودنا هنا تجربة عظيمة الاثر على نحو يعجز المرء عن الكلام».. وقد عبرت امرأة عربية عن نفس المشاعرفى الكلمة التى نشرتها ولكنها لم تنس ان تذكر الألم العظيم الذى يكابده الشعب الفلسطينى. وبوجه عام تم هذا اللقاء العربى الاسرائيلى فى اطار انسانى تجاوز الخلاف السياسى الذى يفصل العرب عن اليهود.

وفى ابريل ٢٠٠٥ اقام خالد محميد بماله الخاص معهدا عربيا لدراسة الهولوكست فى مدينة الناصرية التى شاهدت توترا واعمال عنف بين المسلمين والمسيحيين وقال هذا المحامى ان هدفه من وراء اقامة هذا المعهد هو دعوة العرب إلى فهم حاجة اليهود الملحة للالتجاء إلى ملاذ آمن.. قال ان «اسرائيل اقيمت على رماد المحرقة» وبطبيعة الحال اشعلت هذه التصريحات غضب العرب وافراد عائلته عليه لدرجة انهم تبرأوا منه. حتى اليهود انفسهم عبروا عن سخطهم على هذا المعهد لان صاحبه اراد ان يبين ان عذاب العرب هو نتيجة عذاب اليهود وان تشريد العرب واضطهادهم هو نتيجة اضطهاد هتلر لبنى اسرائيل.

وبعد ان يعرض ساتلوف لأفكار كثير من العرب للهولوكست نراه ينوه بمجهودات بعض المثقفين العرب لتأكيده مثل المسيحى الاردنى رامى خورى الذى ذهب إلى ان مصلحة العرب تقتضى منهم الاعتراف بحدوث الهولوكست لان العالم يشيح بوجهه عنهم بسبب انكارهم للمحرقة. يقول رامى خورى فى هذا الشأن: «الحقيقة ان وسائل الاعلام واهم الدوائر السياسية تستمر فى اتخاذ مواقف مناهضة لنا بسبب مواقفنا وسياستنا نحو اسرائيل ونحو التجربة اليهودية الحديثة.. الامر الذى يثير اعصاب معظم الناس فى العالم العربى.. ولكن الهولوكست حقيقة واقعة ولا مفر من الاعتراف بها ومصلحتنا تتطلب هذا الاعتراف بدلا من الاكتفاء بالشتائم واللعنات.

وفى حين يدافع رامى خورى عن ضرورة اعتراف العرب بالهولوكست على استحياء نرى استاذا للغة الانجليزية فى احدى جامعات شمال افريقيا - تحت اسم مستعار هو شمس الدين - مهاجما بجرأة غير معهودة فى العالم العربى انغلاق عقول العرب الامر الذى يجعلهم عاجزين على التعاطى مع معطيات العالم الحديث ويؤكد ضرورة اعترافهم بان الهولوكست حقيقة لا يرقى اليها ادنى شك وانه يندرج تحت وصف الجرائم ضد الانسانية.

والرأى عند هذا الاستاذ الجامعى انه لا سبيل إلى فهم العالم المعاصر بدون الاعتراف بالهولوكست. بل انه ذهب إلى ما هو ابعد من ذلك وهو ان الاعتراف بالهولوكست هو السبيل إلى اصلاح المجتمعات العربية. يقول شمس الدين فى هذا الشأن: «هناك فى العالم العربى كثير من المفكرين الذين يتربعون على عرش الثقافة ويثيرون اعجابنا بهم بسبب نضالهم وتعريض حياتهم للخطر من اجل قضايامثل حقوق الانسان والحرية والديمقراطية والعدل الخ.. ولكن العجيب ان احدا منهم لم يفكر فى علاقة هذه القضايا بالهولوكست أو اهمية التفكير فى الهولوكست».

قلنا ان مؤسسة ياد فاشيم المعنية بمعرفة الاتقياء بين الامم ظلت لا تعترف بان نفرا من غير اليهود انقذوا بعض يهود شمال افريقيا من الهولوكست. غير انها مالبثت ان غيرت موقفها عام ١٩٩٧ حيث انها نشرت فى هذا العام اول مجلد له صبغة علمية يتضمن اضطهاد اليهود فى كل من ليبيا وتونس فى فترة الحرب العالمية الثانية وفى عام ٢٠٠٥ قام التليفزيون الاسرائيلى بعرض عذابات يهود شمال افريقيا على شاشاته. فضلا عن ان المعلمين فى اسرائيل تلقوا مقررات دراسية معدلة عن ضحايا الهولوكست فى عام ٢٠٠٦. ويرى ساتلوف ان عدم اعتراف المؤسسات اليهودية بوجود عرب ساهموا فى انقاذ اليهود من الهولوكست يرجع إلى سببين اولهما ان العرب الذين فعلوا هذا ارادوا الاحتفاظ بأفعالهم سرا.. وثانيهما ان اليهود لم يبذلوا الجهد المطلوب لإماطة اللثام عنهم.

وفى المراحل الاخيرة من البحث عن العرب الاتقياء زار ساتلوف تونس فى اكتوبر ٢٠٠٥ فعثر على كثير من الدلائل على وجودهم. فعندما زار ابنة خالد عبدالوهاب فى قرطاجة قالت له مرافقته لاواتى و احمد سماوى ان عائلتيهما كانتا تخبئان بعض اليهود فى منزلهما فى فترة الاحتلال النازى وبينما ساتلوف يتجول فى شوارع تونس العاصمة اشترى نسخة من سيرة حياة طبيب تونسى اسمه

محمد تلاتلى قادم من نابولى . وترجع اهمية هذا الطبيب إلى انه وفر الحماية لليهود اثناء الاحتلال الالمانى وقام بايوائهم فى مزرعة عائلته كما انه اصدر لهم شهادات طبية تفيد بعجزهم عن اداء الاعمال الشاقة. وكذلك اخبره المخرج التونسى عبداللطيف بن عمار انه كان على وشك انتاج فيلم عن الرعاة العرب فى طبرق الواقعة غرب تونس الذين اخفوا اليهود الفارين من الاحتلال الالمانى. ويضيف هذا المخرج التونسى ان هؤلاء الرعاة البسطاء درجوا على ايواء اليهود فى اكواخهم واقتسام طعامهم الهزيل وملابسهم المهلهلة معهم. وعندما جاء الألمان يبحثون عن اليهود المختبئين ادعوا بأنهم اقاربهم واولاد عمومتهم. واضاف هذا المخرج ان الفيلم لم يظهر إلى النور لان الممولين صرفوا النظر عن انتاجه بعد احداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١.

ويعبر ساتلوف عن اسفه لان الذين يحملون ذكريات عن الهولوكست فى شمال افريقيا فى طريقهم إلى الاندثار. ويستطرد قائلا ان منظمى حلقات النقاش فى الجامعات العربية عندما يدعونه للمحاضرة يتوقعون منه الحديث فى السياسة الامريكية ويتجاهلون رغبته الشديدة فى الحديث عن العرب الذين لعبوا دورا ايجابيا فى انقاذ اليهود من الهولوكست ورغم ذلك فقد اتفق ساتلوف مع زميل له فى جامعة الاردن على دعوته لإلقاء اول محاضرة عن هذا الموضوع الاثير إلى قلبه ولم يزد عدد المستمعين لمحاضرته فى الجامعة الاردنية عن نحو عشرين شخصا حدثهم عن ترحيل حكومة فيشى والنظام النازى لليهود من اوربا إلى مراكش والجزائر حيث اقيمت معسكرات العمل لآلاف اليهود فى تونس وعن موت المئات منهم من مرضى التيفوس فى المعسكرات الايطالية المقامة فى ليبيا. ويخلص ساتلوف إلى ان استماع عدد محدود من الاردنيين إلى محاضرته هو بمثابة شرخ فى الجدار العربى السميك الذى ينكر الهولوكست ومؤشر على امكانية اتساع هذا الشرخ بحيث يأتى اليوم الذى يعترف فيه العرب بأن المحرقة

اليهودية حقيقية وليست محض اختراع أو ثمرة من نسج الخيال.

ويعلق ساتلوف على ردود فعل المستمعين إلى محاضرته بقوله انهم لم يطالعوا فى الحكايات التى يرويها عن الشهامة العربية اية ايحاءات سياسية عميقة المغزى فقد اعتبرها الحاضرون نوعا من الشفقة الانسانية العادية التى تخلو من اية دلائل سياسية أو مواقف ايديولوجية.

●●●

عرضت فيما تقدم اهم الموضوعات التى ضمنها المؤرخ روبرت ساتلوف والخبير فى شئون الشرق الأوسط فى كتابه المثير «بين الاتقياء: حكايات ضائعة عن وصول الهولوكست إلى الاراضى العربية». وأود هنا ان اسجل بعض الملاحظات على هذا الكتاب اوردها فى النقاط الآتية:

«أولا» الكتاب على جانب عظيم من الاهمية لانه يتطرق إلى موضوع لم يسبق ان عالجه احد بمثل هذه الاستفاضة والتفاصيل وهو موقف عرب شمال افريقيا بين الخسة والنذالة والنبل والشهامة. ورغم ذلك فان الكتاب فى مجمله يدعوإلى احلال ثقافة السلام محل ثقافة الصراع والصدام بين اسرائيل والفلسطينيين .. ولا يفوتنا هنا ان نذكر ان النصف الاول من الكتاب يتضمن قدحا فى عرب شمال افريقيا فى حين ان نصفه الثانى يتضمن مدحا لهم.

«ثانيا» ان الكتاب لا يرقى بأى حال من الاحوال إلى مرتبة التاريخ أو التأريخ فهو قبل كل شىء وفوق كل شىء مجرد حكايات وروايات غير موثقة بالمرة وتعتمد فى مصداقيتها على أمانة الراوى أو الناقل لها. ومع افتراض حسن النوايا فان الذاكرة الانسانية كثيرا ما تخون صاحبها فى كثير من الاحيان. ومن ثم فان الكتاب على احسن تقدير يحتوى على مجرد مؤشرات ودلالات وليس على ادلة تثبت صحة ما ورد فيه.

«ثالثا» ان مؤلف الكتاب يعترف منذ البداية بولائه لامريكا وطنه وبأن اوثق الوشائج تربطه باسرائيل. ولابد ان نفهم كتابه فى هذا الاطار .

«رابعا» ان الكتاب كما اسلفت فريد من نوعه رغم كل ما يشوبه من مثالب واوجه قصور حيث اننا نجد ان المكتبات الاجنبية زاخرة بآلاف الكتب والمراجع التى تعالج وضع اليهود فى غرب وشرق اوربا فى حين ان وضعهم فى شمال افريقيا كاد ان يسقط تماما من ذاكرة التاريخ لولا محاولة ساتلوف اليائسة لاسترجاع بعضا منه.

«خامسا» يثير الكتاب نقطة بالغة الاهمية تتلخص فى ميل العرب لانكار محرقة اليهود أو التهوين من شأنها إما نتيجة الجهل المطبق أو الشماتة أو التعصب الدينى أو الغضب من اعتداءات اسرائيل الوحشية على الفلسطينيين.

«سادسا» ان ساتلوف لايجانبه الصواب عندما يقول ان بعض النخب العربية هللت للانتصارات التى احرزها ثعلب الصحراء روميل على القوات البريطانية - الامريكية فى شمال افريقيا. و لن انسى فى يفاعتى تلك المظاهرات الحاشدة التى جابت شوارع القاهرة وهى تهتف «تقدم ياروميل» دون ان تدرى مدى ازدراء هتلر للشعوب العربية برمتها وان زرايته بها لا تقل عن زرايته باليهود.

«سابعا» ان العنوان الاصلى للكتاب وهو «بين الاتقياء» يشوبه نوع من الغموض أو اللبس الذى قد يكون متعمدا فهو يشرح لنا بوضوح سوى فى نهايه المقصود بهؤلاء الاتقياء: هل هم العرب الذين انقذوا اليهود ام هم اليهود الذين تعرضوا لخسف العرب واضطهادهم كما يوحى بذلك النصف الاول من الكتاب. ويحلو لى ان اطرح هذا التساؤل: اذا كان العرب الاشرار قلة كما يقول المؤلف فلماذا يخصص النصف الاول من كتابه للحديث المستفيض من شرورهم؟!

ألم يكن يجدر به ان يبدأ كتابه بالعرب «الاتقياء» ثم يعرض

بعدئذ للعرب الاشرار الذين يصفهم بانهم قلة؟!

«ثامنا» ان جهل العرب بالهولوكست له ما يبرره كما انه جزء لا يتجزأ من الجهل العام المتفشى حتى فى الطبقات المتعلمة فإن نسيت فلن انسى ان احد رؤساء الجامعات المصرية سألنى ذات مرة عن الموضوع البحثى الذى يشغل بالى. وعندما اجبته بأنى مشغول بدراسة الهولوكست مال على وسألنى على استحياء عن معنى الهولوكست.

وايضا جهل العرب بالهولوكست قد يكون له ما يبرره. فما ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها فى عام ١٩٤٥ حتى نشبت الحرب بين اليهود والعرب عام ١٩٤٨ وفى ذلك التاريخ الباكر كانت معرفة الاوربيين انفسهم بالهولوكست الاوربى الذى حدث بين ظهرانيهم ضئيلة للغاية ولاشك ان ساتلوف نفسه يعلم قبل غيره ان المذكرات والوثائق المتعلقة بالهولوكست لم تظهر إلا مؤخرا فى عقد الستينيات وما تلاه من عقود اى انها ظلت خافية على العالم حتى وقت متأخر. بل ان الحكومة الألمانية لم تقرر فتح ملفات الهولوكست وتوفيرها للباحثين إلا منذ بضعة شهور اى بعد ان كان العرب غارقين لآذانهم فى كراهية اليهود والصدام المسلح معهم. ولا يعقل ان يطالب طرف منخرط فى اعمال المجابهة ان يضع سلاحه جانبا ليدرس تاريخ عدوه و احداث المحرقة اليهودية.. واحقاقا للحق لم يكن بمقدورى التوفر على دراسة الهولوكست بموضوعية لولا وجود معاهدة سلام بين مصر واسرائيل فالحديث عن الهولوكست فى ظل احتدام الصراع والاقتتال هو بمثابة اقدام على الانتحار.

«تاسعا» اما اليهود فقد كان لهم شأن آخر فهم يدرسون الهولوكست لاكثر من سبب فهو قبل كل شىء وفوق كل شىء مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم. فضلا عن أحد الدوافع المهمة لدراسته هو المطالبة بالتعويضات عما لحق بهم من خسف واضطهاد.

«عاشرا» صحيح ان هناك فرقا بين النازية والصهيونية ولكن

التاريخ داهم العرب ولم يمهلهم فوجدوا انفسهم منخرطين فى الصراع العربى الاسرائيلى دون ان يوفر لهم التاريخ متسعا من الوقت للتمييز بين الاثنين.. وساعد على خلط العرب بينهما ان اسرائيل تفرط فى استخدام القوة مع الفلسطينيين ولا تعطيهم فرصة للوصول إلى تفاهمات تحفظ ماء وجههم.

«الحادى عشر» لا احد فى العالم العربى باستثناء الاصوليين الإسلاميين والشيوعيين يكترث بالسياسة أو الافكار الايديولوجية فقد عودتهم حكوماتهم الاستبدادية المتعاقبة ان يتركوا السياسة للحاكم وان يكتفوا بدورهم كمتفرجين. ولهذا فليست هناك اية غرابة فى ان ينظر العرب الذين صدقوا حديث ساتلوف من وجود هولوكست فى شمال افريقيا إلى بنى جلدتهم الاتقياء الذين انقذوا بعض اليهود على انهم مجرد اناس طيبين تحركهم مشاعر الشفقة والرحمة نحو المضطهدين من اليهود. ثم ان الامر لم يعد كذلك بعد عام ١٩٤٨ حيث رأى العربى ان اليهودى اصبح ظالما بعد ان كان مظلوما وجلادا بعد ان كان ضحية. وعلى اية حال لن تثمر دعوة ساتلوف إلى ثقافة السلام إلا اذا آمن الطرفان المتصارعان بها وتخلت اسرائيل عن الافراط فى استخدام القوة وعن زهوها بتفوقها العسكرى لأن اسرائيل بدون سلام مع العرب سوف تعانى من ردود الفعل العصبية ولن يهدأ لها بال لانها سوف تحيا على الدوام فى حالة قلق وترقب وخوف وتوجس سوف يحيل حياتها إلى شىء اشبه بالجحيم الذى يكابده الفلسطينيون حتى ولو تمتعت بالقدرة على اخضاعهم لهيمنتها.

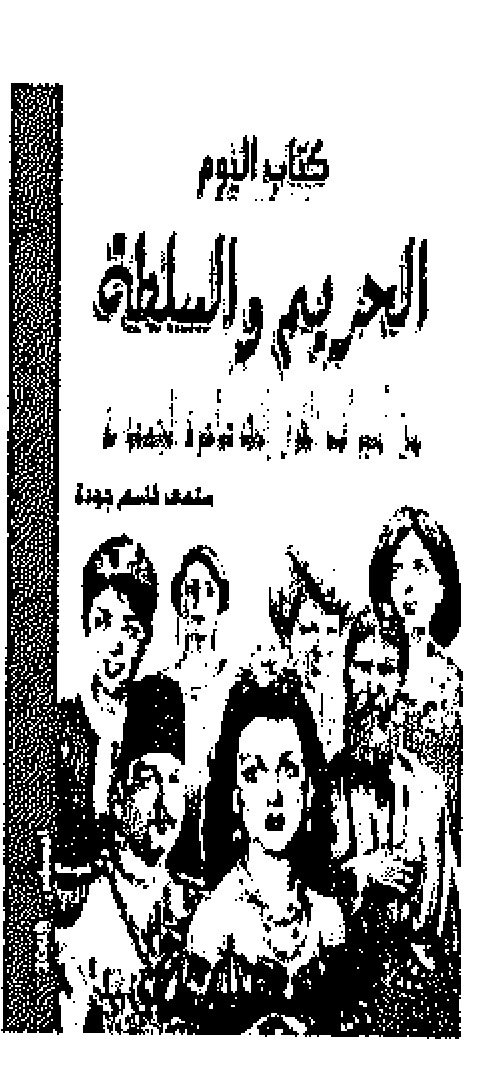
«الثانى عشر» ان ساتلوف يتمتع بقدرة فذة على رواية الحكايات ولعله يفوق الروائيين وكتاب القصة فى قدرته المذهلة على الاثارة والتشويق.

محتويات الكتاب

صدر عن **كتاب اليوم** السلسلة الطبية

اسم الكتاب	المؤلف	تاريخ النشر
حياتى مع السكر	د. مغازى محجوب	منتصف إبريل ٢٠٠٦
الرضا النفسى	د. أحمد عكاشة	منتصف مايو ٢٠٠٦
١٠٠ وجبة شهية	إسماعيل هاشم	منتصف يونيو ٢٠٠٦
ساعة لقلبك	د. محمد خيرى عبد الدايم	منتصف يوليو ٢٠٠٦
الجلد عنوان الجمال	د. خالد حسن الحوشى	منتصف أغسطس ٢٠٠٦
أغذية تحمى من مرض العصر	د. مصطفى عبد الرزاق نوفل	منتصف سبتمبر ٢٠٠٦
وجبات رمضانية	إسماعيل هاشم	منتصف أكتوبر ٢٠٠٦
شتاء بلا أمراض	نخبة من الأطباء	منتصف نوفمبر ٢٠٠٦
الجنس وصحتنا النفسية	د. يسرى عبد المحسن	منتصف ديسمبر ٢٠٠٦
دع المرض وابدأ الحياة	د. جمال العطار	منتصف يناير ٢٠٠٧
صحة الأبدان فى سلامة الأسنان	د. عبد التواب خلف	منتصف فبراير ٢٠٠٧
عش سعيداً مع السكر	أ.د . إيناس شلتوت	منتصف مارس ٢٠٠٧
النجاح والتفوق من الحضانة إلى الجامعة	د. يسرى عبد المحسن	منتصف أبريل ٢٠٠٧

صدر من كتاب اليوم





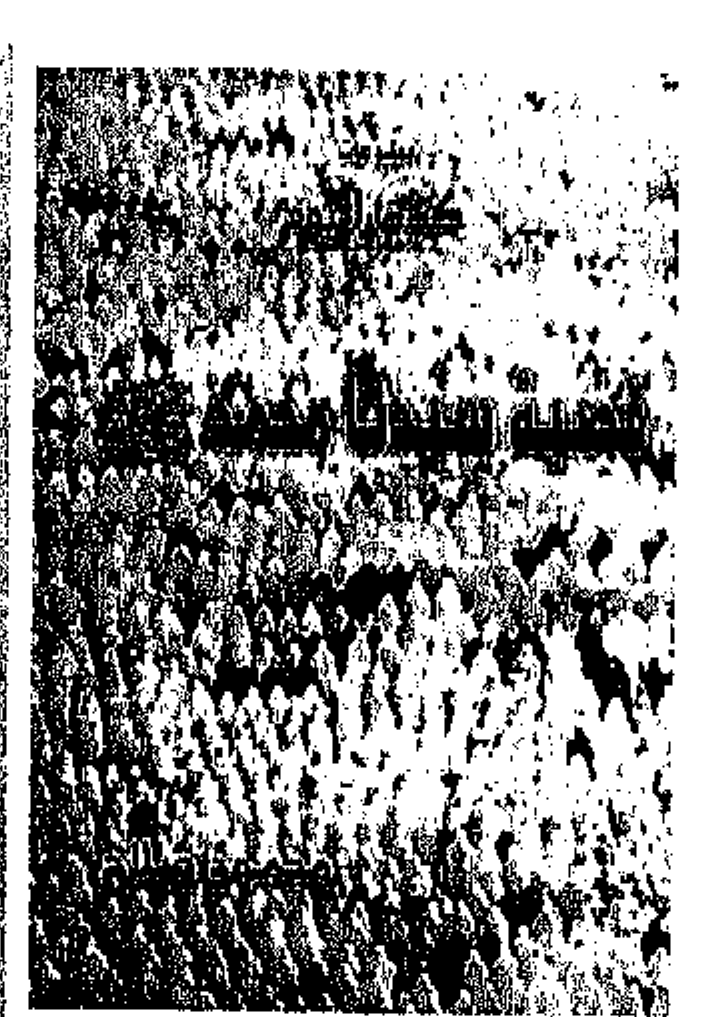
















صدر من كتاب اليوم

كتاب اليوم

حكاية ابن سليم

علي عيد

كتاب اليوم

عباس محمود العقاد

إبليس

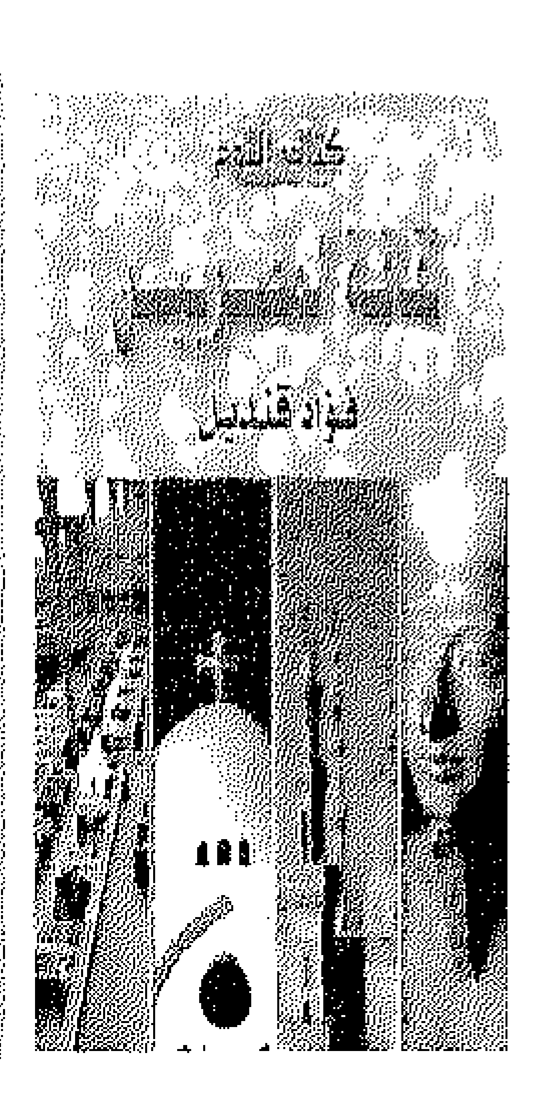


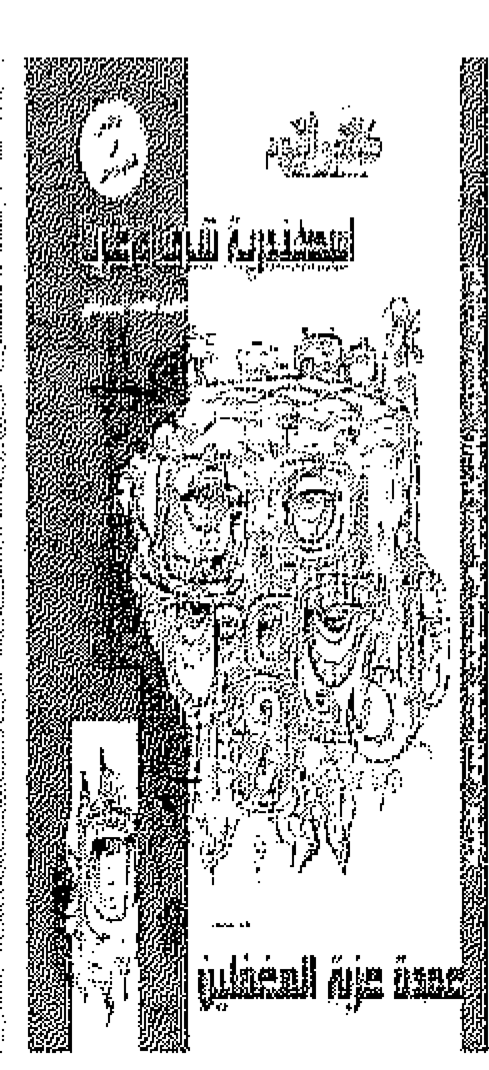
كتاب اليوم

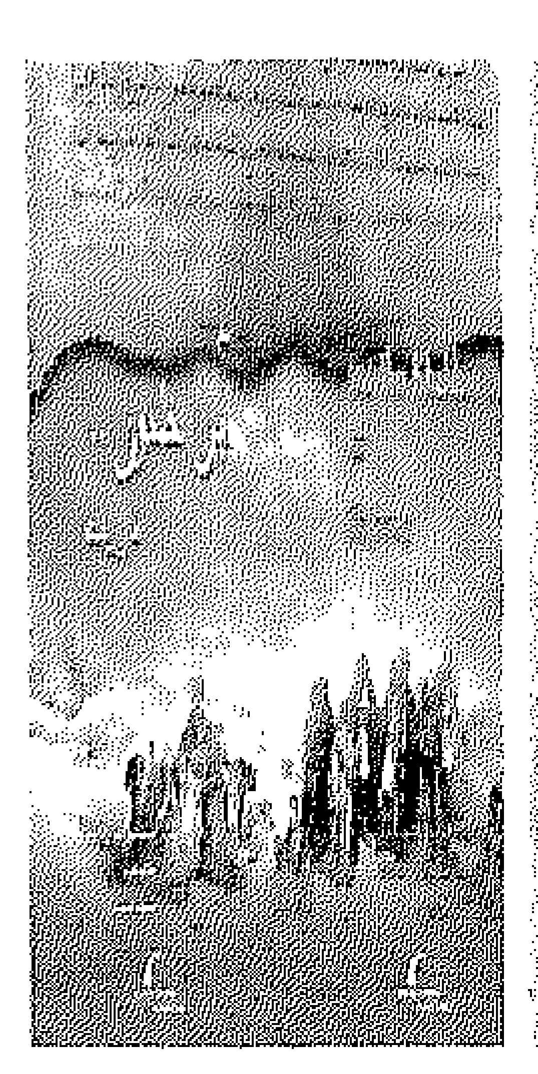
مصطفى أمين

فكرة!





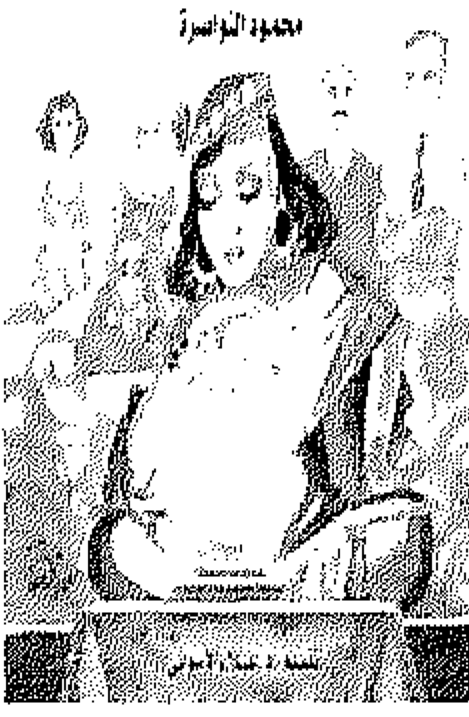




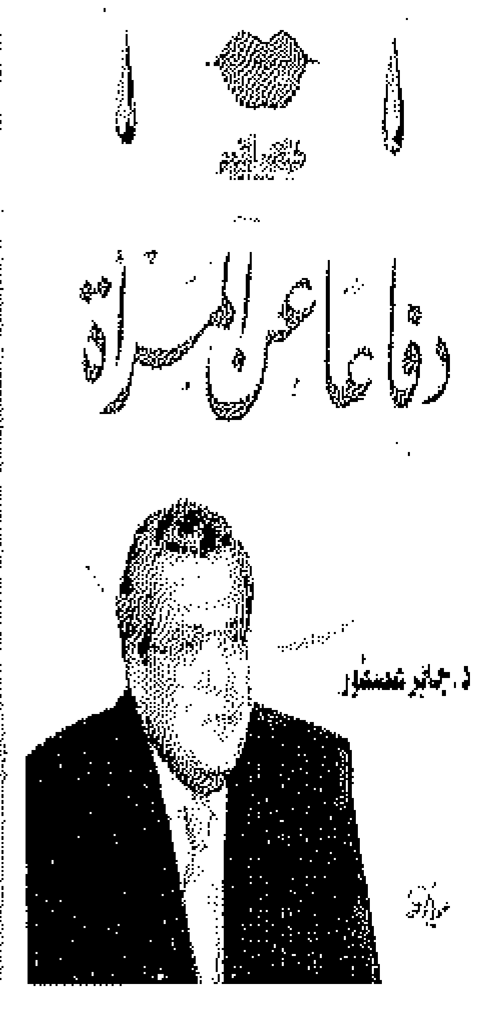
كتاب اليوم

الراقصون على النار

محمود النواصرة







دفاعا عن المرأة









حلم العمر

HELM AL OMR

2007

- أول كتالوج يقدم التفاصيل الكاملة لبناء عش سعيد
- رحلة كل عروسين من الخطوبة الى شهر العسل
- أحدث أساليب تصميم البيت العصري وأفكار مبتكرة لفستان الفرح والشبكة وتسريحات الشعر والماكياج
- حوارات مع أشهر مصممى الديكور والكوشه و المتخصصين فى التخطيط لحفلات الخطوبة والزفاف
- نختار معك أجمل الأماكن لقضاء شهر عسل أسطورى

٢٨٠ صفحة (٦٠ جنيه)

رئيس مجلس الإدارة
محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير
نوال مصطفى

بطاقة فهرسه
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

عوض، رمسيس.
العرب الاتقياء ومحرقة اليهود /
رمسيس عوض ط ٠١ . القاهرة: دار
أخبار اليوم، ٢٠٠٦.
١٧٦ ص، ٢٠ سم.. (سلسلة كتاب اليوم).
تدمك ٤ ١٣٢١ ٠٨ ٩٧٧

١. العرب واليهود ٩٥٦,٩٠٣
أ. العنوان

رقم الايداع ١٠٩٦١ / ٢٠٠٧

I.S.B.N.977-08-1321-4

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر

كوبون اشتراك

الاســــــم: ....

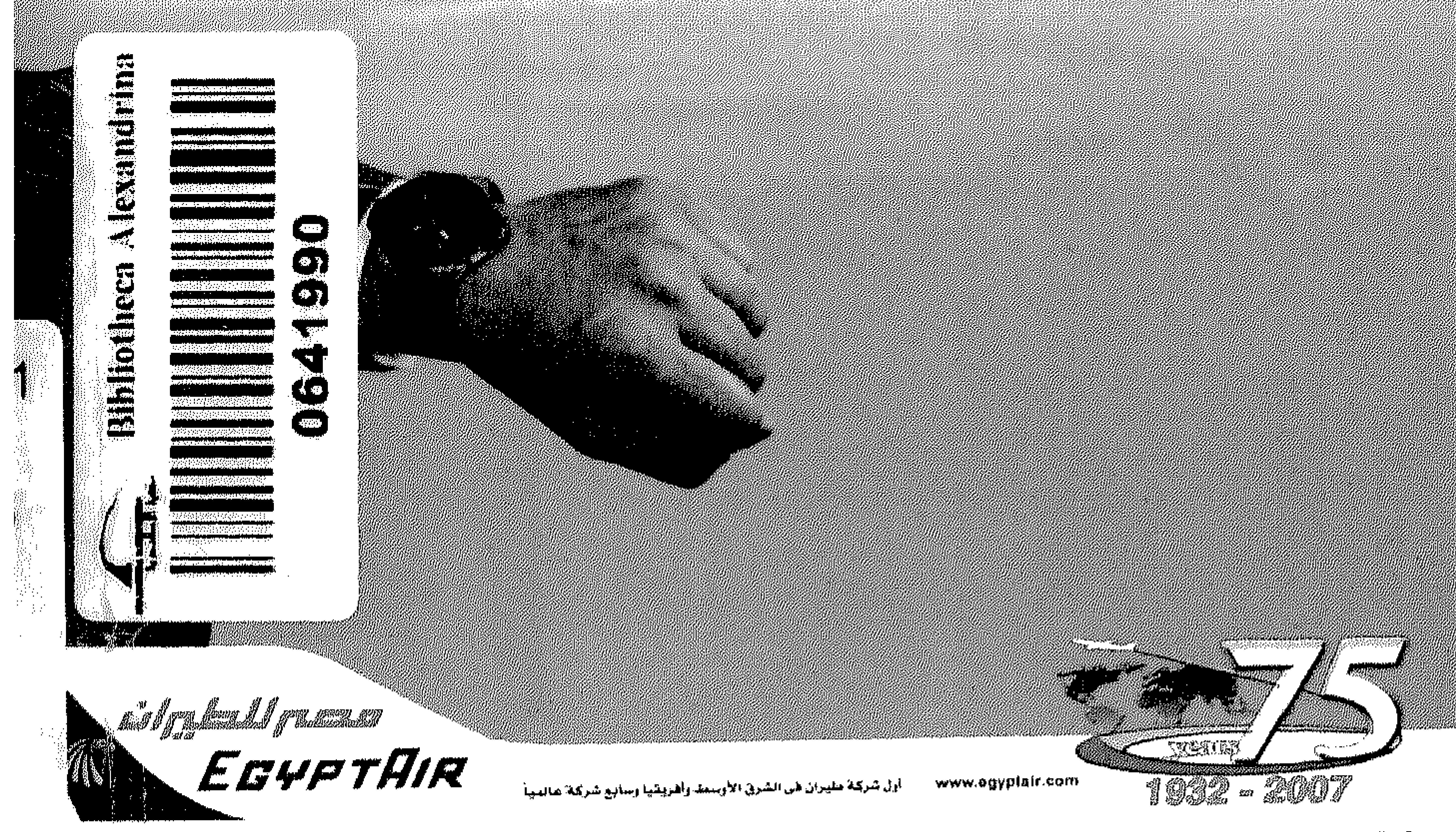
العنـــــــوان: ....

رقم التليفــون: ....

مدة الاشتراك: ....

السداد/ نقدا شيك مصرفى

برجاء قبول اشتراكى فى كتاب اليوم.. ومرفق طيه شيك مصرفى لأمر اشتراكات أخبار اليوم على ان يبدأ الاشتراك اعتبارا من / / ٢٠٠





الثمن 8 جنيهات
طبع بمطابع أخبار اليوم